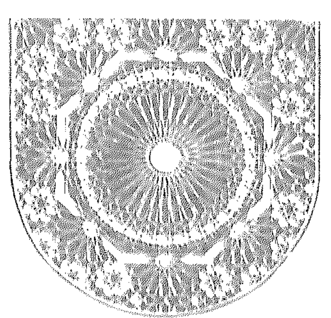


حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

مذكرات كازانوفا

٩



حلمي مراد يقدّم كنوز كتب التراث

٩

مذكّرات كازانوڤا

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



هذا الكتاب الخالد .. وتقييم أعظم أدباء العالم له !

إذا ذكر اسم « كازانوفا » ، قفزت إلى الذهن صورة أستاذ الهوى وفارس الغرام ، الملتف بغلائل من الخيال تجعله فى عداد شخصيات الأساطير والخرافات !.. ولقد عاش « كازانوفا » ـــ فى إيطاليا ـــ فى عصر جمع بين الفروسية والشهامة من ناحية ، وبين الاستهتار والفجور من ناحية أخرى ، فكان له نصيب فى الناحيتين على السواء !

لقد أحب كازانوفا ألف امرأة وامرأة .. وغرر بملك .. وعبث بعقول قارة بأكملها !.. ثم كتب فى النهاية ـــ فى سن السبعين ـــ مغامراته وأحداث حياته فى كتاب ، يكفى فى تزكيته أن تجمع على الثناء عليه ، وتحتشد لتقريظه ، آراء كل هؤلاء الأفذاذ من أدباء العالم ونقاده :

فقد وصفه الأديب العالمى الفذ « ستيفان زفايج » بقوله :

« يا له من كتاب ! بل يا لها من رواية !.. إنها تعرض ـــ فى قصص مشوقة ، تثير العواطف ـــ جميع طبقات المجتمع ، وألوان الشعوب ، وأنواع المناظر ، وترسم لنا صورة لا مثيل لها فى الأدب ، للقرن الثامن عشر .. بمحاسنه الخلقية ومثالبه !.. ومنذ عاش كازانوفا حياته ، وكتب قصته ، لم يقدر لروائى ولا لمفكر أن يبتكر قصة أكثر روعة ورواء .. ولا أن يصور شخصية أغرب من شخصيته .. وأقرب إلى الأساطير ! » .

وجاء فى « دائرة المعارف الأمريكية » :

« .. إن مذكرات كازانوفا تعتبر الآن مرجعا هاما لتصوير الحياة الخاصة فى القرن الثامن عشر ! » .

وقال عالم النفس النرويجى الأشهر « هافيلوك إليس » عن المذكرات :

« إن كل أديب وطيد السمعة والمكانة ، يدرك أن أية إشارة عامة إلى « كازانوفا » يجب أن تبدأ وتنتهى باستنكار أدبى لمباذله التى لا وصف لها . على أنه حين سجل سيرته بقلمه ، حبانا بتاريخ شخصى رائع حملته الأجيال إلينا مع السِّيَر الخاصة التى كتبها « القديس أوجستين » و « تشيلليني » و « جان جاك روسو » عن حياتهم .. وهى تعد أسمى سيرة من نوعها ! » .

وقال الأديب الألمانى الكبير « إميل لودفيج » :

« لا مراء فى شهرة « كازانوفا » ، فقد كتبت سيرته بجميع اللغات ــ حتى إنه ليفوق معاصريه « جيته » و « فريدريك الأكبر » فى الشهرة العالمية ! ــ وكم من ملايين ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، يتبسمون لذكر اسمه .. فى حين أنهم لا يعرفون عن أولئك العظماء الآخرين سوى بعض معلومات جافة !؟ لقد غطى تألقه على بريق الملوك والشعراء فى عصره ، بل إنه يعتبر أشهر رجال قرنه بعد نابليون ، الذى قورن به فى معرض الفكاهة ! » .

وكتب « جيمس ستيوارت مونتجمرى » فى كتابه « كازانوفا العجيب » :

« إن روعة هذه المذكرات ترق بها فى رواء ، من مغامرات « فاجر » إلى « أوديسة » صغيرة !.. فهى قصة رجل قدر له أن يتخذ مكانا إلى جوار الخالدين من أهل الأرض . بل إنه بلغ من الشهرة ذروة لا يشاطره إياها إلا

القليلون ، فأصبح اسمه علما فى كثير من اللغات .. وإذا كان التاريخ لم يعرف إلا « قيصر » واحدا ، و « داروين » واحدا ، و « يهوذا » واحدا ، فإنه لم يعرف أيضا إلا .. « كازانوفا » واحدا ! » .

وأورد « س . جاى أندور » فى كتابه « كازانوفا : ما عُرِف عن حياته وما لم يعرف » قوله :

« إذا أنكرنا على مذكرات كازانوفا قيمتها التاريخية ، كسيرة حقيقية لكاتبها ، فإن ذلك يرفع من قدرها « كقصص غرامية خيالية ! » .

أما « ريمى دى جورمون » فكتب عن مذكرات كازانوفا يقول :

« وماذا لو ظهر أن المذكرات رواية « خيالية » ؟.. لا بأس ، فإن هذا يجعل من كازانوفا أعظم روائىّ فى جميع العصور ! بيد أن هذا مستحيل ، فليس من امرئ يستطيع أن يبتكر كل هذه السلسلة من الأحداث الشديدة التباين ! »

وأما « دائرة المعارف البريطانية » ـــ أشهر موسوعة فى العالم ـــ فقد جاء فيها ، ضمن ما كتب عن هذه المذكرات :

« كتبت بأسلوب جيد ، بارع .. وهى فوق هذا طريفة ، إذ تبدو كصورة موثوق بها لأخلاق وسلوك عصره .. » .

وأخيرا يجىء دور « دائرة المعارف الإيطالية » ، التى تقيّم هذه المذكرات بقولها :

« لقد غدت هذه المذكرات أعظم وأدق صورة للحياة الخاصة فى المجتمع الأوربى ! » .

العاشق الأشهر .. لم يكن وسيما !

ورغم شهرة كازانوفا العالمية ، منذ القرن الثامن عشر ، بصفته «أعظم عاشق عرفه التاريخ» ، فإن شكله ما يزال لغزا ، إذ لا يحتفظ له العالم بغير صورتين صغيرتين ، غير واضحتين .. وقد ظل الأمر على هذا الوضع ، إلى أن أزيح الستار عن هذا اللغز أخيرا ، فى يوليو عام ١٩٥٣ ، حيث عثر تاجر للصور الفنية فى مدينة (بولونيا) بإيطاليا على صورة مطمورة فى أحد المخازن ، فلما أزال عنها الغبار قرأ عليها هذه العبارة : « جان جاك كازانوفا ، ١٧٦٧ » .. وقد تحقق الخبراء من صدق ذلك بعدة قرائن ، ونسبوا الصورة إلى رسام من أصدقاء كازانوفا كان يدعى « رفاييل منجز » .. وقد رسمت الصورة للعاشق الإيطالى الأشهر وهو فى سن الثانية والأربعين ، وهى تظهره مصابا بتضخم الغدة الدرقية ، جاحظ العينين ، ذا دقن مدبب ، وأنف ضخم ، وشفتين تنمان عن ميل شهوانى .. ولا شك أن مواهب أخرى — غير وسامة الوجه — هى التى خلعت على المغامر الأشهر سحره الفتاك الذى لا يقاوم !

الجزء الأول

ينحدر من أسرة « عشاق » !

كانت أسرة « كازانوفا » تنحدر من أصلاب ابن غير شرعي للدون فرانسيسكو كازانوفا يدعى « دون بيتر » ، قدر له أن يغدو سكرتيرا للملك ألفونسو الأسبانى ، ثم اختطف فى سنة ١٤٢٨ راهبة جميلة فر بها إلى روما .. وما لبث البابا أن صفح عنه وأحل الراهبة من مواثيقها ، وبارك زواجهما !

وولد « جايتان جوزيف جاك » ــ والد مؤلف هذه المذكرات ــ فى سنة ١٦٩٦ ، ولم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى هجر أسرته ، وهام وراء ممثلة كانت تقوم بأدوار الوصيفات ، فاحترف الرقص ــ ليكسب عيشه وينفق عليها ــ ثم غدا بعد خمس سنوات ممثلا .. وما لبث أن هجر الممثلة وسافر إلى البندقية ، حيث التحق بفرقة فكاهية ، وأحب ابنه « إسكافى » ، وهى الحسناء الفاتنة « تسانيتا » . وإذ خشى ألا يوافق أبواها على زواجها منه ، هرب معها ، وتقدم الحبيبان ومعهما الأوراق اللازمة والشاهدان إلى بطريرك البندقية ، فعقد قرانهما .. ومات « الإسكافى » محسورا ، لزواج ابنته من « ممثل » !.. أما زوجته « مارتسيا » فاكتفت بإبداء دهشتها مما جرى !

١

« وولدت أنا ـــ صاحب هذه المذكرات ـــ في ٢ إبريل سنة ١٧٢٥ ، بعد هذا الزواج بتسعة شهور .. وفى العام التالى ، تركتنى أمى فى رعاية أمها ـــ التى كانت قد صفحت عنها ـــ لتصحب أبى فى رحلة إلى لندن ، حيث قدر لها الظهور على خشبة المسرح للمرة الأولى .. وحيث أنجبت أخى « فرنسوا » الذى غدا نقاشا ذائع الصيت ..

وعاد والدى إلى البندقية فى نهاية سنة ١٧٢٨ .. وما لبثت أمى أن أنجبت بعد عامين أخى « جان » الذى غدا مديرا لأكاديمية الرسم فى (درسدن) بألمانيا .. ثم رزقت فى خلال السنوات الثلاث التالية بابنتين ، ماتت إحداهما فى الصغر ، وتزوجت الأخرى فى درسدن .. كذلك كان لى أخ أصبح قسا ، ومات فى روما منذ خمس عشرة سنة .

أما أنا ، فلم يستيقظ ذهنى الواعى قبل أول أغسطس سنة ١٧٣٣ ، حين كان عمرى ثمانى سنوات وأربعة شهور ـــ فقد كان إدراكى مغلقا قبل ذلك ! ـــ وكل الذى أذكره عن هذا التاريخ ، هو أننى كنت أقف مستندا إلى الجدار فى ركن من غرفة ، وأنا أحملق فى سيل من الدم أخذ يتدفق من أنفى .. وأسعفتنى جدتى « مارتسيا » ـــ وكنت أثيرا لديها مدللا ـــ ثم أخذتنى دون أن يفطن أحد إلى جزيرة على مسافة نصف فرسخ من البندقية ، حيث ولجت بى بيتا كأنه الجحر ، وجدنا فيه عجوزا تهامست معها جدتى برهة ، ثم دست فى يدها قطعة نقدية ، ففتحت العرافة صندوقا وأرقدتنى فيه ، ثم أغلقته علىّ وهى توصينى بأن لا أخاف ! .. ولم أحفل بالأصوات التى أخذت أسمعها وأنا فى

الصندوق : ضحك ، وبكاء ، وغناء ، وصرخات ، وطرقات .. ثم رُفعت من الصندوق أخيرا ، وقد توقف النزيف ، وأرقدتني العجوز على فراشها وخلعت عني ثيابي ، وأشعلت بعض الأعشاب ، وأخذت تتلقى دخانها فى قطعة من قماش لم تلبث أن لفتني بها وهي تتلو بعض التعويذات .. ثم أعطتني خمس قطع من الحلوى ، وأخذت تدلك صدغي وقفاى بزيت عذب الرائحة ، وأنبأتني بأن النزيف لن يلبث أن يفارقني رويدا ، على شريطة أن لا أفضي لأحد بشيء مما جرى ، وإلا تسرب مني كل دمي ، ومت !.. كذلك قالت لي إن سيدة جميلة ستزورني خلال الليل وتسعدني ، بشرط أن لا أصارح أحدا بشيء أيضا .. وما كنت بحاجة إلى هذه التحذيرات فى الواقع ، إذ لم يكن لي أصدقاء أروى لهم أسرارى !

وفعلا ! استيقظت بالليل لأرى سيدة جميلة تهبط من مدخنة المدفأة ، فتفرغ على رأسي ما كان فى جيوبها ، وهي تردد كلمات لم أفقه لها معنى !.. ثم انصرفت كما جاءت وأنا لا أدرى أكانت هذه الزيارة من فعل السحر أم من أثر الوهم !.. ومنذ ذلك اليوم أخذ النزيف يقل رويدا .. وبدأ ذهني ينشط ، حتى أنني تعلمت القراءة فى أقل من شهر !

ومات أبي بعد ذلك بشهور ، وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين .. وأحاطت بجنازته أحزان الرأى العام ، فقد كان فى طليعة الممثلين .. وكان قبل موته بيومين قد جمعنا حول فراشه فى حضور السادة « جريماني » ــ وهم ثلاثة من نبلاء البندقية ــ فعهد بنا إلى رعايتهم ، وأمي غارقة فى دموعها ..

* * *

وعلى الرغم من جمال أمي وشبابها ، فقد رفضت كل الزيجات التى عرضت عليها بعد وفاة أبي ، وكرست حياتها لتربية أولادها ، وقد وجدت من واجبها أن تفكر فى امرى قبل سواى ، لا لشيء إلا لمرضي .. فقد كنت ضعيفا ، فاقد

الشهية ، عاجزا عن أداء شيء .. كنت أبدو غبيا ، وقد حار الأطباء فى تعليل سر ضعفى .. وقرر أحدهم أن خير علاج لى هو تغيير الجو الذى كنت أعيش فيه . وقد اهتم بذلك مسيو « بافو » — وكان أعز صديق لوالدى — فعمل على إرسالى إلى « بادوا » .. ورحلت بصحبة الأسقف « جريمانى » وأمى إلى هناك ، حيث كان فى انتظارنا كيمياوى من أصدقاء الأسقف يدعى « أوتافيانى » ، صحبنا إلى منزل أرملة تدعى « سنيورميدا » ، تقرر أن أعيش فى رعايتها .. » .

٢

وأخذ كازانوفا يتردد على مدرسة يديرها قس شاب يدعى الدكتور « جوتزى » ..

بيد أن الفتى لم يكن ذا عهد بشظف العيش ، وبالمتاعب التى كانت تحوطه فى بيت الأرملة العجوز . كانت الجرذان والهوام فى ذلك الجحر تستبقيه مسهدا طول الليل ، فتنسيه لدغات الهوام خوفه من الجرذان .. ويشغله الخوف من هذه عن الشعور بالألم من تلك ! .. وإذ لاحظ الدكتور « جوتزى » أنه كان ينام فى الفصل ، رغب فى تفقد الوسط الذى كان يقيم فيه ، وأنحى باللائمة على الأرملة العجوز لإهمالها فى شأنه .. وشيئا فشيئا ، أخذ كازانوفا يتفوق فى دراسته ، مما قربه إلى القس ، فجعله « ألفة » الفصل ، وصار يستعين به فى تصحيح أعمال بقية الطلبة ، ولما كان الفتى الصغير لا ينال كفايته من الطعام ، فقد راح يفرض على الطلبة « إتاوات » من الأغذية والنقود ، كى يحابيهم فى الدرجات !

على أن الدكتور جوتزى لا يفتأ يغرى الفتى على الكتابة لأهله عن الحياة الزرية التى يلقاها لدى العجوز ، حتى تفد جدته لتتفقد الأمر بنفسها ، وتنتهى إلى أن تنقله ليقيم فى كنف القس الشاب ، وتبتاع له ثياب رهبنة ، وتزيل شعره الذى امتلأ بالقمل ، وتشترى له طاقية شعر مستعار .. ويذهب أستاذه فى إكرامه إلى حد أن يشركه معه فى فراشه الكبير !

* * *

« كانت أسرة الدكتور جوتزى تتألف من أم تبالغ فى إكباره وتوقيره ،

وأب كان « إسكافيا » متواضعا ، وأخت تدعى « بتينا » ، حلوة ، جميلة ، شغوفة بقراءة الروايات الغرامية !.. وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وقد لاحظت أننى أثرت اهتمامها — لغير ما سبب أدريه — وما لبثت أن أذكت فى فؤادى رويدا أولى جذوات العاطفة ..

لكن تلاميذ القس أخذوا ينصرفون عنه تباعا ، لأنه أخذ يقصر كل عنايته علىّ !.. وفى هذه الأثناء ، كان قد فتح أمامى كل الطرق للعلم ، ودربنى على العزف على الكمان ، ولقننى أصول الشعر ، والفلسفة ، والجدل ، والتاريخ .. وحدث أن اعتزمت أمى فى أثناء الصوم الكبير من عام ١٧٣٦ السفر إلى « سانت بيتر سبورج » ، فأرسلت إلى أستاذى تدعوه إلى أن يصحبنى إلى البندقية لكى تتزود منى بلقاء قبل سفرها .. ورافقنى القس مترددا ، ولكن أمى استقبلته فى حفاوة وإكرام .. وكانت باهرة الجمال ، مما جعله يحس بحرج وارتباك .. وقد فطنت أمى لذلك ، فشاءت أن تتخذ منه مادة للتسلية !.. وفى الوقت ذاته أثرت أنا اهتمام المحيطين بأمى ، لما استطعت أن أصيبه من تقدم خلال عامين اثنين ، مما عزى الفضل فيه إلى أستاذى .. وكان مما ساء أمى أن الشعر المستعار الذى كنت أستعمله لم يكن يتفق مع سمرة بشرتى .. وإذ سألت أستاذى عن السر فى عدم إطالتى شعرى الطبيعى ، أجاب ببساطة وصراحة بأن « بتينا » — شقيقته — كانت ترى فى استعمال الشعر المستعار ما يخفف عليها مشقة العناية بنظافتى !.. فوعدته أمى بهدية طيبة لشقيقته إن هى عنيت بشعرى الطبيعى ..

وظل القس بعد عودتنا إلى « بادوا » ثلاثة شهور أو أربعة ولا حديث له إلا أمى !.. وكانت هذه قد حملته ثوبا من الحرير الأسود واثنى عشر زوجا من القفازات إلى « بتينا » ، فلم يعد للفتاة من شاغل سوى العناية بى وبشعرى الذى أخذ ينمو ويسترسل .. وكانت تسرف فى تقبيلى ولمس جسدى

وبشرتى ، فيغيظنى هذا لعجزى عن أن أعاملها بالمثل — فقد كنت أصغرها بثلاث سنوات ، وكان مجرد التفكير فى أنها يمكن أن تحب غلاما مثلى ، ضربا من القحة وسوء الأدب ، فى رأيى ! — على أننى ما لبثت أن تشجعت وأخذت أرد على قبلاتها بقبلات حارة ، حتى إذا شعرت أننى أوشكت أن أتجاوز حدودى ، أمسكت .. فإذا ما انصرفت ، عدت أنحى على نفسى باللوم لأننى لم أزد !

وفى أوائل الخريف ، تلقى الدكتور جوتزى ثلاثة تلاميذ جدد ليقيموا فى كنفه ، وكان بينهم فتى فى الخامسة عشرة سرعان ما اكتسب ود « بتينا » ، فإذا بى أحس نحوه بشعور جديد ، أدركت بعد سنين أنه كان « غيرة » ! أما يومئذ فلم يخطر لى ببال أن اقتراب ذلك الفتى من الرجولة كان يجعله مفضلا عنى .. ولاحظت « بتينا » غيرتى النامية ، فجاءتنى ذات صباح وأنا بعد فى الفراش ، وكنت أرتدى جوربين من نسج يديها ، فأرادت أن تتلطف معى فتقيسهما بنفسها .. وفيما كانت تفعل ، لاحظت أن ساقىّ قذرتان ، فعمدت فى الحال إلى تنظيفهما بنفسها .. وأخذت تتمادى ، وترتفع بالنظافة إلى أعلى .. وأشاع عملها ولمساتها فى نفسى شبقا .. لم ينته إلا فى أبعد حد لا ينبغى تجاوزه !

وإذ استعدت هدوئى ، رحت أستغفرها ، فقالت فى رفق إنها الملومة ، ووعدت بأن لا تعود إلى اقتراف هذا الذنب ثانية .. ثم انصرفت وتركتنى ألوم نفسى ، وأرى فيما فعلت انتهاكا لشرفها ، وخيانة لأستاذى الذى ائتمننى .. وانتهيت إلى أن لا علاج لما فعلت من جرم إلا بالزواج من الفتاة !

واشتد بى الحزن يوما بعد يوم .. وحرصت الفتاة على أن لا تفد إلى مخدعى فى الصباح ، وكان خليقا بى فى الأسبوع الأول أن أعزو ذلك إلى « تحفظها » ، لولا أن ما كانت تبديه نحو « كورديانى » — الفتى الآخر — سمم

بالغيرة دمائى .. ومع ذلك فما خطر لى قط أن أتهمها بأنها كانت تقترف معه عين الجريمة التى ارتكبتها معى !.. وكتبت إليها رسالة — خيل إلى أنها تحفة أدبية — حاولت فيها أن أسترضيها ، ولكنها مضت تَعِد ، وتخلف ، فلا تزيدنى إلا انشغالا بها !.. وسألتنى أن أصحبها إلى حفلة راقصة وأنا فى زى فتاة ، فلما أبيت ، زادت صدودا وإعراضا !

وحدث أن رحل القس وأبوه إلى الريف تلبية لدعوة صديق يحتضر .. وخطر لى أن الفرصة مناسبة لتوطيد علاقتى ببتينا ، فأنبأتها بأننى سأترك باب غرفتى مواربا أثناء الليل كى توافينى بعد أن ينام الجميع !.. وكان التلاميذ الثلاثة ينامون فى طرف ناء من البيت .. أما هى فكانت تنام فى حجرة ضيقة بالطابق الأرضى . وكنت وحيدا فى مخدعى فى تلك الليلة ، لغياب أستاذى ، فظللت انتظرها .. وانتصف الليل ، وأخذت كل ساعة تمر تزيدنى انفعالا ، حتى إذا لم يبق على انبثاق الفجر غير ساعة ، تسللت حافى القدمين إلى الطابق السفلى ، وقبعت على مقربة من باب غرفتها ، الذى وجدته مغلقا من الداخل !.. وخيل إلىّ أن عمرا انقضى وأنا جاثم ، أرتجف من البرد والانفعال .. ثم فتح الباب فجأة ، فأسرعت إليه .. ولكن بدلا من أن تبرز منه « بتينا » ، خرج منه « كوردياني » فركلنى بقدمه فى بطنى ، وأسرع إلى الغرفة التى يشترك بها مع زميليه !

وحاولت أن أفتح باب « بتينا » ، فإذا به موصد من الداخل ، فأخذت أركله بعنف ، وأخيرا عدت إلى غرفتى ذليلا ، مهينا ، يزيدنى غيظا تغلب « كوردياني » علىّ !.. ورحت أفكر فى الانتقام : فى أن أفشى لشقيق الفتاة كل شيء !.. وفيما أنا أدبر خطتى ، أقبلت أم « بتينا » تسألنى أن أهبط لأن الفتاة تحتضر !.. ووجدتها تتلوى على الفراش ، وقد التف الجميع حولها . ولست أدرى كيف وقفت أشهد المنظر هادئا ، وأمامى غريمى الذى كنت

أتوق إلى أن أقتله ، والفتاة التى كنت أعتزم أن أفضحها !

وأقبل الطبيب فأمر بأن تظل فى الفراش ، ونصح بعمل « كمادات » باردة لها .. وكدت أضحك ، فقد كنت أدرك أن ما بها إنما هو نتيجة لجزعها مما حدث بينى وبين « كوردياني » .. وقبل أن أغادر الغرفة لمحت ثوبها ، فعبثت أصابعى فى جيبه ، وإذا بى أعثر على وريقة فحملتها إلى غرفتى .. وكانت رسالة بخط « كوردياني » وقد كتب فيها : « بما أن أباك غائب ، فلا داعى لأن تتركى بابك مواربا ، فلسوف أتسلل إلى غرفتك بعد العشاء وأنتظرك فيها ..» .

ولم أحفل ببتينا ولا بصرخاتها المتوجعة طيلة اليوم ! وعندما عاد القس وأبوه فى المساء ، أقبل « كوردياني » على غرفتى يسألنى عما انتويت ، فأشهرت فى وجهه مدية ، واضطررته إلى الانسحاب .. ولو أنى عولت فى تلك الأثناء على أن لا أروى للدكتور قصة الفضيحة ، إذ شعرت بتقزز من الوشاية ..

وزعمت الأم فى اليوم التالى أن ابنتها وقعت فريسة لسحر صنعته لها الخادم !.. ومع إنكار شقيقها لمثل هذا التفكير ، إلا أنه استدعى فى اليوم التالى أشهر مشعوذ فى « بادوا » ، وكان راهبا دميم الخلقة ، لم تكد الفتاة تراه حتى راحت تقهقه وترميه بأقذع السباب ، فلم يزد هذا إلا من الاعتقاد بأن روحا شريرة مستها ، فأخذ الراهب يضربها بصليب خشبى كبير .. لكن الفتاة أخذت تسخر منه وتسفهه فى جرأة غريبة ، دون أن تثير عجب من كانوا حولها ، اعتقادا منهم بأن الروح الشريرة هى مصدر تلك القحة والفحش ..

ولم أستطع أن أدرك خطتها وهدفها من التمادى فى هذا الدور !.. لكننى رأيت — إثباتا لرغبتى فى الوئام — أن أرد إليها فى تلك الليلة رسالة « كوردياني » التى سرقتها منها ، والتى كانت الدليل الوحيد على جرمهما !

٣

كانت « بتينا » ولا بد فى أقسى حالات القلق لضياع رسالة « كورديانى » ، لذلك كان ردى إياها إليها دليلا عظيما على صداقتى .. بيد أنها كانت فى الوقت نفسه دليلا على أننى كنت مطلعا على خافية سرها ، إذ كانت الرسالة شاهدة على أنها اعتادت أن تستقبل الفتى كل مساء !

وفى الليلة التالية تظاهرت « بتينا » فجأة بالمرض .. ولكن الأسرة أصبحت فى اليوم التالى وليس لديها أدنى شك فى أن الروح الشريرة قد سيطرت على عقل فتاتها !.. وقرر أخوها أن يعهد بها إلى رعاية قس يدعى الأب مانشيا ، اشتهر بأنه لم يخفق قط فى شفاء صرعى الأرواح الشريرة .. وأقبل الأب فى الصباح التالى فتبعته الأسرة كلها إلى سرير الفتاة ، أما أنا فقد أُخذت بمنظر الراهب : كان طويل القامة ، مهيب الطلعة ، فى الثلاثين من عمره ، أزرق العينين .. وألفينا بتينا نائمة أو متناومة ، ففتحت عينيها حين نثر عليها الماء المقدس ، ثم أغلقتهما فورا .. وعادت تفتحهما وتتطلع للراهب ، وتعود فتغمضهما بسرعة .. ثم استسلمت لوسن هادئ ، ووضع الرجل صليبه والكتاب المقدس على صدرها ، وراح يتمتم ويصلى ، بعد أن أمرنا بأن نركع معه بجوار السرير ..

وفى الصباح التالى أخذت بتينا تتحدث حديثا رائعا ، يفوق ما يجول بخيال الشاعر .. ولم تكف حين دخل عليها الراهب ، الذى أمرنا بالانسحاب من الحجرة ، ثم بقى مع الفتاة حتى الظهر ، دون أن نسمع لأحدهما صوتا أو حركة .. حتى إذا سمح لنا أخيرا بالدخول ، بدت بتينا حزينة ، هادئة .. أما

الراهب فقد انصرف ، راجيا موافاته بأنبائها !

وقضت بتينا بقية اليوم ، وطيلة اليوم التالى ، على خير حال .. ثم حدثت الظروف التى أكدت لى أنها ليست مجنونة ، ولا بها مس من روح شريرة : ففى الصباح التالى ، حضرت إلى حجرتى ودست فى يدى وريقة كتبت فيها : « احتقرنى : ولكن تستر على شرفى واحترم الطمأنينة التى أصبو إليها . سيطلب الأب مانشيا إلى من فى البيت أن يمارسوا فريضة الاعتراف له ، وهذا ما لا ينبغى ، وأنت وحدك الذى يستطيع أن يحول دون ذلك ! وسيكون نجاحك برهانا على أنك تكن لى شيئا من الصداقة ..» .

وفعلا انتهزت فرصة خلوت فيها إلى الدكتور جوتزى ، فأعربت له عن عدم رغبتى فى أن أعترف للأب « مانشيا » ، وقلت إننى أخشى أن يؤول امتناعى على غير حقيقته ، ولذا يحسن أن لا يعترف له أحد . فقال إنه يفهم الأسباب التى تحدونى إلى ذلك ، ويقرنى عليها ..

وأويت إلى فراشى فى عصر ذلك اليوم ، لجرح فى قدمى ، بينما صحب أستاذى تلاميذه إلى الكنيسة .. وانتهزت بتينا الفرصة ، وأقبلت فجلست على حافة فراشى ، وبدأت تعرب عن أملها فى أن لا أكون غاضبا منها ، فقلت لها إننى لا أكن لها سوى الصداقة ، فلا داعى لأن تخشى أن تكون قد سببت لى أى استياء ، بل إن لها أن تفعل ما يروق لها : « إننى لم أعد أشعر نحوك — بعد ما جرى — بغير عدم اكتراث ، لم يلبث بدوره أن زايلنى حين لمست ما لعقلك من قوة .. لقد أدركت مدى مهارتك ، وإنى أقدرها حق قدرها ! » .

فأجابتنى بقولها : « إن كل ما ذكرت مبنى على مظاهر خادعة ، فلست أحب « كورديانى » ، ولم أحببه يوما ، بل إنى أكن له كراهية يستحقها ! » .

.. ومضت تحاول أن تبرر ما حدث وهى تذرف الدمع ، ولكنى كنت قد خبرت دهاءها ، فسألتها أن تفسر لى التناقض بين اعتزازها بفضيلتها بالنسبة لى ، مع سماحها لكورديانى بأن ينتهكها فى كل ليلة ! .. وإذ ذاك رمقتنى بنظرة التمع فيها بريق الانتصار ، وقالت : « الآن وصلت إلى ما كنت أبغى أن أفاتحك فيه : إليك قصتى مع كورديانى :

رضخت له .. خوفا من الفضيحة !

«لقد صارحني كورديانى بحبه بعد أسبوع من استقراره بدارنا ، وسألنى أن أقبل الزواج منه إذا تقدم أبوه ليخطبنى بعد فراغه من الدراسة .. ولما طلبت إليه أن لا يعود للحديث فى هذا الأمر ، أخذ يلحف فى أن أزوره بغرفته ، ويقول إنك محظوظ لعنايتى بك !.. وبعد أسبوعين من هذا الرفض ، عنت لنا — أنا وأنت — الساعة التى قضيناها فى العبث الغرامى الذى أيقظ فى نفسك مشاعر لم تكن تعرفها ، ولقد أسعدتنى تلك الساعة ، فإننى أحبك .. وكنت مشوقة إلى أن أخلو إليك فى الصباح التالى ، لولا أن دس كورديانى فى يدى فى تلك الليلة هذه الرسالة : « دعينى ألج مخدعك هذه الليلة ، وإلا فسأرسل الخطاب الذى أرفق لك صورة منه .. إلى أخيك ! » .

وكان الخطاب المرفق موجها إلى أخى الدكتور جوتزى ، متضمنا وشاية خبيثة بأن أخته تقضى كل صباح معى فى علاقة مشينة !.. واستطردت « بتينا » فقالت إنها تركت « كورديانى » يفد إلى غرفتها فى تلك الليلة كى تسوى الأمر معه ، وقد دست فى جيبها خنجر أبيها !.. ولم تكد تسأل الفتى عن نواياه حتى قال لها إنه شهد ما جرى بينها وبينى خلال ثقب فى جدار مخدعى .. ومضت تقول : « وأغرقته بفيض من الإهانات المقذعة ، ووصفته بالجبن ، والتجسس ، والدناءة .. فاعتذر عما بدر منه ، وعزا مسلكه إلى شدة حبه لى ، ووعد بشرفه بأن لا يلجأ بعد ذلك إلى عنف ، وأن يحاول أن يكون أهلا لحبى .. فلم يبق لى سوى أن أقول له إننى « قد » أحبه فى المستقبل ، ووعدته بأن لا أقرب مخدعك فى غياب أخى .. وأحزننى أن لا أستطيع أن

أراك أو أعلل لك تغير مسلكى !

« .. وانقضت ثلاثة أسابيع ، كنت ألتقى خلالها لمامًا بكورديانى ، أمام باب غرفتى ، لأطمئن من قلقه .. وفى الليلة التى وعدت أن أوافيك فيها ، فاجأنى بأن قال إنه سينتظرنى فى غرفتى .. وحاولت أن أتخلص منه ، ولكنه راح يحدثنى فى إسهاب عن خطة وضعها لأفر معه ، وأخذ يزين لى خطته ، ويلح ، ويلحف .. وكان قلبى يدمى من أجلك ، ولكن ضميرى كان مستريحا .. ولو أننى رأيت أن أضحى بنفسى ، وأنيل هذا الوغد الغادر ما لا ينال إلا بالحب ، لتخلصت منه فى ساعة .. ولكن الموت بدا لى أهون من ذلك .. كل هذه الهموم كانت مكتوبة لى فى لوح القدر .. » .

وطفقت تبكى وتتأوه ، فتأثرت كل التأثر ، ولكننى ظللت لا أقوى على أن أصدقها ، فقالت أخيرا : « امض فى جفاءك ، وفى اعتقادك بأن آلامى محض تمثيل واصطناع .. مع أنها ليست سوى حقائق واقعة ، كنت أنت سببها ، وها أنتذا تزيدها .. لسوف تأسف على ذلك يوما ، ولكن بعد فوات الأوان ! » .

ونهضت تهم بالانصراف ، وإذ كنت أراها قادرة على الإقدام على أى شىء ، فقد خشيت من إنذارها ، فقلت لها إن عليها — إن شاءت أن تستعيد حبى — أن تظل شهرا دون تلك النوبات التى تعتريها ، ودون أن ترى ذلك الراهب المليح الشكل ، الأب « مانشيا » !

وفى اليوم التالى عادها الطبيب ، ليجدها محمومة .. وراحت تهذى طيلة النهار .. وفى اليوم الرابع ، ظهرت عليها أعراض الجدرى ، ولما كنت قد أصبت به من قبل ، فلم يكن ثمة خوف على من العدوى ، لذلك بقيت فى الدار ، بينما أقصى عنها « كورديانى » وزميلاه .. وكان المرض قاسيا ، حتى خيف منه على حياة الفتاة حين ظهرت بثوره على فمها وحلقها ، فلم تعد تقوى على ابتلاع

شيء اللهم إلا قطرات من العسل .. واعتبرتني الأسرة ملاكا ، إذ كنت أحمل كتبي وأذهب إلى جوار فراش المريضة !

واشتدت وطأة الداء في اليومين العاشر والحادي عشر ، وأصبحت رائحة الفتاة لا تطاق .. ولكنني كنت الوحيد الذي أبى أن يهجرها .. ألا ما أغرب قلب الرجل ، فإن الوجد المشغوف الذي أحسسته نحو بتينا ، لم يشتعل في قلبي إلا في هذه الفترة التي كانت معالم المرض تشوه فيها حسنها ! وأشعرتها رعايتي بأنني أهل لحبها ، فأحبتني من قلبها — بعد شفائها — واستجبت لحبها ، وإن لم أستبح لنفسي الزهرة التي جعلتها الطبيعة من حق الرجل الذي يقدر له أن يتزوجها ! — (ويا له من رجل كان هذا الزوج !.. فبعد عامين ، زفت « بتينا » إلى « إسكافي » وضيع ، أساء معاملتها ، وأذاقها شظف العيش .. وعندما أقدمت على زيارتها ، في عام ١٧٧٦ — بعد أكثر من ثلاثين عاما — وجدتها مريضة تحتضر ، ولفظت آخر أنفاسها بين ذراعي !

فى صحبة زملاء السوء

وقضيت عاما آخر فى « بادوا » أدرس القانون ـــ الذى حصلت على « الدكتوراه » فيه وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ! ـــ وقد كنت فى الواقع شديد الميل إلى دراسة الطب ، ولكن أحدا لم يحفل بميلى ، فاضطررت إلى دراسة القانون على كره منى !.. على أننى إذا كنت قد حرمت من أن أكون طبيبا ، فإننى كذلك لم أغد يوما محاميا ، لا ولا استخدمت محاميا فى قضاياى ، ولا طبيبا فى مرضى !.. وما أحسب إلا أن العالم كان يغدو أقل تعاسة لو أنه خلا من الأطباء والمحامين جميعا !

وكنت فى ترددى على جامعة « بو » قد شعرت لأول مرة بالحرية .. على أنه لم يطل بى الوقت حتى تعرفت إلى أسوأ « نماذج » الطلبة : من مقامرين ، ومخادعين ، ورواد لبيوت الدعارة ، ومدمنين للخمر ، ومغررين بالعذارى !.. وفى صحبة هؤلاء ، بدأت خبرتى بالدنيا والحياة .. فقد تسلمونى ، إذ وجدونى ساذجا « غشيما » ، وبدأوا يعلموننى ، لا لشىء إلا ليوقعوننى فى أحابيلهم !.. علمونى المقامرة ليبتزوا المال القليل الذى كان لى ، ثم ليغرقونى فى الدين ، ويلجئونى إلى الإقدام على أعمال غير شريفة كى أسدد دينى .. إلخ .. على أننى إنما تعلمت إذ ذاك الأسى والحزن ! وفتحت دروسهم عينى كى لا أثق فى الأشرار الفاسقين الذين يفخرون علنا بآثامهم ، وكى لا أعتمد على المرائين المتملقين !.. وعلمونى كذلك كيف أتصرف فى صحبة المشاغبين المحبين للشجار ، وكيف أتجنب رفقتهم ..

وانتهى العام الدراسى ، فتركت « بادوا » عائدا إلى البندقية ..

مباذل الشيوخ

« لقد أقبل من (بادوا) حيث أتم دراسته » .. كانت هذه الكلمات ترافق اسمي أينما كنت ، فتحمل الشباب على أن يرمقونى فى إجلال ، والآباء على أن يهنئونى ، وتجعل المسنات من النساء يضفين على من حنانهن، وقد تقبلنى منهن من لم تتقدم بها السن كثيرا ، بحيث لا يحرجها أن تبدو طائشة تقبل شابا فى غير حياء !.. وإن هى إلا أربعة شهور ، حتى أقنعنى بطريرك البندقية بالانخراط فى سلك رجال الدين ، فكادت جدتى تطير زهوا . واختير خير الأساتذة لإتمام تعليمى ، وبينهم الراهب « سكيافو » الذى انتدب ليلقننى الأسلوب الإيطالى ، لا سيما فى الشعر الذى بدت علىّ مخايل الاستعداد لإجادته .. وأقمت فى مسكن مريح مع شقيقى « فرانسوا » الذى كان يدرس فن العمارة المسرحية .. وكان الأب « جريمانى » هو رائدى الأول ، لكننى لم أكن أراه إلا قليلا .. وما لبثت العلاقات أن توثقت بينى وبين السيد « دوما لييرو » الذى كان عضوا فى مجلس الشيوخ ، وقد أخذ يعاف ــ إذ بلغ السبعين من عمره ــ الانغماس فى شئون الحكم ، وقنع بأن يحيا حياة مرفهة فى قصوره ، وأن يحيط نفسه فى كل مساء بنخبة من السيدات اللاتى عرفن كيف يستمتعن بأيام شبابهن ، ونخبة من السادة الذين كانوا دائما على علم بكل ما يدور فى المدينة !

وكان الشيخ رغم اكتهاله ، وإصابته بروماتيزم كاد يقعده ، مدلها فى حب فتاة تدعى « تيريز إيمر » ، ابنة ممثل متقاعد يقيم فى منزل بجوار قصره .. وكانت نافذة مخدع الفتاة ــ التى كانت فى السابعة عشرة ، جميلة ، فاتنة ، لعوبا ــ مواجهة لنافذة مخدعه ، فطاب لها أن تخلب لب عضو الشيوخ المسن ، وأن تعبث به .. وقد اعتادت أن تزوره يوميا ، تصحبها دائما أمها التى كانت ممثلة

ثم اعتزلت المسرح .. وخلال تلك الزيارات كان الشيخ الطاعن يتودد إلى الابنة ، ثم تقدم خطوة فصار يغازلها .. لكنها كانت ترفض أن تقبله ، قائلة إن فى ذلك إغضابا لله .. فكان ينتفض غضبا لذلك !

وفى قصر عضو الشيوخ المذكور تعرفت إلى مدام منزونى ، زوجة مسجل للعقود ذى شهرة ، فألهمتنى أعمق العواطف ، وأخلصت لى النصح .

ولقد بعث فى نفسى التعرف إلى سيدات راقيات ، رغبة طبيعية فى العناية بمظهرى وأناقتى ، ولكن الأب الذى كنت أدلى إليه باعترافى ، و « جدتى » ، كانا قويين فى معارضة ميلى للغرور .. وكان الراهب يذكرنى بأن مهنة رجل الدين التى ارتضيتها لنفسى تتطلب أن أكرس أفكارى لله ، وليس للدنيا . وكان يسفه عنايتى بإرسال شعرى وتجعيده ، وولعى بالعطور ، ويهددنى بالحرمان ، ولكننى ذكرت له أسماء آباء روحيين كانوا يتعطرون ويستعملون من المساحيق أضعاف ما كنت أستعمل ! بل إنهم كانوا يضمخون شعورهم بنوع من الدهان عنبرى الرائحة ، تكاد النساء إذا شممنه أن يفقدن وعيهن .. ومع ذلك فلم يكن يتهددهم أى حرمان .. وأضفت أننى لن أحجم عن الانضمام إلى مذهب آخر ، إن شاء أن يقسرنى على إهمال مظهرى !

وأغضبه جوابى ، فتسلل فى صباح أحد الأيام — بعد استئذان جدتى — واقترب من مخدعى وأنا نائم ، فقص الجزء الأمامى من شعرى !

كيف اعتليت المنبر .. وكيف هجرته

وود « كازانوفا » أن يقاضى الراهب ، انتقاما ، لولا أن حلاقا استطاع أن يرد إليه أناقة مظهره .. وإذ ذاك فاتح عضو الشيوخ فى أنه لن يرجع عن السعى للانضمام إلى مذهب آخر من مذاهب الكنيسة .. فقال له الشيخ : « إننى كرئيس لإخوة (السر المقدس) ، أبحث عن واعظ يؤدى القداس يوم الأحد الرابع من هذا الشهر ، وسأختارك لذلك . ما رأيك فى هذا النصر ؟ » .

« و لم أكن أحلم بأن أكون واعظا ، فتولتنى دهشة بالغة ، وظننت أن السيد « ماليبيرو » يمزح .. ولكنه فى اليوم التالى أنبأنى بأن الأب رغب فى أن أعرض عليه موعظتى بمجرد الفراغ من كتابتها .. فقبلت هذا الطلب . وما كان أشد فرح جدتى ، إذ صار حفيدها واعظا !

وزرت الأب لأقرأ عليه ما أعددت ، لكنه كان غائبا عن داره ، فمكثت فى انتظاره .. وفى هذه الأثناء ، وقعت فى هوى ابنة أخته« إنجيلا » ، التى كانت تناهزنى فى العمر .. وحين عاد القس ، لم يبد عليه الغضب إذ وجدنى أجلس إلى ابنة أخته .. وقد أطرى العظة التى أعددتها !

وألقيت الموعظة .. وكان ثمة جمع من خيرة أهل البندقية ، صفقوا لى ، وتنبأوا لى بأننى سأغدو أعظم واعظ فى عصرى .. فما سبق لراهب فى السابعة عشرة أن وفق قدر توفيقى ..

وازدهانى هذا النجاح ، فلما دعيت لإلقاء موعظة أخرى ، أهملت إعدادها ، مطمئنا إلى سرعة قريحتى .. واعتليت المنبر وقد لعب النبيذ برأسى ، فأخذت أنتقل من موضوع إلى آخر ، ثم نسيت كل حديث ، فلم أجد مخرجا

إلا فى اصطناع الإغماء .. وأقسمت أن لا أعتلى بعد ذلك منبرا !

وذات مساء ، قدمنى السيد « منزونى » — مسجل العقود — إلى غانية شابة كانت ذائعة الصيت فى البندقية إذ ذاك .. وكان يغيظها أن يدعوها الناس « كافا ماكيا » — لأن أباها كان يعمل فى تنظيف الثياب (غسالا) — ومن ثم كان أصدقاؤها يسمونها « جولييت » وقد كان المركيز « دى سانفيتالى » سبب تألقها .. ووجدتها محوطة بسبعة أو ثمانية من المعجبين — من أبناء الطبقة الراقية — كانوا يحرقون قلوبهم بخورا تحت قدميها !.. وأخذت بجمالها .. ورمقتنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ، كأنما كنت معروضا للبيع ، ثم دعتنى — كما لو كانت أميرة — إلى الجلوس .. وإذ ذاك ، بدأت بدورى أتأملها فاحصا ! كانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها ، ذات بشرة تبهر الأبصار ، وإن خيل إلىّ أن تضرج وجنتيها ، وحمرة شفتيها ، كانا من ثمار الصبغة أكثر مما هما من خلق الطبيعة .. ولم يخف على عينى مدى ضخامة يديها واكتنازهما .. كما بدت لى قدماها كبيرتين ، لا تروقان لعينى أى رجل مرهف الذوق ..

وزرت « جولييت » أربع أو خمس مرات ، خيل لى بعدها أن ليس من التجنى فى شىء أن أقول فى مجلس السيد « دوماليبيرو » إنها لا تروق إلا لرجل مكتنز « الكرش » ، عديم الذوق . واستحسن أصدقاء السيد ملاحظتى ، لكنه همس فى أذنى أن حديثى لا بد بالغها ، ولا بد أنها ستناجزنى العداء .. وقد صح ما تنبأ به !

وانصرفت طوال الصيف إلى غرام عذرى مع «إنجيلا» — ابنة أخت القس الذى عرضت عليه موعظتى — وكنت ألقاها فى دار السيدة التى كانت تعلمها التطريز .. ولم تتح لى « إنجيلا » أتفه منحة من منح الحب ، فكانت نار الوجد تكوينى ، وكانت نجواى وتضرعاتى المستهامة لا تلين لها فؤادا ، وإن أثرتا على زميلتيها فى الدرس .. ولولا أننى كنت أثبت نظرى عليها ، لما فاتنى

أن ألحظ أن الزميلتين كانتا تفوقانها جمالا !

غرام .. فى ضيافة الكونتة !

هكذا كانت حالى حين تلقيت — فى أوائل خريف سنة ١٧٤١ — دعوة من الكونتة « دى مون ريال » لقضاء أيام فى ضيعتها فى « باسيان » .. وهناك ، أفردت لى غرفة بديعة بالطابق الأرضى ، تطل على البساتين . وما أن فتحت عينى فى الصباح التالى لوصولى ، حتى استمتعت بمنظر الحسناء التى حملت إلىّ القهوة .. كانت صغيرة السن ، لم تتجاوز الرابعة عشرة ، لفرط نضوجها .. بشرتها فى بياض الجليد ، وشعرها فى سواد الليل ، وعيناها تشعان لهبا وبراءة .. وكان ثوبها القصير يكشف عن ساقين بديعتى الالتفاف ، وقدمين دقيقتين .. وحكمت من النظرة الأولى بأننى أمام أبهى جمال رأيته فى حياتى !

والتقت نظراتنا كما لو كنا على معرفة من قبل !.. وما أن سألتنى كيف قضيت ليلتى ، حتى انتهزت الفرصة فسألتها عن اسمها .. كانت « لوسى » ابنة البواب ، ووحيدته .. وأردفت فى سذاجة :

— لقد سرنى أنك لم تصطحب خادما ، ومن ثم سأغدو خادمتك ، وسوف ترضى عنى ..

ورحت أرشف قهوتى وأنا فى دهشة من سذاجتها وطلاقتها ، وفى سحر من جمالها .. بينما جلست هى على حافة فراشى فى حرية وبساطة . ولم تتحرك حين أقبل أبواها ، بل تطلعت إليهما مبتسمة ، وكأنها فخورة بمجلسها .. فأنبها الوالدان الطيبان فى رفق ، واعتذرا لى عن جرأتها الساذجة .. حتى إذا غادرت الحجرة مضيا يطريانها ، ويشيدان بطاعتها إياهما ، وخوفها الله ..

وأسعدنى أن اكتشفت أن فى الدنيا قوما فى مثل هذا

الصدق ، والطهر ، والسذاجة ، والسعادة الحقة .. وما لبثت « « لوسى » أن عادت ، كالعصفور الطروب ، وقد ارتدت ثوبا جميلا ، وحذاءين ، ونسقت شعرها ، فقبلت أبويها ، وجلست على ركبتى أبيها .. وازددت افتتانا بسذاجتها ، وبساطتها !

صراع .. مع البراءة !

وقضيت نهارى فى رفقة الكونتة وابنتها اللطيفة .. حتى إذا كان الصباح التالى وافتنى « لوسى » بجمالها ، وسذاجتها ، ومسلكها الطبيعى ، وأحاديثها الرائعة .. وكانت صراحتها وبراءتها تحيطانها بهالة من الإشراق .. ولم أدر كيف كانت — مع كل هذا — تجازف بالحضور إلى حجرتى وحيدة ، وتعاملنى بهذه اللهفة .. وخطر لى أنها لن تعلق كبير أهمية إذا أنا أبحت لنفسى بعض الحرية فى التعبير عن إعجابى .. ولم أشعر بضميرى يؤنبنى إذ ائتمننى عليها أبواها ، فقد وجدت فى هذا « إهمالا » منهما .. ولم أستبشع أن أكون أول من يخدش براءتها ، أو أن أرسل إلى ذهنها أولى ظلمات الخبث .. ومن ثم بدأت أجس نبضها ، فمددت يدى إليها ، وإذا بها تتراجع بحركة غير إرادية ، وتتضرج وجنتاها ، ويغيب إشراقها ، ثم أشاحت بوجهها كأنها تبحث عن شىء ، وتريثت حتى خف انفعالها .. ولم يستغرق كل هذا دقيقة .. ثم عادت ، وقد أخجلها أن كشفت بتصرفها عن إدراك لقصدى ، ولعلها استنكرت أن تبين أنها أخطأت تفسير حركة ربما كانت بريئة .. وسرعان ما عادت إليها ضحكتها الطبيعية ، فلم أضيع وقتا فى محاولة استعادة ثقتها ، وآثرت أن أمهد بالحديث ، بدلا من العمل .. فقلت لها حين جاءتنى فى الصباح التالى — ونحن فى سياق حديث عادى — إن الجو بارد ، ولعلها تحس دفئا إذا نامت على مقربة منى ، فقالت : « قد أضايقك » .. على أنها لم تلبث أن استلقت إلى جوارى .. فى بساطة !! ولم أفقه كلمة من ثرثرتها وهى مستلقية إلى جوارى ، فقد ظللت مسمرا فى مكانى ، لا أفلت زمام شهواتى الجامحة .. كانت ثقتها فى أنها بمأمن ،

قد لعبت بمشاعرى إلى الدرجة التى خجلت معها من استغلالها !

وفى اليوم التالى ، لم أشأ أن أخرج عن هدوئى ، فتركتها تكتفى بالجلوس على حافة السرير ، وأخذ حديثها يؤكد لى أن أبويها لم يكونا مغالبين فى إطرائها .. فإن تحررها فى مسلكها معى لم يكن يعزى إلا إلى سذاجة وبراءة .. لذلك سيطرت على مشاعرى حتى لا أقدم على أية محاولة قد يؤنبنى عليها ضميرى فيما بعد ..

تسألنى عن سر شحوبى !

وبعد عشرة أيام ، أو اثنى عشر ، وجدت أننى أمام أحد أمرين : فإما أن أضع لهذه الحال حدا ، وإما أن أغدو وحشا فى نظر نفسى .. وآثرت جانب الخلق فى موقفى ، إذ بت متأكدا أن « لوسى » كفيلة بأن تنقلب إلى « بطلة » فى الدفاع عن نفسها ، لو أننى اضطررتها إلى ذلك ، وأن الصراع لن يجلب سوى الفضيحة !.. وكان تحررها ، وما تسلكه من ألفة فى معاملتى ، يزيدان نارى اتقادا !..

وأنهكنى الجهد الذى كنت أبذله فى المقاومة ، حتى قررت أن أسألها أن تكف عن زيارتى .. لكنى أرجأت ذلك إلى اليوم التالى ، وقضيت الليل مسهدا ، معذبا .. فلما أقبلت الفتاة فى الصباح مشرقة مرحة ، غاض بشرها إذ رأت شحوبى وضناى .. وسألتنى ملهوفة عن السبب ، فرحت أشرح لها ما سببه لى جمالها ، وأضفت أننى لم أعد أحتمل الوجد ، لذلك أرى أن تكف عن زيارتى !.. وأعارنى صدق الحب والمقصد لباقة فوق لباقتى ، كى أبين لها العواقب الرهيبة التى تتأتى عن أى حل سوى هذا الذى ارتأيت .. والذى اقترحته وأنا أتعس ما أكون !

وإذ لمحت عيني مغرورقتين ، أقبلت تجففهما ، غير مدركة أنها بذلك كشفت عن ثديين يكفي جمالهما لأن يطيش بأحكم العقول !.. ثم قالت :

« كل ما ذكرت يؤكد صدق حبك القوى ، ولكن لا أتصور أن ترغب فى إقصائى لأنك لم تعد تحتمل الخوف من هواك .. فماذا كنت تفعل لو أنك كرهتنى ؟.. أكان ذنبى أننى أعجبتك ؟.. ما ظننت أننى ارتكبت جرما إذ كسبت حبك ، ومن ثم فما أراك تجرؤ على عقابى !.. ومع ذلك ، فلا أكتم عنك أننى جد سعيدة لأنك أحببتنى .. أما الخطر الذى يتأتى عن حبنا ، فهو خطر أدركه ، وفى وسعنا أن نتحداه لو شئنا .. وإنى لأعجب لأننى — على جهلى — غير خائفة ، فى حين أنك — على علمك — تخشاه !.. وإنى لفى دهشة لأن الحب يسقمك ، وهو ليس بالمرض .. أفترانى مخطئة ، وإن ما أحسه نحوك ليس حبا ؟.. لقد كنت أحلم طيلة الليل بأننى بقربك ، وكنت كلما استيقظت عدت إلى النوم ، لأستأنف حلمى السعيد .. وهذا سر إشراق حين جئتك هذا الصباح .. إننى لآسفة أيها القس العزيز إذا كان الحب عذابا لك ، ولكن ، هل تراك تقوى على الحياة بغير حب ؟.. إننى مستعدة لأن أفعل كل ما تأمر به ، إذا كان فى هذا شفاؤك ، ولكننى لن أكف عن حبك ، لأن هذا مستحيل !»

وأثبت لى حديثها البرىء الخالى من الصنعة ، مدى سمو الفطرة الطبيعية ، فاحتويت كيانها الملائكى فى أحضانى ، للمرة الأولى ، وسألتها أن تسلمنى شفتيها .. وقضينا ساعة فى هناءة صادقة ، بيد أننى احترمت طهرها ، فلم يزدها هذا إلا رغبة فى الاستسلام دون أدنى مقاومة !.. وأخيرا تخلصت من أحضانى برفق ، ونهضت فسوّت من ثيابها ..

ومكثت فى « باسيان » حتى نهاية شهر سبتمبر .. وقضيت الإحدى عشرة ليلة مع « لوسى » لا يزعجنا أحد .. كانت تنتهز فرصة نوم أمها وتتسلل إلى حجرتى ، لتقضى فى أحضانى أشهى الساعات .. ولكن استكانتها التامة لم

تزدنى إلا تشبثا بما عقدت عليه العزم من أن لا أنتهك عفافها !.. وودعتها على أن أعود فى الربيع التالى . ولكنى خلفتها فى حال ذهنية وجسدية كانت سر ما حاق بها بعد ذلك ، مما لمت نفسى بسببه حين قدر لى بعد عشرين سنة أن أقف عليه — مصادفة — أثناء سياحتى فى هولندا ..

تدس فى يدى قصاصة ورق !

وبرجوعى إلى البندقية ، استأنفت غرامى بأنجيلا ـــ ابنة أخت رجل الدين التى كنت ألقاها فى دار المرأة التى تعلمها التطريز ـــ وكانت زميلتاها فى دروس التطريز « نانيت » و « مارتون » مطلعتين على أسرارها ، وقد أعربتا لى عن استهجانهما لتحفظها !.. وكانت الفتاتان يتيمتين ، تقيمان مع خالتهما « مدام أوريو » ، (التى لم تكن تستخدم فى دارها سوى خادم عجوز ، ولا تصطفى من الأصدقاء سوى وكيل قضائى يدعى « روزا » ، بلغ الستين مثلها ، وكان يطمع فى الزواج منها بمجرد أن يموت زوجها !) .. وكانت الأختان ـــ وإحداهما فى السادسة عشرة والأخرى فى الخامسة عشرة ـــ تنامان فى سرير كبير بالطابق العلوى ، اعتادت « أنجيلا » أن تشاطرهما إياه فى ليلة الأحد من كل أسبوع ..

وذات يوم ، زرت مدام « أوريو » ، فإذا بـ « نانيت » تدس فى يدى وريقة سألتنى أن أقرأها قبل مبارحة الدار .. ووجدت مع السيدة صديقها المسن ، وأنجيلا ، ومارتون .. وتقدمت أقبل « يد » مدام أوريو ، ولكنها قالت : « آه يا عزيزى القس .. سأمنحك القبلة ، ولكن .. لا على يدى .. وما أظن أحدا يعارض ، فإنى أكبرك بثلاثين عاما ! » .

وما كان من الحرج فى شىء أن تقول بصدد سنها إنها فى الخامسة والأربعين !.. ومنحتها قبلتين ، صادفتا رضى فى نفسها ، إذ سألتنى أن أقبل ابنتى أختها أيضا ، ولكنهما هربتا منى .. ورحت أتحين الفرص للخروج من الحجرة ، حتى إذا تمكنت ، رحت أقرأ القصاصة فى لهفة .. فإذا فيها :

(مذكرات كازانوفا)

« ستدعوك خالتى للعشاء ، فلا تقبل ، وتشبث بالرغبة فى الانصراف بمجرد جلوسنا إلى المائدة ، وسوف ترافقك « مارتون » حتى الباب الخارجى .. ولكن لا تبرح الدار ، فإذا ما أغلق الباب بصوت مسموع ، وظن الجميع أنك انصرفت ، فاصعد فى الظلام إلى الطابق العلوى ، حيث ينبغى عليك أن تمكث فى انتظارنا ، ولسوف نلحق بك بمجرد أن يغادر السيد « روزا » البيت وتأوى خالتنا إلى فراشها .. وستكون لدى « أنجيلا » الفرصة الكافية لتخلو إليك ، وهذا ما أعتقد أنه سوف يسعدك ! » .

انتظار .. فى الظلام !

وعدت إلى حجرة الجلوس والهناءة تطغى على كيانى .. وقالت لى السيدة فى لهجة صادقة أننى يجب أن أعتبر البيت بيتى ، وأن أعتبر نفسى صديقا حميما ، أثيرا لدى الجميع .. وإذ اقتربت ساعة العشاء ، استأذنت فى لباقة من مدام أوريو ، بحيث لم أدع لها سبيلا للإلحاف .. ونهضت « مارتون » لتودعنى وتضىء لى الطريق ، ولكن خالتها أصرت على أن تقوم « نانيت » بذلك ، ظنا منها أنها الأثيرة لدى ..

وتقدمتنى « نانيت » إلى الباب ، ففتحته .. ثم أغلقته بعد برهة بصوت مسموع ، وأطفأت النور .. ثم عادت إلى حجرة الجلوس ، وتركتنى وحيدا فى الظلام !

وحيدا .. مع ثلاث عذارى !

وبلغت غرفة الشقيقتين فى الطابق العلوى ، فارتميت على أريكة ، وقبعت فى انتظار السعادة الموعودة .. قضيت ساعة فى أعذب الأحلام والخيال !.. ثم أقبلت الفتاتان أخيرا ، ومعهما أنجيلا ، فاجتذبتها نحوى غير حافل بأحد ، وظللت أحدثها زهاء ساعتين .. حتى أذنت الساعة بانتصاف الليل ، فسمعت الفتيات يرثين لبقائى دون عشاء .. وبهت لأننى لم أفطن إلى ذلك ، فما كنت ــ فى غمرة مثل تلك السعادة ــ لأحس بحاجة آدمية !.. وقيل لى إننى غدوت سجينا ، لأن الخالة اعتادت أن تغلق الباب الخارجى للبيت وتودع المفتاح تحت وسادتها ، فلا يفتح الباب ثانية إلا حين تسعى إلى قداس الصباح الباكر !.. فأظهرت غاية الابتهاج ، إذ استوثقت من أننى سأقضى الساعات الخمس التالية مع حبيبة فؤادى !

وانقضت ساعة ، ثم شرعت « نانيت » تضحك فجأة ، وتساءلت « إنجيلا » عن السبب ، فهمست « مارتون » فى أذنها بكلمات جعلتها هى الأخرى تضحك ، مما أدهشنى فتساءلت بدورى عن السر !.. وأخيرا ، قالت « نانيت » إن الشمعة لن تلبث أن تنتهى بعد دقائق ، فنصبح فى ظلام دامس .. ولم يكن أحب لدى من هذا النبأ ، ولكنى لم أدع شعورى ينعكس على ملامحى ، بل اصطنعت الأسف ، واقترحت أن يأوين إلى فراشهن وأبقى قائما على حراستهن!

وكنا قد قضينا الساعات الثلاث الأخيرة فى الحديث ، وقد استوليت على أعنة الكلام ــ فالحب شاعر عظيم لا ينضب معينه ، بيد أنه لا يلبث فى النهاية أن يمل ويصمت إذا لم يحظ بغايته !ــ وقد ظلت حبيبتى « إنجيلا » طيلة الوقت تنصت ، ولا تبدى ميلا للكلام إلا لِمامًا .. وكلما خفت يدى لمؤازرة

لسانى ، نأت أنجيلاأو صدت .. ولكن لم يداخلنى اليأس إلا حين تبينت أن لا سبيل إلى إقناعها ، فى حين أن آثار كلامى لها كانت تعكس على ملامح الفتاتين الأخريين مشاعر أذهلتنى !

وانتهت الشمعة .. وفى اللحظة التى ران علينا فيها الظلام ، مددت يدى ، فإذا هى لا تجد إلا خواء ، فلم أتمالك أن ضحكت لسرعة« إنجيلا » فى انتهاز الفرصة للهرب منى !.. وظللت ساعة بأكملها أسكب كل حنان ألهمنيه الحب ، فى كلمات حاولت بها أن أقنعها بأن تعود إلىّ .. وأخيرا نفد صبرى ، فقالت لى : « اهدأ .. فسوف أنصت لكل كلمة تقولها ، ولكن يجب أن تدرك أن ليس من اللائق بى أن أكون قريبة منك فى الغرفة المظلمة ! ».

مطاردة .. فى الظلام !

ولم أحجم عن أن أطاردها فى الظلام ، لكننى كنت كلما أمسكت أحدا تبينت أنه « نانيت » أو « مارتون » — وكنت من الغباء بحيث كنت أطلقهما فى كل مرة !.. كان الحب قد أعمانى ! — وظللت ألومها ، دون جدوى ، على قسوتها .. وأناشدها أن تدعنى أمسكها .. حتى إذا تعبت ، واشتد استيائى ، جلست يائسا .. ومضيت فى الساعة التالية أروى قصة خرافية ، اختفت بطلتها « إنجليكا » بقوة الخاتم السحرى الذى أعطاها إياه الفارس الذى كان يعشقها ، فى غفلة وغباء !.. فانبرت « نانيت » تدافع عن « إنجليكا » قائلة إنها لم تكن مذنبة فى شىء ، وإنما كان الخطأ خطأ الفارس الذى أسلمها الخاتم .. وكنت من السذاجة بحيث لم أحاول أن أطبق ما قالت بأن الفارس كان حريا أن يفعله !

وما أن انبثق أول أضواء النهار ، حتى سمعت الباب الخارجى يفتح ، فتريثت

ريثما خرجت « مدام أوريو » إلى الكنيسة ، ثم تهيأت للانصراف .. ولا تسل عن حيرتى حين حانت منى التفاتة إلى البنات الثلاث ، فإذا بهن غارقات فى دموعهن !

وقررت أن لا أزور دار « مدام أوريو » ثانية .. وإن هى إلا أيام قلائل ، حتى رحلت إلى « بادوا » لأحصل على « الدكتوراه » فى القانون .. على أننى لم أكد أعود حتى تلقيت رسالة من السيد « روزا » استحثنى فيها على أن أبادر بزيارة « مدام أوريو » ، فذهبت فى المساء وأنا واثق من أننى لن أجد« إنجيلا » هناك .. وأبدت لى الشقيقتان الرقيقتان ما بدد ما كنت أحسه من خجل بعد الليلة التى قضيتها فى غرفتهما قبل شهرين .. ولامتنى « مدام أوريو » على أننى غبت طويلا عن دارها .. وفيما أنا منصرف ، دست « نانيت » فى يدى رسالة من « إنجيلا » ، جاء فيها : « إذا لم تكن تخشى قضاء ليلة أخرى معى ، فلن تجد ما تشكو منه ، لأننى أحبك ، وأود أن أسمع من شفتيك ما إذا كنت لا تزال مقيما على حبى .. » .

وكانت مع هذه القصاصة أخرى من « نانيت » ، الحاضرة الخاطر والحيلة ، قالت فيها : « تعهد مسيو روزا بأن يرجعك إلينا ، فأحب أن أنبئك بأن إنجيلا يائسة ، إذ تخال أنها فقدتك .. وأعترف أن الليلة التى قضيتها معنا كانت قاسية عليك ، ولكنى لا أراك مصيبا فى قطع زياراتك .. وإذا كنت لا تزال تستشعر لإنجيلا حبا ، فأنصحك بأن تجرب حظك مرة أخرى .. » .

مع « نانيت » و « مارتون » .. فى مخدعهما !

وشئت أن أستغل الفرصة لأرى أنجيلا غضبى فى برود .. فمضيت فى يوم الأحد التالى إلى دار « مدام أوريو » (بعد أن احتسيت زجاجتين من نبيذ قبرص) .. لكننى ، لدهشتى ، لم أجد حبيبتى ـــ وإن أسرت لى « نانيت » بأنها ستتأخر حتى موعد العشاء ـــ لذلك لم ألبث أن استأذنت ، وتسللت صاعدا إلى غرفة الفتاتين ، وأنا أشد ما أكون شوقا إلى أن أؤدى الدور الذى أعددت نفسى لتمثيله .. حتى إذا انقضت ثلاثة أرباع الساعة ، سمعت الباب الخارجى للدار يوصد .. ثم أقبلت « نانيت » و « مارتون » وحدهما ، فنهضت متسائلا : « أين إنجيلا ؟ » .

وقالتا إنها ولا بد لم تستطع الحضور ، فقلت : « لقد ارتبت فى أنها تعبث بى .. هل عرفتماها الآن ؟.. لقد اتخذتكما طعما لاستدراجى إلى هنا ، ولكنها أحسنت .. ولو كانت قد جاءت لأريتها إن الدور دورى للضحك منها .. لا تبدى الارتياب يا « نانيت » الحسناء ، فسوف تتثبتين من صدقى حين ترين متعة الليلة التى سنقضيها بدونها ! » .

ـــ ماذا ؟.. ألديك الجرأة على أن تقضى سبع ساعات وحيدا معنا ؟.. لن تلبث أن تمل ، وتنام ..

ـــ سنرى !.. والآن ، هاتا طعاما ، فما أراكما من القسوة بحيث تتركانى آكل وحدى !.. كان ينبغى أن أحبكما .. ألا نبئينى يا « نانيت » الجميلة .. أكنت تحذين حذو « إنجيلا » فى إشقائى لو أننى كنت أحبك أنت ؟

ـــ كيف تسألنى ؟.. لست أدرى ماذا كنت أفعل ..

وأكلنا فى ضحك ومرح .. وكنت قد حملت معى بعض النبيذ الذى لم

يكن لهما به عهد ، فما لبث أن عبث برأسيهما ، فازدادتا سرورا .. وعجبت وأنا أتأملهما : كيف عميت عن محاسنهما !.. وإذ انتهى العشاء ، جلست بينهما ، ممسكا بإحدى يدى كلا منهما ، ألصقها بشفتى بالتناوب !.. وسألتهما إن كانتا قد أقرتا مسلك « إنجيلا » ، فأجابتا بأنهما ذرفتا كثيرا من الدموع لهذا المسلك .. فقلت لهما : « إذن اسمحا لى أن أبدى لكما حنان الأخ ، على أن تقابلا عواطفى هذه بمثلها ، كأختين لى .. فلنتبادل — فى براءة كاملة — براهين الحب الأخوى المشتركة ، ولنتعاهد على الوفاء إلى الأبد .. » .

عبث العذارى ..!

وكانت القبلة الأولى التى طبعتها على وجنتيهما بادية البراءة ، فردتها كل منهما بمثلها ، فى عاطفة أخوية بحتة — كما أكدتا لى بعد أيام — بيد أن القبلات البريئة ما لبثت مع التكرار أن أذكت فى أعماقهما لهبا ، فوجئتا به على غير توقع ، فأخذ كل منا يحملق فى الآخرين مشدوها ، وقد زايله المرح .. ثم تركتانى غير حافلتين ، وبقيت فى الغرفة وحيدا مع أفكارى .. كان من الطبيعى أن تزكى القبلات وقدة الشهوة فى نفسى ، وكان خليقا بى أن أقع فجأة مدلها فى هواهما ، فقد كانتا أبهى من إنجيلا وأرق : « نانيت » بذكائها الفاتن ، و« مارتون » بطبعها الحلو ، البسيط .. ولم أدر كيف ظللت هذا الزمن الطويل لا أوليهما حقهما ! ولكنهما كانتا ابنتى أسرة نبيلة ، وكانتا ساذجتين ، فلم يكن ينبغى أن تنقلب المصادفة الحسنة التى ألقت بهما فى طريقى ، إلى نكبة عليهما .. ولم أكن من الغرور بحيث أظنهما قد وقعتا فى هواى ، ولكنى أعتقد أن قبلاتى قد بعثت فيهما ما بعثته قبلاتهما فى .. وبقليل من المكر ، وبعض الحيل

الخبيثة التى كانتا تجهلانها ، كان من الممكن أن أحظى خلال الليل الطويل ، بيعض المتع .. ولكن مجرد التفكير فى هذا ، بعث فى كيانى قشعريرة ، فقررت فى عزم أن أحترم عفتهما .. وما خطر لى أن الظروف أقوى من عزمى !

وعندما عادتا ، لم أشأ أن أعرض نفسى مرة أخرى لخطر القبلات .. وظللت ساعة أتحدث معهما عن « إنجيلا » ، مؤكدا عزمى على أن لا أراها ثانية .. فقالت « مارتون » الساذجة : « إنها تحبك ، ولكنك خليق بأن تقطع كل صلة بها ، إذا لم تكن عازما على الزواج منها ، لأنها مصممة على أن لا تمنحك قبلة واحدة ، ما لم تكن خطيبا لها ! » .

— وكيف عرفت أنها تحبنى ؟

— ما دمت قد صرت أخا لنا ، فلن أكتم عنك أن « إنجيلا » كلما نامت معى تحتضننى فى وجد ، وتدعونى : بالقس الحبيب !

وأسرعت «نانيت» تضع يدها على شفتى أختها ، وهى تضحك من أعماق فؤادها .. فقلت لها : « لست أرى مبررا لأن تلومى أختك .. لقد برهنت على صدق ودّها لى .. وعلى أى حال فقد انقضى كل شىء ، فإننى أكره « إنجيلا » .. إنها غير مخلصة ، وكانت ترغب فى دمارى ! » .

— هل تظن أنها أذنبت إذ فكرت — وهى تحبك — فى أن تكون زوجة لك ..؟

— إنها لا تفكر فى غير نفسها ، لأنها تعرف ما أعانى ، ولو كانت تحبنى لاختلف مسلكها معى .. ثم إنها ، فى الوقت ذاته ، تشبع عواطفها إلى حد ما حين تحمل « مارتون » الفاتنة على أن تمثل معها — بالمزاح — دور الزوج !

مسألة ثقة ..!؟

وقهقهت « نانيت » ، فتحولت إليها أجاذبها الحديث .. قلت لها إنها لا بد أن تكون قد مثلت هي الأخرى مع « إنجيلا » دور الزوج .. فأجابت مبتسمة بأن « إنجيلا » لم تمارس ذلك المزاح إلا مع « مارتون » وحدها .. فسألتها عمن تراه حبيبها هي إذا ، فقالت : « إنني أحتفظ بالسر لنفسي ! ».

وأوحى إليّ جوابها أن لي علاقة بسرها ، وأنها قد تكون مزاحمة لإنجيلا في حبي !.. وأغراني هذا الحديث على أن أتخلى عن فكرة قضاء ليلة خاملة مع فتاتين كهاتين ، خلقتا للحب .. فتصنعت الميل للنعاس ، وأنا أضرب على نغمة الحب « الأخوى » الذى ربط بيننا ، فلم تلبث « نانيت » أن لاحظت تناومى ، وقالت : « اذهب إلى الفراش .. خذ السرير ، وسننام نحن على الأريكة في الغرفة المجاورة » .

وتصنعت الإباء ، قائلا إن النوم سيجافيني إذا أنا استأثرت بالسرير ، وأصررت على أن تناما فيه ، وأن أستلقى أنا على الأريكة .. فقابلت « نانيت » إصرارى بمثله .. وأخيرا قلت : « ولكني لا أستطيع أن أنام بثيابي الخارجية » .. فأجابت : « اخلعها .. ولن ننظر إليك ! » .

ــ لست أخشى هذا .. ولكن ، بأى نفس راضية أنام أنا ، بينما تبقيان جالستين بسببي ؟

فلما أجابتا بأنهما ستستلقيان دون أن تخلعا ثيابهما الخارجية ، قلت :

ــ كأني بكما لا تثقان في .. هذه إساءة تمسنى !.. أثبتا لى ثقتكما ، فاخلعا ثيابكما ، وارقدا إلى جانبي ، واركنا إلى وعدى ــ بشرفي ــ بأن لا أمس أيا منكما بطرف أنملة ..ثم مم تخافان ، وأنتما اثنتان ضد واحد ؟

مع الشقيقتين ، فى فراش واحد !

و لم أزد ، بل تظاهرت بأن النعاس يغالبنى ،فتهامستا ، ثم سألتنى « مارتون » أن آوى إلى الفراش ، ووعدتا بأن تلحقا بى بمجرد أن أستسلم للنوم .. وتظاهرت بالاستغراق فى النوم ، ولكنى سرعان ما شعرت بهما تدلفان إلى الفراش ، فظللت ساكنا حتى أطمئن إلى نومهما — أو تظاهرهما بالنوم ، على أى حال ! — وكانتا توليانني ظهريهما ، فلم أستطع أن أميز « نانيت » من « مارتون » .. ومن ثم بدأت محاولاتى بمن كانت إلى يمينى ، فى تأن لا يجرح كبرياء أنوثتها ، وقد انتشيت برجولتى للمرة الأولى .. ثم تحولت إلى الأخت الثانية .. وفى حذر ورفق بدأت محاولاتى ، وكأننى أخشى أن أوقظها ، فإذا بعنف عواطفها يجعلها تتخلى عن اصطناع النوم ، فتحتضننى وتغرقنى بقبلاتها ، وتشاطرنى النزوة ، والنشوة ، فى وجد !

وأدركت أنها « نانيت » .. فلما همست باسمها هتفت : « أجل ، أنا « نانيت » .. لشد ما أكون سعيدة ، وكذلك أختى ، إذا أنت برهنت على صدقك وإخلاصك » .

— إلى الأبد أيتها الحبيبتان ..

وطلبت ضوءا ، ولكن « مارتون » اللطيفة ، الخدوم ، تركت لنا الفراش .. ووقَفَتْ عند طرف السرير تحمل الشمعة ، وأنا أتأمل « نانيت » وقد استكانت فى أحضانى ، وطفحت أساريرها بالحب ..

.. وضحكنا طويلا .

وإن هى إلا أيام حتى خلصنا الحظ من « أنجيلا » — إذ رحلت إلى « فيتشنتا » .. فخلا لى الجو مع الأختين الفاتنتين ..

عودة إلى ضيعة الكونتة « مون ريال »

وأقبلت على الدراسة العملية للعلوم الطبيعية فى مدرسة أحد الأديرة ، وكنت أقضى الليالى فى مجلس السيد « مالبييرو » .. حتى إذا حان عيد القيامة ، ذهبت إلى ضيعة الكونتة « مون ريال » ، وكلى شوق إلى رؤية الجميلة « لوسى » . ووجدت أن الكونت « دانييل » ـــ الابن الأكبر للأسرة ـــ قد تزوج من عروس شابة تدعى الكونتة « جودزى » ..

وفى ليلة وصولى ، خلت أن العشاء قد طال أكثر مما ينبغى ، فقد كنت ألتهب شوقا إلى « لوسى » ـــ وقد عولت على أن لا أعاملها كطفلة ! ـــ ولكنها لم توافنى فى تلك الليلة .. وفى الصباح التالى جاءتنى خادم سمينة ، قبيحة .. فكدت أجن لهفة على « لوسى » .. أتراها مريضة ؟ .. وفيما كنت أتأهب لمغادرة غرفتى ، لقيت والدها ـــ حارس الباب ـــ مكتئب الأسارير .. فلما سألته عنها ، اغرورقت عيناه بالدموع ، وإذ ذاك سألته ملهوفا : « ماذا جرى لها ؟.. هل ماتت ؟ » .

ـــ ليتها !.. لقد فرت مع خادم الكونت دانييل .. ولم نعثر لها على أثر !

وأقبلت زوجته ، فجدد الحديث أساها وحزنها .. وعاد الرجل يقول : « لقد أغواها .. وقد جعلنا فرارها نحدس حقيقة ما جرى ، إذ لاحظنا أنها ازدادت سمنة ! » .

وحزنت للأبوين التعيسين .. وللأحلام التى لم تتحقق ، فمضيت أهيم فى الغابة على وجهى .. ورحت أنحى على نفسى باللوم ، فلو أننى سلكت معها مسلكى مع « نانيت » و « مارتون » ، لما تركتها فريسة للانفعال الذى أعتقد أنه كان السبب فى انزلاقها .. واعتبرت نفسى المسئول الأول عن غوايتها

وزلتها !

ولما انضممت إلى أهل القصر ، لاحظت أن همومى قد تعكر عليهم بهجتهم ، وإن من الخير أن أودع الضيعة وأرحل .. بيد أننى لمحت بين القوم وجها لم يلبث أن أغرانى على إعادة النظر فى الأمر .. كان وجه العروس الجديدة « الكونتة جودزى » — وكانت حسناء بين التاسعة عشرة والعشرين ، تجتذب اهتمام الجميع بانفعالها الدائم ، وطباعها الغريبة .. فقد كان زوجها يخال أن من الخير أن يثير غيرتها ، وأن يبدى لها عدم الاكتراث .. الأمر الذى لذ لى معه أن أوليها من الاهتمام والرعاية ما جعل الجميع يخالون — أو يبدون من قبيل المزاح أنهم يخالون — أننى وقعت أسير هواها !

عاصفة .. دبرها الشيطان !

وحدث ذات يوم ، أن تأهبنا جميعا للخروج فى نزهة .. وكانت ثمة عربتان ، إحداهما تتسع لأربعة والأخرى تتسع لاثنين فقط ، فاحتللت الثانية .. وشاء الحظ أن لا يكون للعروس مكان فى العربة الأولى ، فصاحبتنى مكرهة ، كارهة .. وأوعزت إلى السائق أن يسلك بنا فى العودة أقصر الطرق ، فانطلق عبر الغابة ، وبذلك انفصلنا عن العربة الأخرى .. وفجأة ، تلبد الجو منذرا بعاصفة مباغتة .. وبدا الجزع على صاحبتى — فقد كانت تذعر من الرعد والبرق — وأخذ المطر يتساقط ، فخلعت عباءتى وبسطتها على أفخاذنا وسيقاننا .. ثم جذبت صاحبتى إلىّ ، غير مضيع وقتا .. وحاولت أن تتملص ، فأنذرتها بأنها لن تفلح إلا فى اجتذاب نظر الحوذى وانتباهه .. وتركتها تستمرئ سبابى ، ريثما أرضيت شيطان نزوتى ، غير عابئ بالمطر ، ولا بالعاصفة !

وقالت أخيرا : « هل اكتفيت أيها الفظيع الذى قضى على بالشقاء بقية عمرى ؟ » .

فقلت : « لا .. بقى أن تغمرينى بالقبلات ، وأن تقولى إنك غفرت لى ! » .

وقبلتنى ، صادعة بما طلبت ، وهى كارهة ، كى أطلقها من قبضتى ..

ووصلنا إلى القصر قبل الآخرين ، فهبطت وهرعت إلى غرفتها .. وبينما كنت أخرج من جيبى قطعة نقود للحوذى ، لمحت الخبيث يبتسم ، فسألته عن سبب الابتسام ، فأجاب فى مكر :

— أوه !.. إنك تعرف !!

— إذن ، خذ هذه وأمسك لسانك !

درس عملى .. بأسلوب الشباب

عاد « كازانوفا » إلى البندقية ، فوجد جدته مريضة ، وما لبثت أن ماتت بين ذراعيه .. وكتبت أمه من « وارسو » تنبئه بأن أسقف « مونتاريو » سيوافيه ليصطحبه إلى « كالابريا » حيث يعنى بتثبيته فى خدمة الكنيسة ..

« وسر مسيو « دى ماليبيرو » — عضو الشيوخ — إذ علم إننى راحل عن البندقية لأستكمل استعدادى للمستقبل ، فقد رأى بحكمته وحصافته أننى كنت منغمسا فى البندقية فى اللهو والملذات .. وألقى علىّ درسا فى فلسفة الرواقيين ، قائلا : « أسلم نفسك لما يقدمه لك القدر ، على أن لا تشعر بازورار عنه أو نفور منه » ، وأسهب فى شرح الفلسفة القدرية ، إذ كانت كل دروسه ومعرفته مقتصرة على هذا اللون من الفلسفة !

على أن رضاءه عنى لم يدم أكثر من شهر ، ووقع فى نهايته حادث أفقدنى صداقته ، رغم أننى كنت أتبع تعاليمه وأنفذها : كان الشيخ يخال أنه أوتى من الفراسة ما يمكنه من أن يكشف فى أسارير بعض الناس مخايل تنم عن مدى إيثار الحظ إياهم . وكان إذا توهم أنه تبين هذه المخايل فى أحد ، أخذ بيده وراح يعلمه كيف يساعد الحظ باتباع المبادئ الطيبة الحكيمة .. وكان يقول إن الدواء الناجع قد ينقلب فى يد الغبى أو الأحمق إلى سم زعاف ، فى حين أن السم إذا أحسن استعماله بيد عليم مطلع ، ينقلب إلى دواء !

وكان لديه إذ ذاك ثلاثة تلاميذ يعنى بتربيتهم على هذا النسق .. فإلى جانبى ، كانت هناك « تيريز إيمر » — الفتاة التى كان الشيخ مدلها بها على ما وصفت من قبل — ثم فتاة تصغرنى بثلاث سنوات ، كانت ابنة مراكبى ،

وكان الشيخ يرى أن الحظ قد أعدها لتكون راقصة ، فآلى على نفسه أن يعدها لهذا المصير !

وذات يوم ، تناول ثلاثتنا الغداء على مائدة الشيخ .. حتى إذا رفعت المائدة ، تركنا الشيخ لينعم بما اعتاد من قيلولة .. ثم انصرفت الفتاة الراقصة ، ووجدتني وحيدا مع « تيريز » ، التي كنت قد أعجبت بها — وإن لم أحاول قط من قبل أن أبدى لها حبى — وجلسنا إلى إحدى المناضد متقاربين ، وظهرنا إلى باب الغرفة التي كنا نظن أن راعينا قد استغرق فى النوم فيها .. وبطريقة ما ، راق كلا منا أن يدرس الآخر ، بأسلوب الشباب !.. وفيما كنا فى عنفوان الانصراف إلى هذا الدرس ، إذا بضربة قوية من عصا هوت على كتفى ، وأعقبتها ثانية .. وكان من الممكن أن تنهال العصى على كتفى أكثر من ذلك ، لولا أننى بادرت إلى الفرار تاركا قبعتى وعباءتى !.. ولم ينقض ربع الساعة على استقرارى فى بيتى ، حتى أحضر حارس قصر الشيخ القبعة والعباءة ، مع رسالة منه يحرم علىّ فيها أن أطأ عتبة داره !.. فردت عليه فورا برسالة قلت فيها : « لقد ضربتنى وأنت عبد للغضب ، فليس لك أن تزهى بأنك لقنتنى درسا ، سيما وإننى لم أع شيئا يعد درسا .. . ولكى أصفح عنك ، يجب أن أنسى أنك رجل واسع الحيلة ، وهذا ما لا أستطيع أن أنساه ! »

* * *

وقام الأب « جريمانى » ببيع أثاث دار أم كازانوفا بأمر منها ، فاشتراه جميعه رجل يدعى « أنتونيو رازيتا » ، لم يلبث أن كشف غياب بعض تحف منه ، كان « كازانوفا » قد رهنها خلال أزماته . ورفع الرجل الأمر للقضاء ، فاستعان « كازانوفا » ببعض من ذوى النفوذ على حفظ القضية ، مما أحنق عليه « رازيتا » ، فأخذ يتحين الفرص لإيذائه . وفى تلك الأثناء ، ورد نبأ للأب جريمانى بأن أسقف « مونتاريو » لن يستطيع المجىء قبل ستة شهور ليصحب

« كازانوفا » إلى أمه ، ومن ثم رؤى أن يقضى الشاب هذه الفترة فى دير .

شيطان داخل الدير

« كانت فكرة وضع شاب فى السابعة عشرة من عمره ، له مثل طبيعتى ، فى الدير ، فكرة سخيفة ! وإن هى إلا أيام حتى ارتديت مسوح تلاميذ الدير وأرسلت إلى كنيسة « سان سيبريان دوموران » ، فتلقانى رئيس مدرستها فى عطف ومودة ، لكننى ما لبثت أن شممت من حديثه أنه يظننى جئت إلى المدرسة عقابا ، أو ردعا .. فلما أعربت عن استيائى لهذا ، بادر يطمئننى .. ومن ثم جسنا خلال المعهد : كانت ثمة ثلاث قاعات ، وجدنا فيها ما لا يقل عن مائة وخمسين تلميذا .. فضلا عن عشرة فصول ، ومطعم ، و « عنبر » للنوم ، وحدائق للعب .. وقد بذلت كل الجهود لإيهامى بأن الحياة فى مثل هذا المكان أسعد ما يمكن أن يناله شاب مثلى !

و لم ألحق بقسم نوم الكبار ، إذ لم أكن — رغم نمو جسمى — قد بلغت السن المحددة ، كما أننى لم أكن أحلق فودى ، إذ كنت أعتقد أن نعومتهما توحى بصغر سنى .. إنه سخف ، ولكن ، منذ متى كف الرجال عن السخف ؟.. إننا نتخلص من رذائلنا بأسهل مما نتخلص من حماقاتنا !

ورغبت فى أن ألتحق بمدرسة فقه الدين فى المعهد . ومع أننى كنت أحمل « الدكتوراه فى اللاهوت » ، إلا أنهم أصروا على امتحانى ، فشعرت بأن فى هذا إهانة لى .. وتعمدت أن أسىء الإجابة ، فكان أن وضعونى فى فصل أولى ، لدراسة النحو والصرف ! فوجدت نفسى فى فصول الدراسة زميلا لعشرين تلميذا تقريبا ، فى حوالى العاشرة من العمر !

أما فى عنبر النوم ، فكان الأمر على العكس ، إذ كان أندادى من الزملاء يدرسون فى فصول متقدمة على فصلى ، فكانوا يستصغرون شأنى

ويزدروننى ! ولم أكن راغبا فى أن أطلعهم على مدى علمى ، لولا أننى اضطررت لأن أطرح عنى القناع إثر حادث لم أستطع أن أتفاداه : إذ جاء يزور المعهد أب تلقيت عليه العلوم الطبيعية فى البندقية ، فما أن علم بالفصل الذى وضعت فيه حتى تحدث فى الأمر إلى مدير المعهد ، الذى استدعانى بعد ساعة ليظهر غضبه مما اصطنعت من جهل ! ثم ألحقنى بمدرسة فقه الدين .. وما أن علم زملائى فى عنبر النوم بالقصة حتى التفوا حولى وأسعدونى بما أولونى من صداقة ومودة . واسترعى انتباهى بينهم طالب فى الخامسة عشرة من عمره — ما أحسبه إلا قد صار أسقفا الآن ، إذا كان على قيد الحياة — فقد اجتذبتنى ملامحه ومواهبه معا .. وتوثقت بيننا الصداقة فى أقل من أسبوع ، وبدلا من أن نلعب مع الآخرين فى أوقات الفراغ ، كنا نتمشى ونتباحث فى الشعر والشعراء .. وبلغ من توطد صداقتنا أن أصبح كل منا يغار على صاحبه من تودد الزملاء الآخرين !

وكان عنبر النوم تحت إشراف راهب علمانى ، كان يصحبنا إليه عقب العشاء ، فيخلع كل منا ملابسه فى سكون ، ويؤدى صلاته بصوت خافت ، ثم يأوى إلى سريره .. وبعد أن يطمئن المشرف إلى وجود كل واحد فى فراشه ، كان يأوى بدوره إلى سريره .. وكان يضىء العنبر طيلة الليل مصباح كبير .. وقد صفت الأسرَّة على مسافات متساوية ، وإلى جانب كل منها منضدة صغيرة ، ومقعد وفراغ لحقيبة ملابس الطالب .. وفى أقصى العنبر قامت الحمامات ، فى حين وضع سرير المشرف فى الطرف الآخر المقابل لها . وكان سرير صديقى مواجها لسريرى ، ليفصل بينهما المصباح الكبير » .

* * *

وسبب هذا التقارب متاعب لكازانوفا ، فقد وجد ذات ليلة صديقه إلى جواره فى سريره !.. وفوجئ الاثنان .. ومع أن كازانوفا كان بريئا من أى فعل فاضح ، إلا أنه اضطر لمغادرة الدير ، والعودة إلى البندقية .

« كازانوفا » فى المعتقل !

« و لم أدر أين أذهب وليس معى نقود .. وفى ظهر اليوم الأول ، استوقفنى شرطى وطلب إلىّ أن أصحبه إلى « جندول » أشار إليه . وأدركت أن ليس فى الأمر خيار . ومع أن هذا اللون من « الاعتقال » لم يكن مشروعا فى البندقية إذ ذاك ، إلا أننى خشيت الضجة والعنف ..

وفوجئت فى الزورق بخصمى اللدود « رازيتا » (مشترى دار والدتى) ! وكان ثمة جنديان يجلسان فى طرف الجندول ـــ الذى تبينت أنه يخص الأب جريمانى ، والذى بادر متجها إلى ضاحية « الليدو » ـــ و لم ينبس أحدنا ببنت شفة ، ولم أحاول من ناحيتى الكلام .. وبعد نصف الساعة ، وقف الجندول أمام مدخل قلعة « سانت أندريه » ، وقدمنى ضابط كان يرافقنا إلى قائد القلعة ، ودفع إليه برسالة ، لم يلبث بعد قراءتها أن عهد بى إلى ياوره السيد « زن » ، الذى أعطانى بعد رحيل مرافقى ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه ، وأفهمنى أننى سأتقاضى مثل هذا المبلغ فى كل أسبوع ، وهو مرتب « المجند » !

و لم أستسلم للغضب ـــ وإن شعرت بحنق شديد ـــ وقضيت ليلتى دون أن يغمض لى جفن ، إذ كان زملائى المجندون يغنون ، ويأكلون الثوم ، ويدخنون أردأ أنواع التبغ ، ويشربون نبيذًا أسود كالمداد !

وفى الصباح الباكر ، استدعانى الميجور « بلودور » ـــ حاكم القلعة ـــ وأنبأنى أنه تركنى أقضى الليل وسط الجنود تنفيذا لأوامر وزير الحربية ، ثم قال : « أما بعد هذا ، فالأوامر تقضى بأن أستبقيك سجينا فى القلعة لا

تبرحها ، وسأدع لك حرية التنقل فى أرجائها ، وأفرد لك غرفة لا بأس بها ، نُقِل إليها كل متاعك .. فافعل ما شئت ، ولكن تذكر أنك لو هربت فسوف تقضى على مركزى .. ويؤسفنى أن الأوامر تقضى بأن لا أعطيك سوى عشرة « صولديات » فى اليوم ، على أنك تستطيع أن تكتب لمن ترى أنهم على استعداد لأن يمدوك بالمال من أصدقائك فى البندقية ، ولك أن تأتمننى على رسائلك » .

تمنحه الحب .. والمرض !

وكانت غرفتى فى الطابق الأول ، واسعة ذات نافذتين تطلان على منظر رائع الجمال .. وارتحت إذ وجدت حقائبى إلى جوار السرير سليمة لم تمس أقفالها ، وقد تكرم « الميجور » فأعد لى منضدة مجهزة بكل أدوات الكتابة ، وعين جنديا لخدمتى ، على أن أدفع له أجرا من « الصولديات » العشرة التى كنت أتقاضاها يوميا ..

ودعانى حاكم القلعة للعشاء فى تلك الليلة ، فوجدته محوطا بعدد من الأصدقاء . وقدمنى إلى زوجته وإلى الحاضرين ، وكان بينهم عدد من الضباط ، وقس القلعة — « باولى فيدا » — وزوجته التى كانت أختا لزوجة الميجور ، وكانت جميلة ، وقد اختار زوجها أن يكون راعيا لكنيسة القلعة لأنه كان مشبوب الغيرة !.. وكان ثمة عدد آخر من السيدات اللواتى جاوزن مقتبل الشباب ، بيد أن حفاوتهن بى ، جعلتهن يرقن فى نظرى !

وكانت حكومة الجمهورية لا تحتفظ فى القلعة بحامية تزيد على مائة جندى صقلبى ممن يتقاضون نصف مرتب الجنود العاديين ، لكنها فى تلك الأيام كانت تضم أيضا ألفى جندى ألبانى ، جلبهم وزير الحربية — الذى كان يدعى

« الحكيم الكاتب » — من الشرق ، بعد أن أبلوا فى آخر حرب ضد الأتراك ..
فوجدت عزاء وتسرية فى الاتصال بهم ، وتفقد أحوالهم ، وسماع أحاديثهم ..
وإذ تفقدت محتويات حقائبى ، تناولت من بينها كل ما له علاقة بالكنيسة ،
ثم دعوت أحد السماسرة وبعته الحزمة كلها غير آسف !.. وأرسلت إلى السيد
« روزا » كل المقالات التى كتبتها ، راجيا إياه أن يبيعها ويوافينى
بثمنها .. » .

* * *

وتلقى « كازانوفا » فى يوم عيد ميلاده — ٢ إبريل — زيارة من امرأة يونانية
حسناء جاءته محملة بالهدايا — وكانت زوجة أحد ضباط الحامية — وقد
أسلمته نفسها طيلة اليوم ، مقابل وعده بأن يكتب التماسا باسم زوجها إلى
وزير الحربية لترقيته .. وفى ثالث يوم بعد ذلك ، تبين « كازانوفا » أنها لم تمنحه
الحب وحده .. وإنما منحته أيضا مرضا اضطره إلى أن يتبع نظاما قاسيا للتغذية
طوال ستة أسابيع ، حتى شفى !

يفر من القلعة لينتقم من عدوه !

« وفى منتصف شهر يونية ، أعيد الألبانيون إلى الشرق ، فأحسست بفراغ كبير .. وكان الصيف شديد الحر ، فكتبت إلى السيد « جريمانى » أسأله أن يوافينى بحلّتين صيفيتين من المتاع الذى تركته فى دار الأسرة — إن لم يكن « رازيتا » قد باعه — وإن هو إلا أسبوع ، حتى وجدت « رازيتا » يزور حاكم القالعة وفى صحبته مهرج زعم أنه أثير مقرب لدى إمبراطورة روسيا !.. ودفع « رازيتا » إلىّ بحزمة وهو يقول : « لقد أحضرت لك أسمالك » .. فقلت له : « أرجو أن أحضر لك يوما كفنا ! » .. فاهتاج الوغد ، ورفع عصاه ، ولكن الميجور اضطره إلى أن يهدئ من سورته .. وقال زميله المهرج إنه كان يتوق إلى أن يلقانى فى البندقية لأقوده إلى أماكن الفحش التى اعتقد أننى أعلم بها منه !.. فقلت له : « من المحتمل أن تلتقى بزوجتك فى أحد هذه الأماكن ! » .

وكنت أرتجف غضبا ، وقد شاركنى الميجور فأبدى اشمئزازه من الزائرين ، وعمد إلى صرفهما من القلعة . ووعدنى بأن يذهب بنفسه فى اليوم التالى إلى وزارة الحربية فيشكو وقاحة « رازيتا » .

وكنت أتحرق شوقا إلى الثأر ، فخطر لى أن من الميسور أن أتفق مع مراكبى على أن يوافينى فى المساء تحت نافذة غرفتى ، فأتسلل إلى البندقية ، ثم يردنى فى الصباح الباكر إلى القلعة .. واستطعت فعلا أن أغرى أحد ملاحى القوارب التى كانت تحمل المؤن إلى القلعة .. وحددت له موعدا ..

وفى النهار السابق لليلة الموعودة ، رحت أتمشى فى القلعة مع ابن « زن » ياور الميجور .. وبينما كنت أقفز فوق أحد أحواض الزهور ، تظاهرت

بالسقوط ، وبأن كعب قدمى قد كسر ، فحملنى جنديان إلى غرفتى ، وأقبل طبيب القلعة فأعد جبيرة للكعب المكسور .. وعادنى القس وكل المسئولين فى القلعة .. فلما كان المساء ، دعوت الجندى القائم على خدمتى إلى أن ينام فى الغرفة ليكون قريبا منى .. وبزجاجة خمر ، أسلمته إلى أحضان نوم عميق !.. وحوالى الساعة العاشرة والنصف ، تدليت من النافذة إلى القارب .. حتى إذا بلغت البندقية ابتعت هراوة ضخمة ، وتربصت لعدوى فى ركن مظلم من شارع اعتاد أن يسلكه ، تمتد فى نهايته قناة ضيقة ..

وفى الساعة الثانية عشرة إلا الربع ، رأيت « رازيتا » يسير وحده مترنحا ، فتسللت محتميا بالجدران ، وانهلت بالهراوة على رأسه ، ثم على ذراعه .. وبضربة ثالثة طوحت به فى القناة الضيقة وهو يصرخ ويعوى مرددا اسمى !.. وفى تلك اللحظة ، برز من دار إلى يسارى رجل من أهل (فورلى) يحمل مصباحا ، وبضربة من هراوتى طار المصباح من يده ، وبادر الرجل إلى الفرار .. فألقيت بهراوتى ، وهرعت إلى القارب .. ولم تؤذن الساعة بانتصاف الليل حتى كنت فى سريرى ، أصرخ وأتأوه ، حتى استيقظ حارسى ، فأوفدته لاستدعاء الطبيب ، زاعما أننى أصبت بنوبة مغص تكاد تقضى علىّ !

وفى الوقت ذاته استيقظ القس على صراخى ، فأقبل ليجدنى أتلوى من الألم .. وأحاطت بسريرى وجوه يعلوها القلق ، إلى أن أعلنت بعد نصف ساعة أن الألم قد زايلنى ..

وعاد الميجور فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالى ، فقال لى وهو يضحك :

ــ لقد ضُرِبَ رازيتا أمس وأُلقِىَ فى قناة .. ولم يمت لحسن حظك ، لأنه يتهمك !

قلت : « لكم يسرنى أن يظننى الناس مذنبا ، ففى هذا بعض الثأر لى .. ولكن من العسير عليه أن يثبت اتهامه ! » .

ومع ذلك فهو يقسم بأنه استطاع أن يميز شكلك .. وشهد رجل من أهل (فورلى) بأنك ضربته على يده فأطحت بمصباح كان يحمله .. ولقد تهشم أنف « رازيتا » ، وكسرت ثلاث من أسنانه ، وكادت ذراعه اليمنى أن تتحطم .. وقد رفع أمرك إلى المحقق ، وكتب السيد « جريمانى » إلى وزارة الحربية يشكو من أنك خرجت من القلعة بدون علمه وهو المسئول عنك .. وقد وصلت إلى مكتب الوزير وهو يقرأ خطاب جريمانى ، فأكدت لسعادته كذب الاتهام ، وأخبرته بأننى تركتك طريح فراشك كسير الكعب ، وأنك فى منتصف الليل كنت موشكا على الموت من نوبة مغص قاسية .. أى فى الوقت الذى قال « رازيتا » إنه تعرض فيه للاعتداء !

وبعد ثلاثة أيام ، أقبل أحد المحققين إلى القلعة ، يرافقه كاتب من المحكمة ، فشرع فى التحقيق ، وكان الجميع قد عرفوا بكسر كعبى ، وبالمغص الذى أصابنى فى منتصف الليل ، فتأكد المحقق من براءتى ، وقضى على « رازيتا » والرجل الآخر بنفقات التحقيق ، دون أن يمس هذا حقى فى طلب التعويض !

وبعد هذا الحكم ، نصحنى الميجور بأن أكتب التماسا إلى وزير الحربية ، حمله بنفسه إليه .. كما أخطرت الأب جريمانى به .. وبعد أسبوع ، بشرنى الميجور بأننى غدوت حرا ، وبأنه سيرافقنى بنفسه إلى الأب » .

.. مع فتاة الرابعة عشرة !

على أن « كازانوفا » لم يبرح القلعة قبل أن يخوض مغامرة جديدة ! فقد وصل إلى القلعة نبيل مسن يدعى الكونت « دى يونافيدى » ، كان قد تخاصم مع مدير بريد البندقية ، فهدده بأن يثأر لكرامته بحد سيفه ، مما أدى إلى الحكم بسجنه فى القلعة لمدة أسبوع !

وقال لى السجين الجديد بمجرد تعارفنا : « لكم سيسعدنى أن أقضى هذه المدة فى صحبتك » ، فأنبأته بأننى استرددت حريتى ، ولكننى سأمكث أسبوعا لأحظى بشرف صحبته ، تقديرا لما أولانى من ثقة !

وفى عصر ذلك اليوم ، أقبلت زوجته وابنته لزيارته . كانت ملامح الكونتة تنم عن جمال غابر ما تزال بقاياه تلازمها .. أما الابنة فكانت سنها تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، وقد سحرنى منها طراز جديد علىّ من الجمال . كان شعرها أسمر يميل إلى الحمرة كالنحاس ، وعيناها زرقاوين جميلتين ، وأنفها رومانيا ، وفمها الدقيق المفتر عن ضحكة دائمة يكشف عن أسنان فى بياض بشرتها .. والتقت نظراتى بنظراتها ، فخيل إلىّ أن عينيها تقولان لى : « تريث عامين ، وستجد أن كل ما يصوره لك خيالك عنى قد أصبح حقيقة واقعة ! » .

وخرجنا جميعا نتنزه .. فسار الأب والأم فى المقدمة ، وتأبطت أنا ذراع الابنة ، فأسرعت تسحبها وهى تضحك بصوت عال جعل أمها تلتفت متسائلة ، فقالت إننى دغدغتها !.. وروعت أنا لقولها ، وارتبكت .. فحسبتنى جلفا ، « خاما » ، وعمدت إلى إلقاء درس علىّ فى « إتيكيت » التأبط !..

ثم تطرق بنا الحديث إلى الرسم ، فقالت الفتاة إنها تتعلم الرسم ، ووعدت بأن تريني لوحة رسمتها لآدم وحواء .. وتمادت — مطمئنة إلى ظنها فى سذاجتى — فذكرت أنها تعتقد أن آدمها أجمل من حوائها ، لأنها عنيت برسم كل صغيرة وكبيرة فى جسمه !.. وأثارنى حديثها ، لكننى كنت أمشى وكأننى أخطو على شوك ، خشية أن أستثير شكوك الكونت والكونتة اللذين كانا يسيران أمامنا .. وزيادة فى الإحراج ، تظاهرت الصغيرة بالتعثر ، فأطاحت بحذائها من قدمها ، ثم رفعت القدم برشاقة لألبسها الحذاء .. وتعمدت أن ترفع طرف ثوبها قليلا ، فإذا المنظر الذى رأيته من ساقيها يطير عقلى !

قبلة .. بدون تعقيب !

وفى صباح اليوم الثامن ، غادر الكونت القلعة .. فرحلت بدورى عنها فى المساء ، على أن ألتقى بالميجور فى مقهى بميدان « سان مارك » ، ليصحبنى إلى الأب جريمانى .. بيد أننى كنت أكثر لهفة إلى رؤية معبودة أحلامى !

ولم يكن الكونت فى الدار حين ذهبت ، لكن الكونتة استقبلتنى فى ترحاب .. وأذهلتنى معالم الفقر فى الدار ، ورثاثة ثياب الكونتة ، التى لمحت وجومى ، فانصرفت لترسل إلىّ ابنتها ..

ولم أجد الفتاة على ما عرفتها عليه فى القلعة !.. كان قبح ثيابها يشوه جمالها . وإذ رأت دهشتى ، تبدى عليها أسى أذاب قلبى ، وقالت إن الحكومة لا تمنح أباها إلا معاشا ضئيلا يعول به تسعة أشخاص ، ومن ثم فهم يحتفظون بالثياب الأنيقة للمناسبات ، كى يبدوا أمام الناس بالمظهر اللائق ، فى حين أنهم يعيشون على الكفاف بين جدران دارهم ..

وعرضت على رسومها ، فسألتها — لمجرد وصل الحديث — لماذا لا تحاول

شحذ مواهبها الفنية بالتدرب على الرسم بالطباشير ، فقالت إن الطباشير غالى الثمن ، وإذ ذاك قلت : « هل تغفرين لى جرأتى إذ أهدى إليك ستة صناديق من الطباشير الملون ؟ » .

وعجزت عن كبح دموعها ، فأشاحت بوجهها .. وانتهزت الفرصة ، فوضعت على المائدة المبلغ الكافى لشراء صناديق الطباشير .. ولأجنبها أى هوان أو مذلة ، حييت شفتيها بقبلة .. تركت لها الخيار فى تفسيرها ! » .

مع الحسناء .. القادمة من الشرق !

ووصل الأسقف الذى أرسلته أم « كازانوفا » بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، فبارك الفتى وقبله ، ثم قال له إن عليه أن يرحل إلى (إنكونا) حيث يتصل براهب يدعى « لازارى » يرشده إلى ما ينبغى عليه عمله .. فودع كازانوفا أصدقاءه فى (البندقية) ، وأودع أوراقه وكتبه المحرمة لدى صديقته العطوفة « مدام منزونى » ، ثم غادر المدينة على ظهر سفينة كانت تقل سفير البندقية فى (إنكونا) .. وفى أحد الموانئ انضم إلى الركاب راهب يدعى « ستيفانو البيلونى » ، سرعان ما أولى كازانوفا عطفه ، وعرفه بقس فى المدينة حظى « كازانوفا » فى داره بعشاء شهى ، كما استمتع بين أحضان خادمته بساعة هنية !.. ثم عاد إلى المركب ليستأنف الرحلة ومعه الراهب « ستيفانو » الذى أخذ يؤنسه بحديثه .. حتى إذا وصلت السفينة إلى (إنكونا) أخيرا ، احتجز الشابان فى الحجر الصحى لثمانية وعشرين يوما !

يغازل الجارية اليونانية

« ولم ينقض أسبوعان حتى تحسنت صحتى ، ورحت أقضى نهارى متجولا فى أنحاء المحجر ، إلى أن وصلت إليه أسرة تركية ، فاضطررت إلى أن أحد من تجوالى .. ولم يبق لى من ملهاة سوى أن أقضى وقتى فى الشرفة المطلة على ساحة المحجر .. وسرعان ما اجتذبت انتباهى جارية يونانية باهرة الجمال ، اعتادت أن تقضى يومها جالسة أمام باب الطابق الأرضى ــــ الذى

شغلته الأسرة التركية ـــ منصرفة إلى القراءة أو التطريز .. وكانت إذا رفعت عينيها وفطنت إلى وجودى ، غضت من بصرها ، أو نهضت فولجت المسكن بخطى وئيدة ، وكأنها تقول : « ما كنت أحسب أن هناك من يتأملنى » .. وكانت طويلة ، هيفاء القوام ، تنم قسماتها عن صغر سنها ، ويخلع عليها زيها اليونانى جوا شديد الإثارة والإغواء .. سيما وأننى كنت أعيش فى بطالة أضعفت مقاومتى للعواطف المشبوبة التى كانت تضطرم فى أعماق ، فكيف كان من المحتمل أن أمتع بصرى بهذا الجمال الفاتن دون أن أتدله فى هواه ؟.. وكنت قد سمعت الفتاة تتكلم الفرنسية مع رجل من نزلاء المحجر ، فشعرت بإغراء شديد يدفعنى إلى أن أكتب لها .. حتى إذا رأيتها يوما تجلس وحيدة ، بمنجاة من أى رقيب ، طويت قطعة بيضاء من الورق ـــ لم أكتب عليها شيئا ـــ وأسقطتها من الشرفة . وما أن رأيتها تنحنى لتلتقطها ، حتى اطمأننت إلى استعدادها ، فبادرت بإلقاء الرسالة التى كنت أعددتها !.. ورأيتها تدس الاثنتين فى جيبها ، ثم تنصرف بعد دقائق .. وكان ملخص رسالتى :

« أعبدك أيها الملاك القادم من الشرق !.. سأظل الليل بطوله فى الشرفة ، على أمل أن توافينى ولو لربع ساعة ، أتحدث إليك فيها خلال الثغرة التى بأسفل الشرفة . وبوسعك أن تصعدى على كومة الأمتعة المودعة تحت الشرفة ، ليسهل إصغاؤك إلىّ ! » .

وعندما أوشكت أن أيأس ـــ بعد منتصف تلك الليلة ـــ أقبلت فاتنتى ، فانكفأت أنا على أرض الشرفة . ورأيتها ـــ خلال الثغرة التى كانت تناهز ١٥ سنتيمترا مربعا ـــ تقفز فوق الأمتعة ، ثم تعتمد بإحدى يديها على الجدار ، خشية أن تقع .. وتناجينا ، وتحدثنا عن الرغبات الجامحة ، والصعاب التى تعترضنا ، وفنون الحيل التى فى وسعنا أن نلجأ إليها للتغلب عليها .. ثم وعدتنى

بأن توافينى كل ليلة على هذا النمط !

الحواجز لا تقف فى طريقه ..

ورحت بعد ذلك اللقاء أعتصر مخى بحثا عن وسيلة تزيد من إرضاء عواطفى ونزواتى ، فلم أوفق .. لكن حسنائى اليونانية أثبتت بعد ظهر اليوم التالى مكر الأنوثة : فقد جاءت ببعض السلال والقطن ، وأضافته إلى ركام البضائع التى كانت تحت الشرفة .. ورأيت أنها أصبحت بذلك قادرة على أن تبلغ أسفل الشرفة ، إلا أن الثغرة لم تكن تتسع لرأسها كى يمر منها ! ومن ثم جالت برأسى فكرة جريئة ، عسيرة : أن أحاول أن أخلع لوحا من خشب أرض الشرفة !.. ووفقت إلى خلخلة المسامير فعلا ، فتركت بقية العملية حتى المساء ، والشوق يستنفد صبرى !

وأقبلت الحبيبة فى منتصف الليل تماما ، فتسلقت كومة الأمتعة فى عناء .. وإذ ذاك رفعت اللوح ، ومددت ذراعىّ حتى التفتا حولها ، ورفعتها .. وانتشت هى إذ تبينت أن بوسعها أن تنفذ برأسها وذراعيها خلال الفراغ الذى خلفه اللوح .. وهكذا بقينا معا فى بهجة ممتعة حتى انبثق أول خيوط الفجر ، وحين انصرفت الفتاة أعدت اللوح إلى مكانه .. ثم عدت إلى سريرى وليس ما يعكر هنائى سوى أن عيد الأسرة التركية كان يبدأ فى ذلك الصباح ، ويمتد ثلاثة أيام كاملة ، لم يكن فى وسعى أن أحظى برؤية حبيبتى فيها !

وفى الليلة التى أعقبت العيد ، وافتنى .. وقالت إنها لن تسعد بدونى ، وإن مولاها لن يمانع فى بيعها لى ، لأنها مسيحية وهو مسلم .. فلما صارحتها بأننى لا أملك ما يوفى ثمنها ، تنهدت فى أسى .. ثم عادت فى الليلة التالية تذكر أن

مولاها لن يمانع فى بيعها لقاء ألفى قرش بندقى ، وأنها ستوافينى بالمبلغ ، إذ ستأتينى بعلبة مليئة بماسات ثمينة ، إذا بعتها أمنت وإياها شر الفقر بقية عمرينا !.. وقالت إننى لن أندم على الصفقة ، لأنها عذراء .. وإن مولاها لن يفتقد علبة الماسات ، ولن يفكر فى أن يتهمها إذا ما فطن إلى ضياعها !.. على أننى لم أرتح لحظتها — رغم شدة هيامى بها — فلما أحضرت العلبة أبيت أن آخذها ، وقلت لها إننى لا أجرؤ على أن أمد يدى إلى حرام ، فأبدت عميق أساها ، وعميق إعجابها .. وقالت إن تلك كانت آخر ليلة تستطيع أن توافينى فيها ، فاشتعلت نيران وجدى ، وألفيتنى أجتذبها إلىّ لأشبع منها حسى — فى ليلة الوداع هذه — على أكمل وجه .. وفجأة أحسست بيدين قويتين تمسكان بكتفى .. فأفلتها لتهبط وتهرع إلى غرفتها ، والتفت إلى القادم ، فإذا هو خفير المحجر ! ووددت لو أنقض عليه فأخنقه ، لكنى نهضت فى النهاية فأويت إلى فراشى صامتا ! » .

***

وفى الصباح التالى أخلى سبيل « كازانوفا » من المحجر ، فاصطحب الرجل الذى كان مدينا له بأجر غرفته فى المحجر إلى الراهب « لازارى » صديق الأسقف ، فدفع إليه الراهب دينه ، ثم أعطى « كازانوفا » مبلغا يواصل به السفر إلى روما .. والتقى هذا بزميله فى المحجر الراهب « ستيفانو » ، الذى أخلى سبيله بدوره ، لكن كازانوفا لم يلبث أن ازداد تأكدا من زيف صاحبه الراهب ، ومن ولعه بالكذب والغش ، فتشاجر معه وتضاربا .. ثم انفصلا ، وواصل كازانوفا الرحلة وحده .. حتى بلغ روما .

الغش .. نوع من المكر الشريف !

« وصلت إلى المدينة الخالدة فى الساعة التاسعة من صباح أول سبتمبر .. ولم أضيع وقتى سدى ـــ إذ كانت نقودى قد أوشكت على النفاد ، كما لم أحفل بفخامة مدخل المدينة وجمال معالمها ـــ فيممت فورا شطر منزل الأسقف ، فإذا بى أفاجأ بأنه قد غادر المدينة قبل عشرة أيام إلى (نابولى) ، وترك تعلمياته بأن ألحق به دون أن أتكبد نفقات ما .. ولم آبه بروما ولا ببدائعها ، بل بادرت فى الصباح التالى إلى الرحيل ، فدخلت (نابولى) فى ٦ سبتمبر .. وهناك أيضا وجدت الأسقف قد رحل إلى مقره فى (مارتورانو) ، دون أن يترك أية تعليمات لى !.. وألفيتنى وحيدا مفلسا فى مدينة كبيرة لا صديق لى فيها ، فعولت على أن أقطع المائتى ميل التى كانت تفصلنى عن (مارتورانو) سيرا على قدمى ، متسولا قوتى ومأواى من أهل الخير !.. وانطلقت فبلغت إحدى القرى بعد ساعة ونصف ساعة ، وكان قد برح بى التعب ، وكلت ساقاى عن حملى ، فلجأت إلى فندق صغير ، حيث طلبت حجرة وعشاء ، ثم استسلمت لنوم عميق حتى الصباح .. وحين أفقت أوصيت صاحب الفندق بأن يعد لى غداء ، وذهبت لأتفرج على القصر الملكى . وهناك التقيت بيونانى بادى الثراء ، تطوع بأن يرينى روائع القصر . وفى أثناء تجوالنا ، علمت أنه تاجر نبيذ ، وأن لديه فى الفندق بعض عينات من النبيذ ، وبضع قنينات من الزئبق . وإذ ذاك تذكرت حيلة لزيادة وزن الزئبق بنسبة كبيرة ، نتيجة لخلطه بالبزموت والرصاص ! وقدرت أن الغش جريمة ، لكننى اعتبرت هذا من

قبيل المكر الشريف الذى هو نوع من الحكمة والمهارة !

وإذ انتهينا من طوافنا ، ذهبنا إلى فندق التاجر ، حيث أمر بغداء لاثنين . ورأيت عنده عددا من زجاجات النبيذ ، وأربع قنينات كبيرة من الزئبق ، سعة كل منها حوالى عشرة أرطال ، فسألته أن يبيعنى واحدة منها بالسعر العادى .. حتى إذا انصرف لبعض شئونه ريثما يُعَدُّ الغداء ، انصرفت أنا الآخر فابتعت رطلين ونصف رطل من الرصاص ، ومثلهما من « البزموت » ، كما ابتعت عددا من الزجاجات الكبيرة الفارغة ، وخلطت المواد معا .

وبينما كنا نتناول الغداء ، سألنى اليونانى ضاحكا عن السبب الذى من أجله أردت الزئبق ، فدعوته إلى غرفتى ، وأريته العملية ، ثم دعوت الخادم وأرسلته بإحدى الزجاجات إلى بائع للعقاقير ، فما لبث أن عاد لى بالثمن — الذى دفعه البائع دون أن يساوره أقل ارتياب فى جودة الزئبق !— وقنعت بثمن الزجاجة وأهديته الكمية الباقية ، قائلا إننى فى غير حاجة إلى المال ، لأننى إنما أسعى وراء سر مضاعفة وزن الذهب ، كما فعلت بالزئبق !.. ثم فارقته على أن ألتقى به بعد أسبوعين فى « نابولى ».ومن المبلغ الذى كسبته دفعت لصاحب الفندق حسابى ، معتزما أن أرحل فى الصباح الباكر إلى (ساليرنو) ..

التاجر الغبى يدفع نفقات الرحلة !

وكنت أدرك أن اللهفة تضطرم فى صدر اليونانى ليعرف سر المواد التى خلطتها بالزئبق .. وصح ما توقعت ، فما أن انبثق الفجر حتى كان اليونانى فى غرفتى يساومنى على السر ! فقلت له إننى أحتاج إلى مواد توجد فى

(تور دى جريك) — وهى البلدة التى كنت قد جعلتها قبلتى الثانية — فدفع إلىّ بخمسين أوقية من الذهب عربونا ، ثم أقلنى فى عربته إلى (تور دى جريك). وما أن وصلنا إليها حتى كتبت تعهدا بأن يدفع لى ألفى أوقية من الذهب بمجرد أن أكشف له سر العملية ! وفعلا أطلعته على الطريقة ، فجربها ، وغاب برهة ثم عاد بادى القلق ، وقال إن الزئبق الناتج لم يكن من نفس نوع الزئبق الأصلى ، فقلت له : « إنه من نفس النوع الذى بعته للتاجر فى المرة السابقة » .

قال : « ولكننى كنت أحسب أن نوع الزئبق لن يضار أو يتأثر ! »

قلت : « إنك تعرف أن الاتفاق كان على إنتاج زئبق يعادل فى النوع ذلك الذى بعته للتاجر .. فإن شئت أن تلجأ إلى القضاء فستخسر القضية ، وإن كان يؤسفنى أن يشيع السر بين الناس .. ولكن ، لكم سيضحك القوم — ويكسب المحامون — من وراء النزاع !.. على أننى سأكون جد حزين لتطور الأمر إلى هذا الحد ، فإليك الذهب الذى دفعته عربونا .. » .

وأخرجت الذهب وأنا أخشى أن يأخذه فعلا ، ولكنه غادر الغرفة غاضبا ..

وفى الصباح التالى جاء يسألنى أن أرد إليه التعهد الذى كان قد كتبه ، لقاء خمسين أوقية أخرى من الذهب .. وتصالحنا ، حتى إذا آن لنا أن نفترق ، أعطانى رسالة أتسلم بها برميل نبيذ من بيته فى (نابولى) ، كما أهدانى صندوقا أنيقا يحتوى على اثنى عشر موسى للحلاقة ذات مقابض فضية . وافترقنا كخير صديقين !

(مذكرات كازانوفا)

بركات الأسقف !

والتقيت أخيرا بأسقف (مارتورانو) الذى سعيت وراءه طويلا ، فاستقبلنى فى ود بالغ واحتضننى فى حنان .. وسرعان ما لمست أنه كان فى ضيق ، إذ كان مضطهدا من الرهبان ، وكان مرتبه ضئيلا .. وقد أبدى أسفه إذ جشمنى مشقة الحضور ، وأبدى استعداده لأن يرسلنى إلى البندقية ثانية .. وأسلمنى خطاب تقديم إلى طبيب وجيه من أهل (نابولى) سأله أن يعطينى ستين « دوكا » — وهى عملة ذهبية إيطالية — كما زودنى بخطاب إلى أسقف (كوسنزا) سأله فيه أن يدبر لى سفرا إلى نابولى دون أن أتكبد شيئا .. فأهديته بدورى الاثنى عشر موسى .. وودعنى باكيا وهو يضفى علىّ بركاته ، فرحلت إلى (كوسنزا) حيث أكرمنى أسقفها ، واستضافنى يومين ..

وفى اليوم الثالث أرسلنى إلى « نابولى » بعد أن زودنى برسالة توصية إلى « جينوفيزى » ، الباحث الدينى ذائع الصيت ..

ووصلت إلى (نابولى) فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٤٣ ، فبادرت بتقديم الرسالة التى زودنى بها أسقف (مارتورانو) إلى الطبيب الذى سيعطينى مبلغ الستين « دوكا » ، فأصر على أن أنزل ضيفا عليه ، حيث أعد لى فراشا فى غرفة ابنه .. وكان فتى مليحا فى الرابعة عشرة من عمره ، يجيد قرض الشعر ..

وعلى مائدة العشاء فى اليوم التالى ، قدمنى مضيفى إلى « جينوفيزى » الشهير بأبحاثه الدينية .. وسمع أحد أهالى نابولى بأن اسمى يشبه اسمه — إذ كان

يدعى « الدون أنتونيو كازانوفا » — فسعى إلى مقابلتى لدى مضيفى ليسألنى عن نسبى ، فما أن ذكرته له حتى احتضننى وهو يدعونى بابن العم .. وأصر على أن يدعونى وصديقى الصغير « بول جينارو » — ابن مضيفى الطبيب — إلى الغداء على مائدته فى اليوم التالى ..

ثروة .. من برميل نبيذ !

وسألنى « ابن العم » — حين وافيناه فى داره — عما دعانى إلى زيارة (نابولى) ، فأنبأته بأننى أعد نفسى لأكون من رجال الدين ، وأننى فى طريقى إلى روما حيث سأجرب حظى .. وإذ ذاك رغب فى أن يقدمنى إلى دوقة « بوفينو » .. وكان « بول جينارو » قد أعد لها قصيدة عرضها علىّ حين التقى بى لأول مرة ، فعدلت من بعض أبياتها ، وكتبت قصيدة من بحر آخر فى نفس المعنى .. ولكننى اعتذرت لقريبى بأننى لا أحمل معى ثيابا تليق بمقابلة علية القوم ، وإلا لذهبت لتقديم القصيدة بنفسى إلى الدوقة ، فقال : « إننى غنى .. ويجب ألا تتردد فى أن تصحبنى إلى حائك ثيابى .. » .

وفى اليوم التالى كانت لدىّ الثياب التى تليق بقس شاب . فصحبنى ابن العم إلى الدوقة ، التى أهدتنى علبة سعوط من الصدف ، وأبدت إعجابها الزائد بقصيدتى .. وما إن غادرنا قصرها حتى استأذنت من قريبى وسعيت إلى دار التاجر اليونانى الذى خدعته ، فقدمت الخطاب الذى أوصى لى فيه ببرميل نبيذ ، وسألت وكيله أن يقسمه على قنينتين كبيرتين ، أرسلت إحداهما إلى ابن عمى ، والأخرى إلى مضيفى .. فأهدانى ابن العم عصا ثمينة ذات رأس ذهبية ، وثوبا للسفر ، ومعطفا أزرق موشى بالقصب ..

ولو أن القدر كتب لى البقاء فى (نابولى) لحظيت برفاهية ونعيم ، ولكن حظى كان يدعونى إلى روما ، فزودنى مضيفى بخطاب تعريف إلى الكار دينال « أكوافيفا » والأب « جيورجى » ، من علية القوم .. كما أهدانى ساعة ذهبية بديعة ، وأسلمنى رسالة توصية إلى صديق حميم له يدعى « دون جاسبار فيفالدى » .

وإلى هذه كلها ، ضممت الستين « دوكا » التى تقاضيتها منه عند وصولى ، ثم غادرت نابولى ..

أزيز السرير يضيع علىّ الفرصة !

وما أن تحركت العربة حتى رأيت إلى جوارى سيدا بشوش الوجه فى حوالى الخمسين من عمره .. أما أمامى ، فرأيت وجهين جميلين لسيدتين رشيقتين ، فى مقتبل العمر .. وأدركت أن السيد محام ، وأن إحدى السيدتين زوجته — ولكنى لم أدر أيهما الزوجة ! — وفى اليوم التالى ، دار بيننا حديث ، فهمت منه أيهما كانت الزوجة .. وإذ أدركت أنها تعجب بالرهبان من أتباع مذهب « الكابوشان » ، فقد زعمت أننى منهم ! .. وفى اليوم الثالث ، سألتنى السيدة عما إذا كنت أزمع أن أطيل مقامى فى (روما) ، فقلت إننى سأعجل بالرحيل إلى البندقية ، إذ أن عدم وجود معارف لى فى روما كان كفيلا بأن يسئمنى ، وأردفت متسائلا : « هل آمل أن تسمحوا لى بأن أزوركم لأقدم لكم احتراماتى ؟ » .

فأجاب المحامى : « لسوف يشرفنا أن تزورنا » .

وكان علينا أن نقضى الليلة الثالثة من رحلتنا فى (مارينو) ، حيث أفردت

لنا حجرتان صغيرتان فى فندق بالبلدة .. وفيما كنا نتناول الحلوى فى نهاية العشاء ، قالت الزوجة الجميلة لزوجها المحامى ، إذ لمحت علبة سعوطى الصدفية ، إنها تتوق إلى علبة مثلها .. فقلت للرجل : « تستطيع أن تبتاع علبتى على أن تعطينى الثمن سندا قابل الدفع لحامله ، إذ أننى أريد أن أسد به دينا لسيد إنجليزى » ، لكنه أصر على أن يدفع الثمن نقدا . وعندما عرضت السيدة أن تكتب لى السند الذى طلبته ، قال المحامى : « أؤكد لك أن لا سيد إنجليزى هناك ، وإن صديقنا يتحايل ليعطينا العلبة دون مقابل .. لا تثقى بالقس يا عزيزتى ، فهو مخادع كبير » .

فأجابت وهى ترمقنى : « ما كنت أحسب أن فى الدنيا مكارا بهذا الشكل ! » .

وكانت الحجرتان اللتان أفردتا لنا متصلتين ، وليس من باب بينهما ، فلجأت السيدتان إلى الغرفة الداخلية منهما .. وتشاطرت والمحامى السرير الذى كان فى الغرفة الخارجية ، وقد انتويت أن لا أنام الليل ، إذ أضمرت فى نفسى أمرا !

وليتصور القارئ ويرى حنقى ، حين هممت بأن أتسلل من السرير .. فإذا به يحدث أزيزا عاليا يوقظ الموتى ، نتيجة لحركة خفيفة صدرت منى فى نهوضى !

لكن القدر كان يدبر لى تعويضا سخيا عما فاتنى ؟

مغامرات كازانوفا فى روما !

إن الحب أكثر الآلهة مكرا ودهاء ، ولا تتجلى عبقريته قدر ما تتجلى وسط الصعاب والعراقيل .. ولما كان مجرد وجوده يتوقف على إمتاع أولئك الذين يتفانون فى عبادته ، فإن هذا الإلـٰه ينتزع النجاح من أعماق الحالات المحفوفة باليأس .. ويخلق المناسبات والملابسات التى تحقق هذا النجاح !

.. كنت قد فقدت كل أمل فى أن أظفر فى تلك الليلة بطائل من فاتنتى التى فى الغرفة المجاورة ــ « لوكريزيا » ــ لولا أن فوجئنا بطلقات البنادق فى الطريق ، فى بهيم الليل ، وصراخ الناس ، ثم انبعثت طرقات مدوية على الباب ..

وتظاهرت بعدم الاكتراث ، وبقيت فى فراشى ، بينما صاحت السيدتان تطلبان ضوءا ، فقفز الزوج من السرير وغادر الغرفة ينشد شمعة .. وإذ ذاك بادرت فدفعت الباب خلفه ، وإذا به يغلق بشدة بحيث لا يتسنى فتحه بغير المفتاح !.. ثم سعيت إلى السيدتين أهدئ من روعهما ، ولم أقابل بمقاومة تذكر ، ولكن السرير لم يحتمل ثلاثتنا ، فلم نلبث أن وجدنا أنفسنا على الأرض .. وكان الزوج قد عاد وأخذ يطرق الباب ، فابتعدت عن السيدتين ، وأنبأته بأن لا سبيل إلى فتح الباب .. وبعد حين أقبل الزوج بالمفتاح ، فضحك إذ رأى سرير السيدتين منهارا .. ثم أنبأنى بسر الجلبة ، فقد هاجمت فصيلة من الجنود الألمان القوة الأسبانية بالمدينة واضطرتها إلى الفرار ..

وبلغنا روما ، فدخلتها ومعى طائفة من الثياب الأنيقة ، ومالا ، وخبرة ،

وخطابات تقدمه لسادة من علية القوم .. ولم أكن مفرط الجمال ، ولكنى أوتيت شيئا خفيا يستدر عطف من يعرفنى ، ويستميله إلىّ .. وكنت أعرف أن روما هى المدينة التى يستطيع فيها المرء أن يبدأ من الحضيض ويرقى إلى القمة ، ما دام قادرا على أن يشكل حياته وفقا للظروف ، فيلبس لكل حال لبوسها ، ويروض نفسه على شيء من الدهاء ، وكثير من الصبر والجلد ، ويحرص على سعة الحيلة واستغلال الذكاء .. ويتظاهر بالتقوى فى كل الأحوال !

وبدأت بتسليم رسالة التوصية التى كنت أحملها إلى الأب « جورجى » — وكان راهبا عالما يتمتع باحترام الجميع فى روما ، حتى « البابا » نفسه ! — وما أن قرأ الرسالة حتى تطوع لأن يجعل من نفسه مسسارا وناصحا لى ، وسألنى أن أتردد عليه كثيرا ، وأن لا أخفى عنه شيئا من أمرى ، ولا مما يجرى لى .. وما أن غادرت داره ، حتى سعيت إلى (كامبو دى فيورى) ، لأقابل « الدون جاسبار فيفالدى » — الذى أعطانى ابن عمى رسالة إليه — ورحب بى الرجل ودعانى لتناول العشاء معه فى اليوم التالى ، على أن يسلمنى إذ ذاك مبلغا سأله ابن عمى أن يدفعه لى .. » .

****

وسمع « كازانوفا » تذمر الناس فى روما من « البابا » ووزيره الكاردينال ، وسياستهما التى أدت إلى أن احتل الدولة البابوية ثمانون ألفا من الألمان والأسبان ! وفى اليوم التالى — وكان أول أكتوبر سنة ١٧٤٣ — قدم الشاب رسالة التوصية الأخرى التى كان يحملها إلى الكادرينال « أكوافيفا » ، الذى نصحه بأن يدرس الفرنسية إن شاء أن يبرز فى دنيا السياسة ، وعهد به إلى راهب برتغالى فى الأربعين من عمره يدعى « جاما » ، فبادر الراهب بأن أعد له

مسكنا وعهد بتعليمه الفرنسية إلى مدرس من روما يدعى « دالاكا » ..

واستطاع « كازانوفا » أن يتصل بحبيبته وزميلة رحلته « لوكريزيا » — زوجة المحامى — وأن يتقرب إلى أمها ليخفى حقيقة علاقتهما .. وكانت هذه العلاقة هى الشيء الوحيد الذى كتمه عن الأب « جورجى » !

القلب عدو العقل

« قال الأب يحذرنى : « تذكر دائما أن لا بد لك من كبح شهواتك إن شئت أن تحيا حياة بعيدة عن النقد .. لقد سمعت عن صلتك بأصدقاء رحلتك ، وأشهد أنهم من أسرة محترمة ، لا يغشى دارها سوى الأشراف ، ولكنك لا ينبغى أن تكثر من التردد عليها بحيث تغدو زائرا منتظما .. مالك تتنهد يا بنى ؟ .. أيشعر قلبك بعناء ؟.. يجب أن تتغلب على قلبك إذا دعت الضرورة ، واذكر أن القلب عدو للعقل ! » .

قلت أجادله : « ولكن من الممكن التوفيق بينهما » .

— كثيرا ما نخال ذلك ، ولكنك تعلم أن لا سبيل إلى حياد بينهما !

وأحسست بتعاسة ، فشددت على يده وألصقتها بشفتى ، ولكنه ضمنى إلى صدره ، بحنان الأب ، وأشاح بوجهه حتى لا أشهد دموعه ..

****

ودعا الراهب « جاما » كازانوفا إلى مقهى سمع فيه حملات صغار الرهبان على الحكومة ، ومطاعنهم فى « البابا » .. كما رأى فيه صورا من تبذلهم .. وما لبث أن زاره المحامى زميل السفر ، وزوج « لوكريزيا » ، ودعاه إلى قضاء يوم مع الأسرة فى الريف ، يتعرف خلاله على « دون فرانشيسكو » خطيب أخت

« لوكريزيا » ، الذى كان معجبا بأشعاره .. وكان من حظ « كازانوفا » أن يشاطر الزوجين عربتهما ، بينما استقلت « دونا سيشيليا » — أم « لوكريزيا » — وابنتها الأخرى « إنجيلكة » وخطيبها ، عربة ثانية .. وسعد العاشق الشاب بجوار حبيبته خلال الرحلة التى تمنى لو طالت ، لكنه صدم إذ تبين بعد نصف ساعة أنهم وصلوا إلى غايتهم !

على أنه فى العودة لم يضيع الوقت سدى !

وذهب فى اليوم التالى إلى « دالاكا » مدرس اللغة الفرنسية ، وكانت للرجل ابنة جميلة تدعى « باربارا » ، أحبت شابا صادف هوى من نفس « كازانوفا » ، بيد أن خادما وشى إلى الأب بغرام ابنته فحبسها وطرد حبيبها ، الذى كاد ينتحر ، لولا أن تطوع « كازانوفا » بأن يكون رسولا بينه وبين « بربارا » .. وفى تلك الأثناء ، كانت القضية التى حملت زوج « لوكريزيا » على الحضور إلى روما قد أوشكت على الانتهاء ، وأخذت الزوجة العاشقة تخشى أن يحين الفراق !

اللقاء الأول مع البابا ..

« وأصيب مسيو « دالاكا » بمرض شديد ، فتولت ابنته عنه إلقاء الدرس عليّ .. وإذ هممت بالانصراف ، دست فى جيبى وريقة ، كانت مليئة بالشكر الحار ، ثم برجاء أن أخبر فتاها بأن أباها سيستأجر خادما غير الذى وشى بهما ، بمجرد أن يشفى .. وقد تحقق ذلك فعلا ، وسرعان ما كسبت « بربارا » الخادم الجديد إلى صفها .. ولم أعد بحاجة إلى أن أتورط فى مغامرة العاشقين .. ولكن الخلاص جاء متأخرا ، كما سيبدو فيما بعد !

وأخذت أتردد فى كل مساء على دار الأب جورجى ، فتعرفت بضيوفه الذين أكبرونى كواحد من خاصته ، واكتسبت دراية بما كانوا يتجاذبون من أحاديث سياسية وأدبية .. كذلك اعتدت أن أحضر مجالس أستاذى الكاردينال « أكوافيفا » ، بحكم الواجب .. وكانت ألمع نجوم مجلسه « المركيزة جـ .. » وهى سيدة فاتنة ، عالية المقام ، استدرجونى ذات مساء إلى أن أجهر بتقديرى لجمالها . وقد اعتادت فى كل مساء أن توجه إلىّ ــ وهى تلعب الورق ــ بضع ملاطفات بالفرنسية ، فأجيبها بالإيطالية ، غير مكترث لضحك القوم ..

وذات مساء ، أوعزت إلى الأب « جاما » أن يدعونى إلى المكان الذى كانت تقف فيه مع الكاردينال ، فلما اقتربت منها ، فاجأتنى بأن وجهت لى بالإيطالية سؤالا كان بعيدا تمام البعد عن خاطرى : « كيف تمتعت برحلتك إلى الريف ؟.. كانت زميلتك أجمل من المناظر .. وكان غريمك بارع

الذكاء ! » .

فاكتفيت بأن انحنيت لها ، وإذ ذاك قال الكاردينال فى رفق : « هل أدهشك أن كشفت أنباء مغامرتك ؟ » .

ــ لا يا مولاى ، وإنما أذهلنى أن يتحدث الناس عنها .. فما كنت لأصدق أن روما تشبه القرى الصغيرة فى سريان الأقاويل !

ــ كلما طال بك المقام فى روما ، ألفيتها تزداد شبها بالقرى الصغيرة .. أوَلم تحظ بعد بتقبيل قدم الأب القدسى (البابا) ؟

وأنبأنى الأب « جاما » بأن علىّ أن أتقدم للقاء البابا فى اليوم التالى ، وأردف قائلا :

« أوَلم تدع إلى قصر المركيزة « جـ .. » من قبل ؟.. إن بأبيبها مفتوحان للجميع .. » .

ــ وهل تراها ستستقبلنى أو ترانى هناك ؟

ــ بكل تأكيد ..

وحظيت فى اليوم التالى بلقاء « البابا » ــ « بندكت العاشر » ــ على حدة ، فركعت وقبلت الصليب المقدس . وإذ أعلنت اسمى ، قال لى إنه سمع عنى ، وهنأنى على أن ظفرت بأن أكون تلميذا للكاردينال العظيم .. ووجدتنى أطمئن إليه ، فأروى له الكثير عن المتاعب التى تجشمتها فى القدوم إلى روما والفوز بهذه التلمذة ، فأبدى قداسته استمراء للرواية ، وتلطف فقال إنه سيسر بأن يرانى ، كلما تقدمت ملتمسا لقاءه .. وإذ ذاك سألته أن يأذن لى بقراءة جميع الكتب المحرمة على التلاميذ ، فسمح لى بذلك ، ووعدنى بأن يسجل الإذن بالكتابة ، ولكنه نسى .. وكان البابا عالما ، مفرط اللطف ، شغوفا بالفكاهة . وعندما قابلته مرة أخرى فى « فيلا ميديتشى » سألته بأن

يحلنى من تحريم اللحم فى طعامى ، فأذن لى ..

واستجبت لتوجيه الأب « جاما » ، فذهبت إلى قصر الماركيزة الحسناء ، فى الوقت الذى اعتادت أن تستقبل فيه ضيوفها ، ولكن أحدا لم يحفل بى .. وبعد خمسة أيام أو ستة ، قالت لى الماركيزة ، فى لهجة المتفضلة ، إنها لمحتنى فى قاعة الاستقبال بقصرها ، ودعتنى إلى أن أكثر من زيارتها !

ليلـــة ليـــلاء !

وفى صباح أحد الأيام الأخيرة من نوفمبر ، دعيت إلى قضاء يوم مع « لوكريزيا » وزوجها المحامى ، وإنجيلكا وخطيبها ، والأم « دونا سيشليا » .. وكانت الأرملة الفاتنة قد حدست حبى لابنتها ، فأبدت سرورها .. وقضينا يوما حافلا بالنشاط والتنقل ، فلما أوينا إلى البيت فى المساء ، وجدنا فى انتظارنا عشاء دسما ، وخمورا معتقة .. وقالت لوكريزيا إنها ستنام مع أختها فى حجرة تفضى إلى بستان البرتقال !.. فلما اطمأننت إلى نوم الجميع ، تسللت إلى تلك الحجرة ، بعد أن قضيت ساعة أتجسس على الأختين وهما تنضوان عنهما ثيابهما ، وتبديان ما خفى من فتنتهما ، قبل أن تأويا إلى السرير .. وحرصت لوكريزيا على أن تنام فى الجزء المواجه للباب .. وسرعان ما تسللت إلى أحضان عشيقتى ! وفطنا أخيرا إلى بزوغ الشمس ، فتسللت عائدا إلى غرفتى .. وبعد لحظات ، سمعت صوت الزوج فى غرفة المرأتين يوقظهما ، ثم جاء يوقظنى ، ويهددنى ضاحكا بأن يدعوهما إلى الغرفة إن لم أبادر بمغادرة السرير !

غزو « قلب المركيزة » !

وسافر الزوجان بعد ثلاثة أيام أو أربعة — إذ انتهت القضية التى حضر الزوج من أجلها — فشعرت بوحشة كتلك التى تكتنف قلب الشاب وهو بعد فى المرحلة التى تجعله يميل إلى التشبث بحبيبة واحدة .. وعكفت على دروس الفرنسية ، حتى امتدح الكاردينال هذا الجد منى ، وأصر على أن لا أرهق نفسى فى الدراسة .. وكانت الماركيزة حاضرة ، فأشارت إلى أننى ولا بد أجد فى الدرس عزاء بعد رحيل « لوكريزيا » !.. فقلت مجيبا : « اعترف صراحة يا سيدتى بأننى افتقدتها وحزنت لبعادها ، ولكن صداقتى لها كانت بريئة » .

— لست أرتاب فى ذلك ، وإن كنت قد سمعت قصيدة لك فيها تنم عن هوى مبرح ..

وهنا قال الكاردينال فى لطف : « ليس بوسع شاعر أن ينظم الشعر دون أن يدعى الهوى » ..

فأخرجت الماركيزة ورقة دفعت بها إليه قائلة : « هاك القصيدة .. وأشهد أن الأوساط الأدبية فى روما أجمعت على أنها من روائع الشعر ! » .

وعرض عليها الكاردينال أن تترجمها إلى الفرنسية ، فقالت إنها لا تجيد بالفرنسية سوى النثر .. أما الشعر ، فيحلو لها أحيانا أن تنظم مقطوعات خفيفة منه بالإيطالية .. وقدم لى الكاردينال آخر قطعة من نظمها ، فدسستها فى جيبى ، واعدا بأن أقدرها فى روية . وانصرفت وقد استيقظ غرورى وأصبحت أرى نفسى شيئا مذكورا .. بل لقد أحسست عن يقين بأننى غزوت قلب الماركيزة !.. لذلك سولت لى نفسى حين قرأت القصيدة ، أن

أكتب بوحيها قصيدة أخرى .. ومن المستحيل على الشاعر أن يحجم عن النظم إذا أشرق على خياله موضوع بهيج ، فإن النار الشاعرية التى تجرى فى عروقه لن تلبث أن تتحول فتحرقه هو !

* * *

وفى الليلة التالية ، أطلع الكاردينال كازانوفا على عشر قصائد غنائية أخرى للماركيزة ، رغم أنها كتبت بوحى من حبه .. وتشبث كازانوفا بأهداب الحكمة والتروى .. وسأله الكاردينال أن يكتب بدوره عشر أراجيز فورا ، فاستمهله يوما .. وما لبثت الماركيزة أن أقبلت ، فأثارت فى نفس الشاب شتى العواطف .. وما أن استمعت إلى قصيدته التى نظمها بوحى قصيدتها ، ولاحظت أنه التزم عين البحر والقافية ، حتى رمته بنظرة أجهزت على ما تبقى من حجاه واتزانه .. وأقبل على القصائد العشر التى طلبها الكاردينال فوفق فيها إلى درجة دعت الكاردينال إلى أن يهديه علبة سعوط من الذهب المموه بالميناء الدقيقة ، فى مقابل أن يسمح له بأن ينسب الشعر لنفسه !.. وفى مساء ذلك اليوم ، تناول كازانوفا العشاء مع الكاردينال والماركيزة ، على مائدة بسطت إلى جوار سرير الكاردينال .. وما لبثت الماركيزة أن أقبلت ، وأبدع الشاب فى إلقاء الشعر حتى انتشى الكاردينال ، وتضرجت وجنتا السيدة .. ومنذ ذلك اليوم ، أخذت تولى كازانوفا رعاية خاصة ، جعلته يرتقب الفرصة فى عيد الكرنفال .. وفى تلك الأثناء ، لقى الشاب من تقدير البابا والكاردينال ما حملهما على أن يفكرا فى أن يعهدا إليه بمنصب هام .. ولكنه فوجئ ذات يوم بزيارة غير متوقعة من عشيق بربارا ، ابنة مدرس اللغة الفرنسية !

تحاول الفرار .. متنكرة فى زى راهب !

« كان الشاب يحمل رسالة من فتاته تقول له فيها إنها حامل ، وإنها قد قررت أن تفر قبل أن يكتشف أبوها أمرها .. وسألنى رأيى ، فنصحته بأن يبادر إلى الزواج منها ، برغم أبيه وأبيها !

وفى أول يناير سنة ١٧٤٤ ، جاءنى يعلن أنه قد أحكم تدبير الخطة للفرار بفتاته إلى (نابولى) .. وغاب أسبوعا ، وفى الساعة الحادية عشرة من إحدى الليالى ، ولج غرفتى وبصحبته راهب ، لم ألبث أن تبينت أنه كان « بربارا » متنكرة !.. وقد جاءا يطمئنانى إلى أن كل شىء فى خطتهما قد اكتمل .. وبعد أربعة أيام ، أنبأنى الأب « جاما » بأن « البابا » قد أذن للبوليس بمهاجمة بيت يقيم فيه عاشقان فرا من أهلهما ، وقد حدد منتصف الليل لهذه الحملة .. فأزعجنى هذا النبأ !

وعند منتصف الليل ، فوجئت وأنا أهم بأن أندس فى فراشى ، براهب يقتحم غرفتى لاهثا .. وعرفت فيه « بربارا » ، فكدت أجن وأنا أستعرض النتائج التى قد تحيق بها وبى .. ورأيت من واجبى أن أبادر بإقصائها عن غرفتى ، ولكنها ألقت بنفسها على قدمى وراحت تتوسل إلىّ أن أساعدها ، وكانت دموعها تذيب أقسى القلوب .. وعلمت منها أن تلك الليلة كانت موعد الفرار ، وأن البوليس قد اعتقل فتاها وخادمتها وهما ينتظرانها فى العربة التى كانت معدة للرحلة !

وأذاب أساها جمودى ، فظللت ساهرا أفكر فى حل ، حتى إذا جاء

الصباح ، تركتها فى حجرتى بعد أن أوصدت الباب من الخارج ، وانطلقت أتشمم الجو ، فلمحت عددا من الجندين منبثين حول القصر . ويممت فى عودتى شطر مسكن الأب « جاما » ، فعلمت منه أن « الأب » النائب العام ، قد أرسل يلتمس الترخيص له بتفتيش القصر !.. وإذ ذاك أسرعت إلى الفتاة ، وأمليتها الرسالة التالية بالفرنسية : « أنا فتاة شريفة يا صاحب القداسة ، وإن تنكرت فى زى راهب ، وإنى أهيب بنيافتكم أن تسمحوا بأن لا أفضى باسمى إلا إليكم وحدكم ، فإنى آمل — لما لنيافتكم من طيبة نفس وصلاح عظيم — أن تنقذونى من العار ! » .

وإذ كتبت هذه الرسالة ، وعدت بأن أدبر أمر توصيلها إلى الكاردينال ، أردفت قائلا لمحدثتى إن عليها أن تلقى بنفسها على قدميه ، وتفضى بكل قصتها على حقيقتها ، فيما عدا قضائها ليلة فى غرفتى !.. وفعلا ، استطعت أن أبعث بالرسالة إلى الكاردينال دون أن أكشف عن أية علاقة لى بها ، وبذلك أخليت السبيل للفتاة .. حتى إذا فرغنا من العشاء فى تلك الليلة ، استدرجت الأب « جاما » ، فعلمت منه أن الكاردينال « أكوافيفا » كان قد أصدر أمره بالإذن للسلطات المدنية بتفتيش قصره ، ولكنه تلقى رسالة جعلته يوقف هذا الإذن .. وما لبث أن سمح للفتاة الهاربة المتنكرة فى زى راهب بأن تمثل بين يديه ، حتى إذا سمع قصتها ، قرر أن يحميها ، وأنزلها فى جناحه الخاص ، ووضعها تحت وصايته ، بحيث لا يتاح لأحد — ولا البابا نفسه — أن يمسها بسوء !

وفى اليوم التالى جاءنى الأب « جاما » يقول إن الأب النائب العام عرف أن الفتاة كانت صديقة لى ، إذ كان أبوها مدرسى ، ومن ثم فقد حدس أنها قضت الليلة فى غرفتى . ولكنى أنكرت فى لهجة حاسمة .. حتى إذا انفضضنا عن

العشاء فى تلك الليلة ، أخبرنى بأن الكاردينال أرسل الفتاة إلى دير تحظى فيه بالرعاية على نفقته ، إلى أن يتم زواجها من فتاها .

وإذ زرت الأب « جورجى » بعد يومين ، أثار الموضوع ، قائلا إن أهل روما بأسرها يعتبروننى مدبر الخطة للفتاة ! ولكنه ما لبث أن صدق إنكارى .. وما أن بدأت الضجة التى أثارها الحادث تخفت ، حتى استدعانى الكاردينال ، وقال إن الرأى العام يتهمه ويتهمنى بأننا عاونا الفتاة ، وإنه لا يعبأ بذلك ، ولو كان فى مكانى لأقدم على عين ما أقدمت عليه .. ولكنه مع ذلك لا يجرؤ على تحدى الرأى العام ، ومن ثم قرر أن يقصينى عنه ، وأن يرسلنى بعيدا عن روما ، وسيزعم — حرصا على كرامتى — أنه أوفدنى فى بعثة هامة ، كما أنه يترك لى اختيار أى بلد أحب الذهاب إليه ، واعدا بأن يوصى بى من قد يكون له من أصدقاء هناك ، وبأن يكتم اسم البلد عن كل شخص ..

وكتمت الأمر عن الأب « جاما » ، وزعمت أن الكاردينال اختارنى لمهمة خاصة .

مغامرات .. فى القسطنطينية

وكانت مغادرة روما شاقة على نفس « كازانوفا » .. واختار (القسطنطينية) ، فأعد له الكاردينال جواز السفر ، وأعطاه رسالة توصية إلى حاكم « قرمانيا » التركى ، كما أعطاه سفير البندقية فى روما رسالة توصية أخرى إلى أحد الأتراك من ذوى الجاه .. وتلقى كازانوفا من الكاردينال كيسا به مائة أوقية من الذهب ، كما كان قد ادخر حوالى نصف أوقية أخرى .. وبارح روما ، فبلغ (أنكونا) فى ٢٥ فبراير سنة ١٧٤٤ ، ونزل فى خير فنادقها ، وهناك تعرف به رجل يدعى « سانشيو بيكو » ، دعاه إلى سماع الموسيقى فى غرفة تجاور غرفته ، حيث وجد سيدة متقدمة فى السن ، وفتاتين صغيرتين ، إحداهما فى الثانية عشرة وتدعى « سيشيليا » — وكانت تدرس الموسيقى — والأخرى تصغرها بعام وتدعى « مارينا » ، وكانت تدرس الرقص فى الأوبرا ، يزاملها شقيق مليح ، وسيم ، يصغرها يدعى « بلينو » .. وقد حدس « كازانوفا » أن الفتى لجماله كان يقوم بأدوار نسائية فى الأوبرا .

ذو الصوت الملائكى !

« وعزف الفتى « بلينو » على العود ، وغنى بصوت كأصوات الملائكة ، وصديقى ينصت فى نشوة وقد أغمض عينيه ، بينما كنت أحملق فى الفتى مفتونا ، وقد خلت أن جمال صديقتى « لوكريزيا » والماركيزة قد اجتمع

فيه .. بل لقد وقر فى نفسى أنه لا يمكن إلا أن يكون فتاة متنكرة فى زى رجل !.. فقضيت ليلى أحلم بهذه الفتنة .. وشد ما كان سرورى حين رأيته يلج غرفتى فى الصباح ، وقد جاء يعرض علىّ خدمات أخ له يصغره يدعى « بيترونيو » كى يرافقنى خلال إقامتى .. ثم أقبلت أختاه ، فإذا ثلاثتهم يشيعون حولى جوا من البهجة والطرب .. كانت « سيشيليا » و « مارينا » زهرتين غضتين بدأت أكمامهما فى التفتح ، وليس ينقصهما سوى إلهام الحب وسحره .. وما لبث أن أقبل الأخ الأصغر « بيترونيو » يحمل القهوة ، فإذا هو من الخلاعة والمجون بحيث يدرك المرء للوهلة الأولى أنه محترف ! — وهذا النوع من المخنثين ليس نادرا فى إيطاليا — وقد أظهر الفتى من الخلاعة ما جعلنى أسبه ، فما خجل أو استحى !

وأمرت بغداء لى ولبلينو والفتاتين ، فأقبل صاحب الفندق ينذرنى بأن كلا من ضيوفى يأكل قدر شخصين ، ومن ثم فسأتكلف ضعف النفقات !

وسعيت إلى غرفة الأم أجاملها ، فشكت لى جشع مدير المسرح الذى يعملون فيه ، فنفحتها ببعض المال .. وفيما كانت تشكرنى ، قلت لها : « أعدك بأن أمنحك قدرا آخر إذا صارحتنى بحقيقة « بلينو » .. أهو حسناء متنكرة ؟ » .

— أؤكد لك أنه ولد .. وقد تعرض للفحص قبل أن يسمح له بالغناء على المسرح .. فحصه مساعد الأسقف !

* * *

وفى ليلتين متواليتين ، أدخلت الفتاتان على نفس كازانوفا بهجة ، وبادلتاه الغرام ، بتشجيع من أمهما .. ولكنه ظل فى حيرة من أمر « بلينو » ، لا يصدق أنه غلام ، ولا يكاد يتغلب على افتتانه بجماله ورقة صوته .. وذات يوم ، دعى

الفتى للغناء فى أوبرا (ريمينى) ، فاستأجر كازانوافا عربة ، ورافقه فى الرحلة ، تاركين بقية أفراد الأسرة فى (أنكونا) .. وفى الطريق ، أخذ كازانوفا يتغزل فى الفتى ، مصرًا على أن يعرف حقيقته .. وإذ ذاك بكى الفتى وأظهر الغضب ، وأبدى رغبة فى مغادرة العربة ، فكف كازانوفا عن مسلكه ..

العين الخبيرة لا تخطئ !

« وبقيت واجما ، حتى غدونا على نصف الميل من (سينجاجليا) حيث كنت قد اعتزمت أن نقضي ليلتنا ، وإذ ذاك قلت له : « كان بوسعنا أن نقضي فترة سعيدة فى (ريميني) لو أنك أبديت شيئا من الود .. ففي وسعك أن تبرئني من لوعتي بقليل من اللطف » .

ـــ لن تشفى من وجدك ، سواء كنتُ رجلا أو امرأة ، لأنك أحببتني دون أن تكترث لجنسي ، أذَكر أنا أم أنثى ؟!

ـــ أنت تخدعني ، فإنني لا يمكن أن أحس بالحب إلا نحو امرأة !

وقصدنا إلى أفخم فندق فى (سينجاجليا) ، فلم نجد سوى غرفة واحدة .. فلم يكن ثمة بد من أن ننام معا .. وتقبل الفتى النبأ فى هدوء ، أوحى إلى أنني مقبل على ليلة غرام حارة !.. ولكنني كنت مخطئا فى حدسي .. كانت الليلة أكثر من « حارة » .. كانت ملتهبة .. كانت نارا مشبوبة ، أتت على كل أشجاني السابقة .. وكانت النشوة التي استمرأتها عارمة ، أنستني الدنيا وما فيها .. نشوة ما زالت دمائي تغلي فى عروقي لذكراها رغم تقدم السن بي !.. وقالت أخيرا ـــ (فما أظنك إلا أدركت أيها القارئ أن « بلينو » لم يكن سوى فتاة) : « هل ارتويت يا حبيبي ؟.. وهل وجدتني صادقة الحب لك ؟.. الآن أنصت ، فسأروي لك كل شيء : إنني أدعى « تيريزا » ، وكان والدي كاتبا فقيرا فى معهد (بولونيا) ، أجر غرفة فى بيته لممثل ومطرب مشهور ، أغرم بي ، وعبثت مغازلاته بعقلي .. وكنت لم أتجاوز الثانية عشرة من عمري ، حين عني

بتعليمى الموسيقى ، وبترويض صوتى .. وكان جزاؤه أن نال منى وطره .. وكان له من الجمال ، والمواهب ، وارتفاع الشأن ، ما جعلنى أعبده .. وفى تلك الأثناء ، كان يتولى تدريب صبى فى مثل سنى هو ابن السيدة التى رأيتها فى (ريمينى) ويدعى « بلينو » . وحدث بعد حوالى العام من استسلامى للمطرب — وكان يدعى « ساليمبيرى » — أن اضطر للرحيل إلى روما ، فلما رأى دموعى وأساى — سيما وأن أبى كان قد مات — قرر أن يأخذنى معه من (بولونيا) إلى (ريمينى) لأقضى فترة بصحبة « بلينو » .. ولكننا لم نكد نصل إلى هناك حتى وجدنا أن الصبى مات فى اليوم السابق !.. وإذ ذاك خطر له أن يدعنى فى رعاية الأم المحزونة ، وأن أتزيى بزى الغلمان وأنتحل اسم « بلينو » ريثما أستكمل تعليمى الموسيقى ، ثم يأخذنى إلى بولندا ، لأكون « ممثلا ومطربا » فى بلاط ملكها ، ونعيش معا فى مأمن من الفضيحة والعار !

وكان الأمر لا يتطلب أكثر من أن أنبذ جنسى وأنكر نزوات الأنوثة وأحاسيسها .. ودبر الأمر فعلا مع أم « بلينو » ، وحرصا كلاهما على كتمان كل شىء ، وعلى أن تكون لى غرفة خاصة ، تغدو حرما مقدسا حتى بالنسبة لابنتى السيدة وابنها الآخر ، الذين لم يعلموا شيئا عن حقيقة جنسى كأنثى !!

.. ولكننى لم أر صاحبى المطرب بعد ذلك ، إذ مات فى روما .. واضطررت إلى أن أكسب عيشى بمواهبى الموسيقية ، فنصحتنى أمى المزعومة بأن أظل منتحلة شخصية الفتيان .. وها أنتذا أول رجل بعد « ساليمبيرى » يعرف سر أنوثتى !.. والحق أننى أحببتك لأول وهلة ، ولكننى خشيت أن تكون عاطفتك نحوى نزوة عابرة ، فتركتك تلهو مع « سيشيليا » و « مارينا » ، وتمنعت عليك . ولكنك بإصرارك على ملازمتى ، أثبتّ لى أن وجدك نحوى ليس نزوة .. » .

واقترح عليها « كازانوفا » أن تتخلى عن تنكرها ، على أن يتزوجها ، ويتركها تمارس فنها المسرحى والموسيقى .. وارتضت الفتاة أن تتزوج منه ، وأن ترافقه إلى القسطنطينية .. بيد أنهما فى الطريق ، فوجئا ببعض الجنود يتفقدون المسافرين ، وكان مع الفتاة جواز سفر ، فتركوها تواصل رحيلها .. أما « كازانوفا » فتبين أنه فقد جوازه ، ومن ثم استبقى ريثما يكتب للكاردينال « أكوافيفا » ويتلقى منه جوازا جديدا ..

اتهامه بجريمة قتل

« وقضيت ليلة رهيبة فى ثكنات « سانت ماريا » .. ولكن الخسارة التى ترتبت على هذه الليلة ، لم تدان الكسب العظيم .. أما الخسارة فتمثلت فى فراق « تيريزا » ـــ ولو أننى كنت موقنا أننى لن ألبث أن ألحق بها ـــ وأما الكسب فتمثل فى أننى تلقيت درسا فى التفكير ، والحرص ، وبعد النظر ، والتحوط لكل الأمور .. وكان درسا عظيما بالنسبة لشاب فى العشرين من عمره !

ولكن الليالى التالية كانت سهلة هينة ، إذ رضت نفسى على تحمل الأمر الواقع ، وأخذت أختلط بالضباط والحراس .. وهكذا قضيت تسعة أيام أو عشرة فى ثكنات الأسبان ـــ إذ كانت البلاد موزعة بين الأسبان والألمان والنمسويين ـــ وذات صباح ، رأيت جوادا أصيلا لأحد الضباط ، فخطر لى أن أمتطيه ، ولم أكن خبيرا بالركوب .. ولست أدرى ما الذى حدث ، ولكننى ألفيت الجواد ينطلق بسرعة أخذت تتضاعف فى جموح ، دون أن أملك إيقافه ، حتى انتهى بى إلى خطوط النمسويين ، فاستطاع حراسهم أن يوقفوا الجواد ، ليسألونى بغيتى ، بيد أننى قلت لهم بإننى غير مكلف بأن أدلى بمهمتى لغير الأمير « لوبكوفيتش » ـــ وكان مقر قيادته فى (ريمينى) ـــ ومن ثم صحبنى جنديان إليه ، حيث أفضيت إليه ، على حدة ، بجلية ما حدث . فلما ذهب عنه الغضب ، تلطف معى ، وأمر بإطلاق سراحى ، فبادرت إلى البحث عن « تيريزا » . ولما لم يكن من المأمون أن أبقى بلا جواز سفر ، فقد اتفقنا على أن أسبقها إلى (بولونيا) فأكتب لقائد الثكنات التى كنت أسيرا

فيها ، أعرض عليه ثمن الجواد الذى فقده ، وأسأله أن يبعث إلى بالجواز الجديد إذا ما وصل .. وفى (بولونيا) ، وجدت أنه لم يعد لى أمل فى أن أكون من رجال الكنيسة ، فقررت أن أغدو ضابطا عسكريا .. وسرعان ما ابتعت ثيابا عسكرية ، وسيفا ، فراق لى منظرى الجديد ، ورحت أسير فى الطرقات وأرتاد المحال العامة ، مزهوا ، وقد ظننت أننى تخلصت من المتاعب .. لذلك كانت دهشتى بالغة حين زرت مدير مصرف (بولونيا) لأستبدل بذهبى عملة وخطابات اعتماد ، فإذا به يطلعنى على نبأ نشرته الصحف ، مؤداه أن ضابطا فى خدمة ملكة أسبانيا يدعى « دى كازانوفا » فرّ من الخدمة بعد أن قتل زميلا له !

ولقيت عناء فى أن أتمالك نفسى ، ولكننى سرعان ما غالبت روعى وقلت له إن « كازانوفا » المقصود لا بد أن يكون رجلا آخر سواى — وكانت خطابات التوصية التى حملتها من الكاردينال كافية لأن تؤكد أننى لم أكن قط فى خدمة ملكة أسبانيا !— وفى اليوم الرابع تلقيت خطابا من « تيريزا » تقول فيه إن دوق « كاسترو بنيانو » عرض عليها ألف أوقية من الذهب سنويا مقابل أن تكون كبيرة مغنيات مسرح « سان كارلو » بنابولى .. ووجدتنى — لأول مرة فى حياتى — أطيل التفكير والتروى ، وقد تنازعتنى فكرتان : الأولى أننى لا يجب أن أدع حبى يفسد على الفتاة مستقبلها .. والثانية ، أننى إذا رافقتها إلى نابولى وعشت معها ، فقد أبدو أمام الناس عالة عليها ، وهذا ما لا تقبله كرامتى — سيما وأن ابن عمى « أنتونيو » ، ومن تعرفت بهم من علية القوم ، يعيشون هناك — لذلك كتبت إليها أنصحها بأن تقبل العرض ، واعدا إياها بأن ألحق بها إذا ما عدت من القسطنطينية .. » .

* * *

.. ووصل الجواز الجديد أخيرا . وبعد أن دفع « كازانوفا » خمسين قطعة

ذهبية فى مقابل الجواد الذى فرّ عليه من الثكنات ، رحل إلى البندقية ، حيث ساعده أصدقاؤه فى الحصول على رتبة عسكرية من وزارة الحربية ، « كعضو فى جيش البندقية » !.. ثم استأنف رحلته إلى القسطنطينية ..

ورست البارجة — فى طريقها — على ميناء « أوديسّا » ، فهبط كازانوفا إلى البر ، وأخذ يجوس خلال المدينة ، فإذا به يصادف رجلا يطيل التحديق فيه ، والتفرس فى ملامحه ، ثم يقترب منه ، فيسأله إن كانت تلك أول مرة يزور فيها المدينة ؟

مصائب قوم .. عند قوم فوائد !

« وإذ قلت له إننى زرت المدينة فى العام الماضى ، قال : « ولكنك لم تكن فى الزى العسكرى ، وإنما كنت فى زى رجال الدين .. أليس كذلك ؟ » .

— بلى .. ولكن أسئلتك بدأت تثير ظنونى ..

— ألا اغفر لى يا سيدى ، فإن فضولى وليد العرفان بالفضل .. إننى مدين لك بالكثير ، وما أرى أن القدر أرسلك مرة أخرى إلا لكى تضاعف جمائلك وعرفانى !

وضقت بعمياته ، فاستحثثته على الإيضاح ، وإذ ذاك دعانى لتناول الفطور فى بيته .. وبين أطباق الطعام الشهى ، وأقداح النبيذ المعتق ، شرع يتكلم :

— لقد ظللت أمارس الطب والجراحة فى هذا المكان عشرين عاما ، عانيت خلالها الشظف ، إذ لم يكن لدى ما أفعله اللهم إلا بعض عمليات « الحجامة » ، وتضميد بعض الجروح التافهة التى لم تكن تدر علىّ ما يقيم

أودى .. غير أن الحال تغيرت منذ العام الماضى ، وأخذت المهنة تدر علىّ أرباحا طائلة .. بفضلك أنت !

— ولكن ، كيف كان هذا ؟

— لقد قامت بينك — خلال زيارتك للمدينة فى المرة السابقة — وبين خادمة الدون جيروم علاقة ما ، تركت لها فى أعقابها ذكرى .. هدية .. خلعتها بدورها على صديق لها ، نقلها بدوره إلى زوجته .. ولم تشأ السيدة أن تكون أنانية ، فوهبت الهدية إلى صديق راح يوزعها بسخاء ، فلم ينقض شهر حتى كان لدى خمسون مريضا !.. وأخذ الداء ينتشر ، وعدد المرضى يزداد .. ولكن عنايتى بهم ما لبثت أن أثمرت ، فأخذ عددهم يتناقص من جديد ، حتى أوشكت أن أعود إلى تعطلى القديم .. فهل يدهشك بعد ذلك اغتباطى بلقائك ؟!

وضحكت من القصة ، ثم أكدت للطبيب أننى شفيت ، فودعنى وهو يؤكد أنه سيكون سعيدا بخدمتى إذا عاودنى الداء ..

وعادت السفينة تستأنف رحلتها ، حتى (كورفو) — بإحدى جزر اليونان — حيث كان عليها أن ترسو حتى تلحق بها بارجة « الشيفالييه فينيير » ، قائد أسطول البندقية فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، (وكانت البندقية إذ ذاك سيدة البحار) . وغرق « كازانوفا » فى المقامرة — خلال الشهر الذى أقامه هناك — حتى خسر كل ما كان يحمل من مال وتحف .. وما لبثت بارجة القائد أن وصلت ، فاستأنف الأسطول رحلته ..

يفوت على نفسه فرصة الزواج من حسناء تركية ثرية !

ووصلنا إلى سفارة البندقية فى (بيرا) حوالى منتصف يوليو ، حيث أعدت مساكن مريحة للضباط .. وحظيت بمرافق عسكرى يلازمنى ، إذ كان الشعور العدائى ضد الأجانب مشبوبا . وفى اليوم الأول لوصولنا ، اصطحبت تابعى لزيارة « عثمان باشا » والى قرمانيا ــ وهو الاسم واللقب اللذان اتخذهما « كونت دوبونفال » منذ اعتنق الإسلام وارتدى العمامة والزى التركى ــ وأبدى « الباشا » عطفا على أمثالى من الشباب الذين يسلمون أقدارهم للحظ ، إذ يمضون فى الحياة بلا هدف معين ، وقال إن الكاردينال قد كتب له عنى بما يجعله يعنى أشد العناية بأمرى ، ووعد بأن يقدمنى إلى أربعة من أصدقائه الأتراك . ثم دعانى ليرينى مكتبته التى أقامها فى مبنى خاص بالحديقة .. وخلف أرفف الكتب ، كشف لى عن مخبأ يضم أشهى أنواع الخمور !.. ثم أبدى رغبته فى أن أتناول الغداء على مائدته فى يوم الخميس من كل أسبوع » .

* * *

وعلى مائدة « الكونت دوبونفال » تعرف « كازانوفا » إلى « إسماعيل أفندى » و « يوسف على » .. ودعاه كل منهما إلى داره .. أما الأول ، فقد خيل إلى « كازانوفا » أنه يسعى وراء مأرب فيه شىء من الشذوذ ، فأجفل منه ، والتزم الحذر !.. وأما الآخر فقد أخلص له الود والوفاء ، وكانت لهما معا مساجلات ومناقشات دينية .. وزعم « كازانوفا » أن « يوسف على » بلغ فى

حبه له أن تمنى لو أنه اعتنق الإسلام ليزوجه من ابنته « سلمى » — وكانت حسناء باهرة الجمال فى الخامسة عشرة من عمرها — على أن يترك لهما كل ثروته .. ولكن « كازانوفا » كان يتوق إلى النجاح ، والشهرة ، والمغامرة .. فما لبث أن رحل مع قطع الأسطول مغادرين تركيا إلى (كورفو) ثانية .. وهناك عاش حياة دعة ، وانغمس فى الميسر ، واتفق مع مقامر عريق يدعى « مارولى » على أن يستثمرا مالهما معا فى اللعب ..

ياور .. بدون قفازات !

« وكان يشرف علينا فى (كورفو) المقيم العام ، مسيو « أندريه دولفين » . وكان فى الستين من عمره ، صارما ، عنيدا ، جاهلا .. وكانت له سلطة واسعة ، سيما بين رعايا البندقية ، فقد كان فى (كورفو) إذ ذاك ثلاثة من الضباط العاملين ، يشرفون على ثلاث سفن راسية فى مياه (كورفو) ، وثلاثة ضباط يشرفون على الجنود التابعين للسفن الثلاث . وكان تحت قيادة الأولين عشرة ضباط آخرون ، وتحت قيادة الآخرين عشرة أيضا ، كلهم من أبناء الأسرات العريقة فى البندقية .. ثم كان هناك عشرة من التلاميذ البحريين ينتمون إلى الأسرات النبيلة فى البندقية ، وتتراوح أعمارهم بين العشرين والثانية والعشرين .. فضلا عن عدد الموظفين المدنيين فى بوليس الجزيرة ، وفى الإدارة والقضاء .. وكانت دور المتزوجين منهم تحفل بالزوار الذين يسعون للتقرب إلى الزوجات .. بيد أن الجزيرة لم تشهد كثيرا من الفضائح الغرامية .. ولعل هذا كان يرجع إلى وجود عدد من غانيات اليونان الفاتنات ، اللاتى كن يبعن الهوى لمن يدفع الثمن ! وكانت أبرز السيدات ،

وأجملهن ، وأرقهن إذ ذاك ، « مدام ف . » ، زوجة ربان إحدى السفن الثلاث .. فقد خلب جمالها ألباب ضباط البحرية ، ولكنها آثرت « د. ر. » ـــ قائد أسطول الزوارق التابع للسفن الثلاث ـــ الذى اختارنى « ياورا » له بمجرد وصولى ، استجابة لخطابات التوصية التى كنت أحملها ..

ورأيت « مدام ف . » للمرة الأولى ، فى اليوم الذى توليت فيه منصب « الياور » ، إذ ضمتنا مائدة العشاء .. واستهوانى جمالها لأول وهلة ، فقد كان من مستوى غير عادى ، حتى لقد كان من المستحيل ألا يقع الرجال فى هواها .. وكان مركزى يتيح لى شرف الجلوس إلى مائدة المسيو « د. ر. » كغيرى من « الياوران » ، ولكننا لم نكن نعتبر ضيوفا ، ولم يكن أحد يحفل بالتحدث إلينا .. بل ولا بإيثارنا بنظرة !.. وكان هذا يثير سخطى وغيظى ، حتى إننى أحسست ـــ بعد نحو عشرة أيام ـــ بكراهية لمدام « ف » ، لتعاليها وصلفها .. وفى ذات ليلة ، دفع أحد السادة فى يدى ، ونحن نغادر مائدة العشاء ، مبلغا من المال كان مدينا لى به فى الميسر . ولمحت مدام « ف » ما جرى ، فسألتنى فجأة : « ماذا تفعل بنقودك ؟ » .

قلت : « أدخرها اتقاء الخسارة فى اللعب » .

ـــ ولكن .. ألا يحسن بك أن تكف عن اللعب ؟.. إنه مضيعة للوقت .

ـــ إن الوقت الذى يبدد فى متعة ليس بالوقت الضائع يا سيدتى .. إنما الوقت الضائع هو ذاك الذى يقضيه الإنسان فى هم ، ونكد .. فإنه فى هذه الحال يكون عرضة لأن يقع فريسة للحب ، وأن يلقى من محبوبته النبذ والازدراء !

ـــ قد يكون هذا صحيحا ، ولكن الادخار يوشك أن يجعل منك شحيحا بخيلا .. والمقتر لا يقل عن المحب المتهالك استحقاقا للنبذ والازدراء .. لم لا

تبتاع لنفسك زوجا من القفازات ؟

وأثارت كلماتها ضحك القوم .. وزادنى غيظا أنها كانت على حق ، فما كان للياور أن يحضر مجالس علية القوم ، دون أن يحمل قفازين .. ورحت أقضى أيامى بعد ذلك ، ونار الغيظ تكوينى ، ويقض مضجعى نوع من الشقاء استبد بى ، إذ شعرت بعجزى عن كبح جماح كراهيتى لامرأة لم أكن أجد لها — فى الحق — أى ذنب أو جريرة معى .. كل ما هنالك أنها لم تكن تحبنى ، لا ولا كانت تكرهنى ، وقد أثار مسلكها هذا الطبيعى ثائرتى ، وأخذ غرورى يوحى إلىّ بأن أقدم على شىء يجعلها تندم على هذا المسلك إزائى ؟

صفعة على وجه كازانوفا = الموت !

« وفى ذات مساء ، أوفدنى مسيو « د. ر. » فى مهمة لم أعد منها إلا فى منتصف الليل ، فإذا به قد أوى إلى مضجعه . لذلك كان أول ما فعلت فى الصباح التالى ، أن سعيت إليه أفضى إليه بنتيجة مهمتى .. وفيما كنت بين يديه ، أقبل خادم برسالة من مدام « ف » فاكفهر وجهه بعد أن قرأها ، ثم مزقها وأمر بصرف الخادم الذى حملها !

وما أن غادرت حجرته فى ذلك المساء ، حتى أنبأنى خادم بأن مدام « ف » أرسلت تدعونى ، فأسرعت إلى دارها وأنا جد مشوق لأن أعرف سر هذه الدعوة !

وقالت بعد أن جمعت شتات خواطرها : « لقد خسر زوجى ليلة أمس مائتى قطعة ذهبية ، على المائدة التى يديرها شريكك ، ولم يكن معه المبلغ فتعهد بدفعه اليوم ، ظنا منه أننى أملك هذا القدر .. ولكننى للأسف فى ضائقة ، والدين ـــ كما تعلم ـــ دين شرف ، لذلك خطر لى أنك قد تقبل أن تذكر لشريكك أننى دفعت لك المبلغ عن زوجى ، وهاك خاتم ثمين أرهنه لديك حتى أول يناير .. » .

ولكننى أبيت أن أحرمها من الخاتم ، واكتفيت بوثيقة تعهدت فيها بدفع المبلغ ، ثم غادرتها ، وعدت بعد عشر دقائق بمائتى قطعة ذهبية .. وكان أول ما فعلت ، حين رجعت إلى غرفتى ، أن رحت أطمس بالمداد الأسود الكثيف كل كلمة فى الوثيقة ، عدا توقيعها ، وغيبتها فى ظرف ، ثم أسلمتها لمسجل

المدينة ، على أن لا يسلمها بدوره لأحد سوى مدام « ف » إذا شاءت أن تستردها ..

وكان أشد ما أذهلنى أن مدام « ف » ظلت على نفس مسلكها السابق معى ، وإن بدأت — كلما جاء مجلسها فى مواجهتى حول المائدة — تؤثرنى ببعض الحديث ، فاتاحت لى بذلك فرصا كى أكشف عن ثقافتى ، وذكائى !.. وكنت فى ذلك الحين أجيد إضحاك الغير برواياتى وفكاهاتى ، دون أن تهتز جارحة واحدة فى جسدى أو وجهى !.. وهى ميزة ليست بالسهلة ، فكلما بدا المرء جادا ، كان ضحك المستمع أكثر !

* * *

وحوالى منتصف نوفمبر ، مرض الجندى الذى كان معينا تابعا لى .. وفى لحظة من لحظات استفحال الداء ، طلب أن يرى قسًا ، وأوهمه بأنه ابن الملك « فرانسوا الخامس » من الأميرة « جابرييل دى بليس » .. وأعطاه وثيقة أوصى فيها بالحرص على جسده ، والاتصال بسفير فرنسا فى البندقية ..

وضحكت من هذه القصة حين سمعتها .. ولكن السادة الذين كان يضمهم مجلس المسيو « د. ر. » لم يخالجهم شك فى صحتها ، فليس يعقل أن يفترى مخلوق وهو على عتبات الموت !.. وعبثا حاولت أن أقنعهم بأن « فرانسوا الخامس » لم يتزوج قط من آل « بليس » ، وأن أخلاق ذلك الجندى لا تنم عن عراقة أصل أو نبل محتد .. ولكننى لم أقابل بغير ضحكات السخرية ..

وحدث أن تغلب الجندى على المرض .. وما إن غادر المستشفى ، حتى دعاه مسيو « د. ر. » إلى مأدبة عشاء ، أخذت خلالها السيدات يتقربن إليه ، والرجال يتملقونه ويعاملونه على أنه أمير .. وشاعت إحدى الحسناوات أن

تحرجنى أمامه ، فذكرت له أننى أؤكد أن روايته عن نسبه زائفة !

وشحب وجه الرجل الذى كان قبل ذلك بأيام خادما لى .. ثم تقدم وصفعنى !.. ولولا خشيتى من نقمة رئيسى لنكلت به .. ولذا آثرت الانسحاب بين ضحكات القوم الشامتة ، ثم تربصت له فى ركن مظلم من الطريق ، حتى إذا انصرف ، تصديت له ، ودعوته للنزال .. ثم غسلت الإهانة التى نالتنى منه .. وما أن رأيت جثته عند قدمى ، حتى ذهبت إلى المقهى الذى كنا نديره للميسر ، فما لبث أن جاءنى ضابط يعلننى بأن القائد يأمرنى بأن أسلم نفسى كسجين على ظهر البارجة « باسترادا » .. وكان السجين على هذه السفينة يعامل أسوأ معاملة ، فتكبل يداه وساقاه بالأغلال ! » .

فراره إلى جزيرة صغيرة

وبادر « كازانوفا » إلى جمع كل ما كان لديه من مال ، وكل ما استطاع شريكه أن يعطيه ، ثم حزم ما كانت تدعو إليه الضرورة من متاع ، واستقل زورقا راح يجدف فيه ، حتى صادف سفينه أنزلته فى جزيرة على بعد عشرين ميلا من (كورفو) .. وهناك ، استأجر منزلا على قمة مرتفع يشرف على البحر ، واستخدم بعض الأهالى فأعد منهم حرسا له ، ثم عاش فى ترف محيطا نفسه بعدد من حسان الجزيرة ، لمدة أسبوع أو عشرة أيام .. وفى ذات يوم ، بدت فى البحر بارجة ، لم تكد تقترب من الجزيرة حتى أنزل منها قارب فيه ضابط وجنديان ، أخذ يتجه إلى الشاطئ .. وسرعان ما قاد حرس « كازانوفا » الضابط إلى « مولاهم » ، فإذا به « ياور » زميل له ، أوفد إليه لينبئه بأن خدعة الجندى القتيل قد كشفت ، وأن القائد قد عفا عنه ، على شريطة أن

يعود فيسلم نفسه لقائد البارجة « باسترادا » ريثما يصدر أمر العفو ، صونا لكرامة القائد وسلطته ..

وهكذا عاد « كازانوفا » ثانية إلى (كورفو) .. وفعلا لم يقض فى سجن البارجة ساعة ، حتى أطلق سراحه ..

عودة البطل .. ودعوة من مدام « ف » !

« وما إن ظهرت فى مجلس المسيو « د. ر. » حتى قرأت السرور على كل وجه ، وكان فى هذا خير عزاء أنسانى كل شىء .. واحتضننى المسيو « د. ر. » ، وقدم لى خاتما ثمينا ، ثم قال : « ما أظنك تتصور مدى اهتمام مدام « ف » بمصيرك .. لسوف تغتبط إذا أنت ذهبت إليها فورا » .

* * *

ولكن « كازانوفا » وجدها مستسلمة للنوم حين ذهب ، فقضى ساعة مع خادمتها الحسناء ، ثم قصد إلى دار القائد ، فتلقاه هذا وهو محوط بكثير من الأصدقاء والضيوف .. وغمره بعطفه ، وسأله أن يروى له ما جرى .. فأخذ يروى قصته ، والكل يصغون ، معربين عن إعجابهم .

* * *

« وذات صباح ، تلقيت دعوة من مدام « ف » ، فقصدت إليها فورا ، وإذا بها ترد لى القطع الذهبية التى كانت قد اقترضتها منى .. وبادرت إلى المسجل ، فأحضرت لها الوثيقة .. وما أن رأت كيف طمست الكلمات ، حتى هتفت : « يا له من برهان على مدى رقتك وشهامتك .. لقد تصرفت بنبل كبير » ..

على أننى حرت فى أمرها حين وجدت أنها قد عادت مرة أخرى إلى مسلكها القديم من التعالى وعدم الاكتراث !

وفى أحد الأيام دعيت إلى مرافقة مسيو « ف » فى بعض المناورات .. فلما

عدنا ، طلب مسيو « ف » إلى مسيو « د. ر. » أن ينزل له عنى .. وأدر
مدام « ف » كانت وراء هذا الطلب ، حين ألفيت مسيو « د. ر. » يستر
فأغدو ياورا للمسيو « ف. » .. وأفردت لى حجرة مجاورة لحجرة
الفاتنة ، ولكنها ظلت على فتورها نحوى !

* * *

وقدر لكازانوفا يوما أن يسرق خصلة من شعرها ، فلما أصر
استردادها ، استجاب لرغبتها ، ثم تمارض ، فأشفقت عليه ، ورق قلـ
فأعطته بعض شعرها .. وفى الحال ، نسج من جزء من الشعر الحروف
من اسمه واسمها ، على عصابة من الحرير الأخضر ، أحاط بها ذراعه .. ،
بجزء آخر حبلا صغيرا عقده حول رقبته لينتحر به إذا ما يئس من
المبرح .. ثم بخل بالشعيرات التى تخلفت عن العمليتين أن تذهب فى
فأحرقها ، وعهد بها إلى يهودى يصنع الحلوى ، فأعد له نوعا من الحلوى
به رماد الشعر .. واعتز بهذه الحلوى ، فلم يكن يسمح لأحد بأى جز
مما أثار فضول السيدة « ف » ، فراحت تستفسره عنها !

أخيرا .. تستجيب المتمنعة !

« وقلت لها إن الحلوى مصنوعة من مواد تجعل من يتناولها يتدله فى
فلم يزدها هذا إلا إصرارا على معرفة سرها .. وفتحت الصندوق ، فتنا
تبقى من محتوياته ودسسته فى فمى دفعة واحدة وقلت : « إن كمية أخذ
هذه الحلوى كفيلة بأن تجعلنى أموت وأنا مجنون بحبك ، وإذ ذاك
وهممت بالخروج ، فأمسكت بذراعى ، وأجلستنى فى مقعد

منها ، وراحت تهيب بى أن لا أرتكب من الحماقات ما يعكر سعادتها .. ثم قالت : « إنك لتعرف مدى حبى لك .. حبا لم يجتلب بعقار ما » .. وإذ ذاك ركعت عند قدميها ، واغرورقت عيناى بدموع العرفان بالحب ، ورحت أروى لها ما فعلت بشعرها ، وكشفت عن العصابة المحيطة بذراعى ، والحبل المحيط بعنقى .. فابتسمت وأنهضتنى ، وجففت دموعى ، مؤكدة أننى لن أجد داعيا قط لأن أخنق نفسى بالحبل المجدول من شعرها ! ولم تفرغ من قولها حتى التقت شفاهنا فى وئام هنىء . وضمتنى إلى صدرها فى شدة لم أستطع معها أن أحرك يدى .. وبعد عناق لذيذ ، سألتها أن تسمح لى ببعض المداعبات ، فقالت :

ـــ مستحيل يا أحب صديق .. إن الحب طفل يجب إرضاءه بالتوافه ، لأن الأكل الدسم يقتله !

وصدعت لرغبتها ، وإن رحت أرجو أن تتغلب الأيام على تمنعها ، فقد كان الحظ دائما صديقى الذى أدين له بالفضل فى كثير مما نلته من هناء !

وحدث أن أصيبت مدام « ف » ذات يوم بجرح عميق فى ساقها ، خيف أن يتطور إلى ما هو أسوأ ، إذا لم تلق عناية بالغة .. ومن ثم أخذ يتردد عليها فى كل صباح طبيب يقوم بتنظيف الجرح ومعالجته . ولم تكن تشهد هذه العملية سوى وصيفتها . ولكننى كنت أقف كل يوم الى جوار الباب ، فى انتظار الوصيفة ، لأسألها فى لهفة عن حال الفاتنة .. إلى أن جاءتنى الوصيفة ذات صباح ، تدعونى إلى الغرفة والطبيب يضمد الجرح ..

وكان الطبيب منهمكا فى إعداد الضمادة فى الطرف الآخر من الحجرة حين دخلت .. وإذ خرجت الوصيفة ، رحت أتحسس ما حول الجرح ، وأسألها ما إذا كانت تشعر بألم .. ولم يكن ثمة التهاب .. وقبل أن تتوغل

أصابعى ، جذبت المريضة الحبيبة ستارا حجبنا عن الطبيب ، وجادت علىّ بقبلة جميلة أدار شذاها رأسى .. وانتقلت شفتاى من فمها إلى الجرح !

ودخلت مخدعها فى الصباح التالى ، والطبيب يعنى بجرحها .. وما أن غادرها منصرفا ، حتى سألتنى أن أسوى الوسائد حولها .. وفيما هى تعتدل فى فراشها ، انزاح طرف ثوبها ، فبهر جمال ساقيها عينى ..

وفى الصباح التالى ، لم يكد الطبيب ينصرف ، حتى أوفدت المريضة وصيفتها فى بعض المهام ، وهتفت بعد خروج الفتاة :

ــ آه .. لقد نسيت الوصيفة أن تبدل لى قميصى ..

فسألتها أن تسمح لى بأن أقوم بالمهمة ، فقالت :

ــ ليكن .. إنما تذكر أننى لا أسمح لغير نظراتك أن تستغل الفرصة !

ــ وخلعت القميص المتسخ .. ولم أكن سريعا فى إلباسها القميص النظيف ، فقد شغلت بالتهام مفاتن جسدها بنظراتى .. وأخذت أطرافى ترتعش حتى أشفقت علىّ .. وهويت فى أحضانها ، والتصقت شفاهنا .. ونعمنا بلحظات هنيئة ، لم تطفئ سعير رغباتنا ، ولكنها خلعت عليها تسرية مموهة !

وأخذ الجرح يقترب سريعا من البرء .. وفى ذات يوم ، رحل مسيو « ف » إلى موقع بعض المناورات البحرية ، على أن ألحق به فى الصباح التالى ..

وتناولت العشاء مع مدام « ف » ، وحدنا .. وقالت : « لنعوض فى هذا المساء ما سنعانى غدا من فراق ، ولنقض الليل معا فى مناجاة .. فإذا ما انصرفت الوصيفة بعد أن آوى إلى مضجعى ، فتعال عن طريق غرفة زوجى ..» .

الدواء الوحيد .. للحب !

لم أتردد فى اتباع تعليماتها بدقة متناهية ، فإذا بنا نحظى بخلوة كان مقدرا لها أن تظل خمس ساعات .. وكنا فى شهر يونيو ، والحر قائظ ، واحتويتها بين ذراعى ، وضممتها إلى صدرى ، فقالت :

ــ يجب أن نكبح جماح الحب بيد قوية ، وأن نضحك منه ، رغم ما فى ترويضنا إياه من ظلم عات ، فبهذا نوقفه عند حده ، ونرضى رغباتنا فى الوقت ذاته !

ــ يا لك من قاسية أيتها الحبيبة !.. إنك تكتوين بنار الهوى ، ومع ذلك تحرمين نفسك من الدواء الوحيد الذى يسكن مشاعرك المشبوبة .. أواه ، يا نور قلبى !.. إن الحب ليضاعف من وجودى ، ويبعث فى نفسى ضياء الأمل فى أن أموت بتأثير النشوة التى أيقظتنى الآن منها !

ــ أرانى مدفوعة إلى أن أصدق ، ولكن دعنا ننتظر . وفى خلال فترة الانتظار ، تعال نستمتع بالتفاهات الأولية التى نلقاها على هامش الحب !.. وإذا كانت ليلتنا هذه جد قصيرة ، فلنخفف عن نفسينا لوعة غدنا ، بتدبير لقاء آخر ..

ــ وإذا كشف أمرنا ؟

ــ وهل نحن نجعل منه سرا ؟.. إن السماء والطبيعة لا بد أن تحمياه ، فليس من جريمة فى اندماج قلبين فى حب صادق .. لقد كان الحب إلٰه كيانى ، منذ فطنت إلى نفسى فى هذا الوجود .. وما من مرة رأيت فيها رجلا إلا وهزنى

الطرب ، إذ أرى فيه النصف الآخر من نفسى ، وكأننى ما خلقت إلا له ، وما خلق إلا لى !.. ومن ثم تاقت نفسى إلى الزواج ، فى شوق العذراء التى تملأ قلبها أحلام المراهقة فى سن الخامسة عشرة .. ولم أكن أدرى ما الهوى ، ولكننى كنت أتصوره مقترنا بالزواج .. وبذلك ، لك أن تتصور مدى الصدمة التى أصبت بها ، حين أغفل زوجى أمر سعادتى ، وهو يجعل منى امرأة !.. كان خيالى أبهج من الحقيقة التى فاجأنى بها زوجى ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، أن أصبحنا صديقين حميمين ، وزوجين متباعدين ، فى الوقت ذاته !.. كان يرضيه أن يجدنى طوع رغباته ، ولكن الفتور الذى كان يلقاه منى فى سويعات النشوة ، لم يلبث أن زهده فى تلك النشوة ، فقل تردده على مخدعى !

.. وذكرت مدام « ف » لى أنها حين تنبهت إلى حبى لها ، راحت تزيد ناره تأججا ، اطمئنانًا منها إلى ما بدا لها من أنها لن تحبنى قط .. حتى إذا شعرت بالحب يقتحم قلبها اقتحاما ، اشتدت جفوة وقسوة ، انتقاما منى لانتصار حبى على فؤادها .. ولم تلبث مقاومتها أن انهارت بفضل صبرى وإلحاحى .. واستطردت تقول : « وبعد القبلة الأولى ، لم أعد مسيطرة على نفسى .. فقد أذهلنى الأثر الذى أحدثته قبلة واحدة ، وشعرت على الفور بأن سعادتى مرتبطة بسعادتك .. وقد ازددت الليلة يقينا من هذا » !

وقضينا الليلة فى مناجاة ونشوة ، حتى انبثق ضوء النهار ، فانتزعت نفسى من بين ذراعيها فى أسف ، لألحق بزوجها .. وما كان ليخطر لها ببال أننى سأجد فى كيانى قوة تمكننى من أن أنشط لواجبى بعد تلك الليلة !

أحزان كازانوفا !

وانقضت بعد ذلك عشرة أيام أو اثنا عشر يوما ، لم نطفئ خلالها ذرة من ظمأنا العاطفي الذى كان يلهب جوانحنا !.. ثم وقع ذلك الحادث الأليم .. فقد قربتني إليها ذات ليلة حتى أوشكت الحجب أن تنزاح عن طريق حبنا ، وإذا بها في اللحظة العارمة ، تقصيني عنها .. فاندفعت كالمجنون أهيم على وجهي ، وإذا بي أصادف غانية كانت تعرفني ، فنادتني .. ولم تكن الشهوة ، ولا جمال المرأة ، ولا الوهم .. وإنما كان الضعف والغضب هما اللذان دفعاني إلى أحضانها !

وفى الصباح التالي ، دعتني مدام « ف .. » إلى مخدعها وبادرتني قائلة : « لن أكتم عنك يا حبيبي أنني شعرت بأسى عميق ، بعد أن غادرتني في الليلة الماضية ، إذ فطنت إلى ما سببته لك من لوعة وضنى .. ولم يغمض لي جفن في انتظار عودتك ، ولكنني لم أر ضوءا في نافذتك .. وعندما أرسل زوجي في الصباح يدعوك ، فوجدك تزال تغط في نومك ، شعرت بالحزن يملأ قلبي ، لا عن غيرة — فأنا واثقة من أنك لا يمكن أن تحب سواي — وإنما عن إشفاق من أن تكون قد أصبت بضرر ما .. وإذ سمعتك قادما ، عاودني الهناء ، إذ شعرت بأن في وسعي أن أثبت لك ندمي وأكفر عن قسوتي .. ولكنني حين رأيتك ، فطنت إلى تغير اعتراك .. إن روحي تقرأ على محياك أمارات الذنب .. فصارحني إذا كنت قد خذلت حبنا » !

وكم من مرة وجدت نفسي في مثل هذا الموقف أمام امرأة ، فعرفت كيف أروغ وأهدئ من هواجسها .. ولكنني أمام هذه الفاتنة لم أجرؤ على

الكذب .. فصارحتها بما جرى .. ولم تغضب ، بل تقبلت توبتى قبولا حسنا !

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد .. فبعد ثلاثة أيام ، أحسست بأعراض مرض خبيث .. وأسرعت بعرض نفسى على أحد الأطباء ، فوعدنى بأن يبذل جهده .. على أن يستمر العلاج لمدة شهرين .. وما كان أشد كربى وأحزانى !.. ولم أجد بدا من أن أصارح معبودتى والحسرة تفرى فؤادى !.. وكأن القدر لم يكتف بهذه النكبة ، إذ رزأنى بأشد منها .. فقد اضطررت إلى مبارحة دار المسيو « ف .. » ، وعدت ياورا للمسيو « د. ر. » مرة أخرى .. وكان هذا إيذانا بانقطاع الصلة بينى وبين فاتنتى ، إذ أعرضت عنى !

وما لبثنا فى نهاية سبتمبر سنة ١٧٤٥ أن رحلنا إلى البندقية ، فغادرت (كورفو) معدما ، خالى الوفاض ، مضعضع الحواس !.. وما أن هبطت إلى البر فى البندقية ، حتى سعيت إلى دار مدام « أوريو » فألفيتها خاوية . وعلمت أن السيدة تزوجت من مسيو « روزا » ـــ وقد رويت فى الجزء الأول من مذكراتى مدى صداقتى لهما ـــ ومن ثم ذهبت إلى دار مسيو « روزا » حيث استقبلنى الزوجان فى حفاوة بالغة ، وعلمت من مدام « أوريو » أن « نانيت » تزوجت ونزحت مع زوجها إلى (قشطالة) بأسبانيا ، فى حين أن أختها « مارتون » زهدت فى الدنيا ، وغدت راهبة .. وقد تلقيت من الأخيرة خطابا تعلن لى فيه غفرانها لإغوائى إياها ، وتعدنى بأن تصلى من أجلى كى يغفر الله لى !

وسعيت بعد ذلك إلى الاستقالة من الخدمة العسكرية . وما لبثت أن حصلت على إذن من وزير الحربية بذلك ، فبادرت إلى خلع الزى العسكرى ، والإقامة مع شقيقى « فرانسوا » . وكان لا بد لى من أن أبحث عن عمل بعد قليل ، فاستغللت ما كنت قد تلقيت على يدى الدكتور « جوتسى » من دروس

فى العزف على الكمان ، وانضممت إلى فرقة موسيقية فى مسرح « سان صمويل » .. ورحت أرتقب تطورات الحظ ..

ولم أجسر ، خلال هذه الفترة ، على الظهور فى الأوساط الراقية .. ولكن اعتدت أن أنطلق مع أفراد الفرقة عقب العمل — فى كل ليلة — لنعيث فى أرجاء المدينة فسادا ، ونقوم بمغامرات عجيبة .. فكنا أحيانا نتسلق أبراج الكنائس وندق الأجراس ، أو نفك « الجندولات » من عقالها ، ونتركها للتيار .. إلى أن كانت ليلة من ليالى الكرنفال فى سنة ١٧٤٥ ..

* * *

فى تلك الليلة ، قصد « كازانوفا » وزملاؤه ، بعد الفراغ من المسرح ، إلى مشرب بساحة « الصليب المقدس » ، فإذا به خاو إلا من ثلاثة رجال وسيدة ، جلسوا يشربون ويسمرون فى مقصورة خارجية خاصة ، فتقدم منهم رئيس الفرقة ، وزعم أنه موفد من مجلس العشرة — وهو الهيئة الحاكمة التى كانت تتحكم فى مصائر أهل البندقية — وأن على الرجال أن يسلموا أنفسهم !.. بينما تولى كازانوفا وزميل له أمر السيدة !.. ونقلت الفرقة الرجال الثلاثة إلى مكان ناء ثم عادوا فقادوا السيدة إلى نزل ، وطلبوا شرابا وعشاء .. وأخذوا يمرحون !.. وفى الصباح التالى ، قدم الرجال الثلاثة شكوى إلى مجلس العشرة عما حدث .. وكان أن أعلن المجلس عن مكافأة لمن يرشد إلى المعتدين ، فكفت الفرقة عن مغامراتها !

كازانوفا .. يمارس الطب !

« فى منتصف إبريل سنة ١٧٤٦ ، حضرت زفافا لفتاة إحدى أسر الطبقة الحاكمة ، وعزفت على الكمان مع الفرقة الموسيقية التى كانت تحيى الحفلات الراقصة ثلاثة أيام تباعا .. وفى نهاية الرقص ـــ فى اليوم الثالث ـــ ألح علىّ التعب ، فانصرفت قبل مطلع النهار بساعة . وفيما كنت أهبط السلم ، رأيت أحد أعضاء مجلس الشيوخ يهم بأن يستقل « الجندول » ، فإذا برسالة تقع منه بينما كان يخرج منديله . وسارعت بالتقاطها وتقديمها إليه ، فأصر على أن يصطحبنى فى جندوله . وإن هى إلا دقائق ، حتى التفت يسألنى أن أدلك له ذراعه اليسرى ، إذ أحس فيها بألم طارئ !.. ولكن الألم سرى فى كل جانبه الأيسر ، فلم يعد يستطع حراكا . وأدركت أنه أصيب بنوبة شلل مفاجئة ، فأسرعت أصرخ فى الملاح أسأله أن يعرج على أقرب نقطة فى طريقه ، ثم هرعت ألتمس جراحا عدت به إلى « الجندول » حيث قام بحجامة للشيخ الكبير .. ومزقت قميصى ليتخذ منه ضمادات ، ثم رافقت الشيخ إلى قصره ، ووجدتنى بحكم الظروف قائد الموقف ، فأمرت الخدم باستدعاء طبيب .. ومكثت بجوار سرير المريض ، أعنى به .. وجاء الطبيب فقام بحجامة جديدة للشيخ ، ثم أقبل اثنان من أقاربه فهمت منهم أن الرجل من كبار ساسة جمهورية البندقية ، وإنه يدعى « براجادين » . وما لبث الرجل أن أبدى رغبته فى أن أظل وحدى إلى جواره . وأخذ الطبيب يتردد عليه ، ولكن الدواء الذى وصفه له ، أصابه بحمى جعلتنى أضرب بتعليمات الطبيب عرض الحائط ،

وأعالجه بنفسى ، الأمر الذى ضاعف من ثقة « براجادين » فىّ ، وفى استياء الطبيب وإعراضه عن المضى فى العلاج !

كازانوفا .. الساحر !

وهكذا وجدتنى طبيبا لعضو من أبرز أعضاء مجلس شيوخ البندقية . وأعترف بأننى كنت شديد الاغتباط بذلك . واستطعت بما التزمته من تنظيم لتغذية المريض ، أن أدفعه قدما نحو الشفاء !

وأبى الشيخ الجليل أن يصدق أن ما أبديته من مهارة فى علاجه ، وما لاح خلال أحاديثى من معرفة ودراية ، كانت من ثمار العلم وحده ، فإن صغر سنى لم يكن يوحى قط بأننى وجدت من فسحة العمر ما يكفى لتحصيل كل هذه العبقرية !.. وإنما ذهب إلى أننى ولا بد كنت أمتلك قوة سحرية خفية !.. فاستغللت هذا الاعتقاد ، ورحت أذكيه فى نفسه وفى نفس صديقين حميمين له — من أعضاء مجلس الشيوخ أيضا ، وكانا يقيمان فى القصر نفسه — ولجأت إلى الدجل لإقناعهم بأننى أستطيع أن أكشف الغيب وأتنبأ بالمستقبل !!

المغامر الأعظم .. يجد له أبا !

وأرى من واجبى أن أعترف بصراحة بأننى كنت أخدعهم ، وأننى لم أعاملهم بأمانة وصدق . ولكننى أناشد القارئ أن لا يتعجل الحكم علىّ ، فإن من يعرف الدنيا ويفهم روح المجتمع ، لا شك سيلتمس لى الأعذار .. سيما

وأننى كنت فى العشرين من عمرى ، ذكيا وموهوبا .. ورغم ذلك لم أبلغ إذ ذاك إلا مركز عازف الكمان !.. ثم إننى كنت خليقا بأن أفقد صداقة وعطف ثلاثة من علية القوم كهؤلاء ، لو أننى آثرت أن أكون أمينا معهم !

وفى اليوم الذى قدر فيه لمسيو « براجادين » أن يغادر القصر ليحضر اجتماع مجلس الشيوخ — لأول مرة منذ إبلاله من المرض — قال لى : « إننى مدين لك بحياتى .. لقد أرسلك الله بلا شك لتكون ملاكى الحارس ومنقذى ، وقد عرفت فيك ما يجعلنى أقدرك ، وأجعلك منى بمنزلة الابن .. فلو شئت أن تتخذنى أبا ، لعاملتك حتى مماتى كما ينبغى أن أعامل ابنا من دمى ولحمى .. وقد أفردت لك جناحا فى قصرى ، وسيكون لك خادم خاص ، و « جندول » ومقعد حول مائدتى ، وعشرة جنيهات فى الشهر ، وهو المبلغ الذى كنت أتلقاه من أبى وأنا فى مثل سنك . وليس عليك سوى أن تستمتع بالحياة كما تشاء ، وأن تتخذنى مرشدا وناصحا كلما أعوزك الرأى » !

وحين انتهى الشيخ من حديثه ، ألقيت بنفسى عند قدميه ، معبرا عن شكرى ، فأنهضنى واحتوانى بين ذراعيه ، فى حنان الأب . ووعدته بأن أحبه وأطيعه .. واحتضننى رفيقاه فى القصر — مسيو « داندولو » ومسيو « باربارو » — وأقسمنا جميعا بأن نصون الود إلى الأبد !

وهكذا ابتسم لى الحظ وأولانى السعادة . ولو أننى انتهجت سبيل الاعتدال والقصد ، لتوطد مستقبلى على أسس عزيزة متينة .. بيد أننى كنت مفطورا على الاندفاع ، وحب اللهو ، والاعتداد باستقلالى ، فلم أشأ أن أخضع للقيود التى كان يحتمها علىّ مركزى الجديد !.. وكان لى من شبابى ، ووسامتى ، وما توفر بين يدى من المال ، ما ضاعف هذا الاندفاع منى .. وما شجعنى على الإسراف ، والانغماس فى المقامرة !

وتعرفت يوما إلى نبيل بولندى شاب يدعى « زافويسكى » — سأعود إلى التحدث عنه فى جزء تال من مذكراتى — عرفنى بدوره بكونتس حسناء ، فتحت وزوجها لى أبواب قصرهما .. وأطمعنى ما كانت تبديه لى الكونتس من ود ، فرحت أتهور فى المقامرة على مائدتهما ، حتى جاءت ليلة خسرت فيها خمسمائة جنيه ، لم أكن أملك منها شيئا ، فوعدت بشرفى أن أدفع الدين فى الصباح التالى !

وتولانى كرب ما بعده كرب .. واشتد همى حين أقبل الصباح التالى ، ولما أجد مخرجا من هذا المأزق .. وأدرك ولى نعمتى ، مسيو « براجادين » ، ما أعانيه ، فلم يزل بى حتى أفضيت إليه بأمرى ، مختتما حديثى بأنى لن أحتمل أن أعيش حتى أرى الفضيحة تحيق بى ، والعار يصمنى لعجزى عن الوفاء بوعد الشرف . وأصغى الشيخ فى انتباه ، ثم تحول يسرى عنى ، مؤكدا أن الدين الذى كان سببا فى شقائى ، لن يلبث أن ينزاح عن عاتقى !

وفيما كنت أجلس إلى مائدة الغداء مع الأصدقاء الثلاثة فى ذلك اليوم ، أقبل خادم يحمل رسالة وطردا صغيرا إلى مسيو « براجادين » . وإذ قرأ الخطاب ، أشار إلىّ فتبعته إلى حجرة مكتبه ، وهناك دفع إلىّ بالطرد ، فوجدته — إذ فتحته — يتضمن أربعين جنيها . وضحك وهو يلمح دهشتى ، ثم أسلمنى الخطاب ، فقرأت فيه : « ليتأكد مسيو كازانوفا أن لعبنا بالأمس لم يكن سوى مجرد تسلية ، فهو ليس مدينا لى بشىء ، بل إن زوجتى لترسل إليه هذا المبلغ مقابل نصف ما خسر من جيبه ، إذ كانت شريكة له فى اللعب » !

وقال لى الشيخ : « إذا لعبت مرة أخرى ، على وعد ، فلا تدفع » .

— ولكن هذا يسبب فضيحة تودى بشرفى !

— إن هذا أدعى إلى أن لا تعد إذا وجدت أنك عاجز عن الدفع .. وفى هذا

إنقاذ لشرفك ومالك .

وأتبع درسه لى بأن راح يلقننى كيف ينبغى أن أتفادى الخسارة فى اللعب ! وبعد ثلاثة أشهر أو أربعة ، لقننى درسا آخر .. إذ حدث أن وفد على البندقية رجل فرنسى تقدم إلى الحكومة بالتماس تعيينه مفتشا لجيوش الجمهورية .. وإذ تعرفت به ، قدمته إلى مسيو « براجادين » الذى وعده بأن يساعده ، وفى ذات يوم ، وقعت فى ضائقة ، فطلبت من مسيو « براجادين » مائة جنيه ، ولكنه أشار علىّ بأن أسعى إلى اقتراضها من ذلك الفرنسى .. بيد أن الرجل راح يعتذر فى أسلوب معسول .. حتى إذا جاء اليوم الذى عرض فيه طلبه على مجلس الشيوخ ، حمل مسيو « براجادين » لواء المعارضة ، وأثار حماسة الأعضاء ، بأن ردد أن من العار أن يعهد إلى أجنبى بمثل هذا المنصب فى جيش (البندقية) !

وراح الفرنسى يطلق لسانه فى كل مكان بأن معارضة مسيو « براجادين » إنما انبعثت عن رفضه أن يقرضنى المائة جنيه .. ولم ينل هذا من سمعة ولى نعمتى ، ولكنه نبّه القوم إلى أهمية مركزى ، فأصبحت مقصد أصحاب الحاجات !

خاطئة .. تعترف لكازانوفا !

وفى أوائل أكتوبر سنة ١٧٤٦ ، كنت أسير وقناعى على وجهى ، حين لمحت سيدة شابة تغادر زورقا غريبا عن المدينة ، وقد بدت عليها الحيرة . وألفيتنى مدفوعا إليها بقوة خفية ، فاقتربت منها وسألتها عما إذا كانت بحاجة إلى أية خدمة ؟

وفى استحياء قالت إنها تريد الاستفسار عن بعض أمور عميت عليها ، لأنها غريبة عن المدينة .. فدعوتها إلى مقهى قريب ، رافقتنى إليه بعد تردد ، فقدتها إلى مقصورة خاصة ، حتى إذا خلونا فيها ، رفعت نقابى ، فخفضت نقابها حتى ظهر نصف وجهها . واستطعت أن أتبين أن لها أنفا دقيقا ، وعينين جميلتين ، وفما بديعا . وكانت ملامحها تنم عن حسن ، ونبل ، وأسى ، امتزجت معا فأضفت عليها فتنة ساحرة لا سبيل إلى وصفها !

وبعد أن جففت الحسناء دموعا كانت تفيض من عينيها ، ذكرت لى أنها من أسرة نبيلة ، من مدينة « ك .. » ، وأنها هاربة من أسرتها ، سعيا وراء شاب من (البندقية) أغواها ، وقضى عليها بشقاء أبدى !

قلت : « وهل جئت تناشدينه أن يقوم بالواجب ؟.. هل وعدك بالزواج ؟ » .

ـــ بل سجل وعده كتابة ، وهذا ما أغرانى على أن أمهد له سبيل التسلل إلى دارنا دون أن يشعر به أحد .. فاستغل ثقتى أشنع استغلال ..

ورحت أطمئنها حتى وثقت بى ، وإذ ذاك أخرجت من صدرها ورقة

تضمنت وعدا من « زانيتو ستيفانى » إلى الكونتيسة الشابة « ا. س. » ، يؤكد لها بشرفه أنه سوف يتزوج منها خلال شهر واحد ..

وأدركت أن ليس للورقة أية قيمة ، فقد كنت أعرف الشاب .. كان موظفا فى حكومة البندقية ، وكان وغدا نذلا ، ولكنه كان الوارث الوحيد لأم غنية !

وهتفت الفتاة ضارعة إذ رأت أنى أعرفه ، كى أصحبها إلى داره ، فقلت لها : « إننى لن أتوانى عن أن أفعل كل ما تطلبينه ، ولكنى أسألك أن تمنحينى كل ثقتك ، وأن تأخذى بنصحى .. لست أرى جدوى من الذهاب إلى داره . لقد ألحق بك أبلغ الضرر .. ولو أننا وجدناه فى داره ، فمن المحتمل أن يسىء استقبالك .. أما إذا لم يكن فى البيت ، فقد لا ترحب بك أمه . ثقى لى ، وتأكدى أن الله قد أرسلنى كى أساعدك ، وإنى لأعدك بأن آتيك بنبأ « ستيفانى » غدا . ولا أنصحك بأن تدعيه يعلم بوصولك إلى (البندقية) قبل أن أتجسس أمره » .

— يا إلٰهى !.. وإلى أين أذهب الليلة ؟

كنت أعرف أرملة أمينة ، تقية ، أفردت فى مسكنها حجرتين تؤجرهما للنزلاء . فما زلت بالكونتيسة الشابة حتى قبلت أن أقودها إلى هناك . وفيما كنا فى « الجندول » ، مضت تروى لى تفصيلات مأساتها .. فذكرت أن الشاب التقى بها فى زفاف حضرته بصحبة أمها ، وما لبث أن عرف بيتها ، فأخذ يتسلل كل ليلة ليقف تحت نافذتها يناجيها ، ويقسم أغلظ الأيمان على حبه ، ويمنحها المواثيق على صدق نيته فى الزواج منها . وكان كلما دعته أن يتقدم لأسرتها ينتحل شتى المعاذير .. ثم راح يغريها بأن تفر خلسة معه ، مؤكدا أنه لن تنقضى أيام ثلاثة على فرارها ، حتى يصل إلى أسرتها ما يؤكد أنها

قد غدت زوجة له ، ثم يعودان بعد أن تهدأ الضجة فيزوران أهلها ويسترضيانهم !

واستطردت الفتاة : « والآن ما جدوى الندم يا سيدى ؟!.. لقد أعمانى الهوى ، فترديت .. وافقته على كل شيء .. وأعطانى الورقة التى سجل فيها تعهده بالزواج ، فسمحت له بالتسلل إلى غرفتى ، وأسلمته نفسى ، واثقة من صدقه وإخلاصه !.. وتركنى على أن يوافينى فى الليلة التالية لنفر معا ، ولكنه لم يأت !.. وعلمت أنه غادر المدينة بعد أن وصمنى بعار أبدى . ولن تستطيع أن تتصور مدى حيرتى وقنوطى .. ولم يكن ثمة حل سوى واحد ، ومن ثم هربت من دار أهلى بعد يومين وسرت على قدمى أربعا وعشرين ساعة ، حتى عثرت على زورق قادم إلى (البندقية) .. ومع أن ظروفى كانت توجب على ألا أثق فى رجل ، ولا أطمئن إلى شاب ، إلا أن قوة خفية أوحت لى أن أركن إليك » !

وتمالكت أنفاسها ، وعادت تقول ضارعة : « هذه قصتى يا سيدى ، ولكننى أضرع إليك ألا تقسو فى حكمك على .. لقد كنت طيلة حياتى صالحة ، تقية ، عفّة .. وكنت إلى شهر مضى بريئة ، طاهرة .. وما أحسب إلا أن الدمع السخين الذى أذرفه ليل نهار ، كفيل بأن يمحو زلتى .. لدى الله على الأقل !.. إننى أسلمك زمامى ، وأدعو الله ألا يحدث ما يجعلنى أندم على ذلك » !

وعاودت جهودى لأبعث الطمأنينة فى نفسها ، وقلت لها إن خداع « ستيفانى » لها ، وهجره إياها فى نذالة ، لم يكونا سوى حلقتين من تدبير خبيث ، وإنها يجب أن تركز أفكارها فى أن تثأر لنفسها .. فارتجفت المسكينة ، وأخفت وجهها فى راحتيها .

تحريض .. على الثأر !

وبلغنا المنزل ، فأسلمتها إلى السيدة الطيبة ، وأمرت لها بعشاء ، وأوصيت صاحبة المسكن بأن تجيب كل طلباتها ، ثم استأذنت السيدة فى الانصراف ، على أن أوافيها فى الصباح التالى ..

وما أن بارحتها ، حتى يممت شطر دار « ستيفانى » ، فعلمت أنه كان بالفعل فى مدينة (ك ..) وعاد إلى البندقية ، ولكنه لم يلبث ثلاثة أيام حتى رحل ثانية ، منذ أربع وعشرين ساعة ، ولم يدر أحد مقصده أو شيئا عن رحلته !

وذهبت إلى الفتاة فى الصباح الباكر ، فوجدتها ما تزال فى مخدعها ، وقد أوصدت الباب دونها .. فظللت أنتظرها حتى نهضت من نومها ، وفتحت بابها ، وإذ ذاك استأذنت فى الدخول ، وأفضيت إليها بما علمت ..

وتبدى الأسى عميقا على محياها .. وأعربت عن يقينها من أن « ستيفانى » ولا ريب قد عاد إلى (ك ..) ، فأبديت لها استعدادى لأن أرحل خلفه لأدركه ، وأرشدها إلى مكانه . ولكنها خشيت أن يكون قد تبين فرارها ، فاتخذ طريقه عائدا إلى (البندقية) . واستدرجتها حتى عرفت أنها تقضى أوقات فراغها فى القراءة والموسيقى ، فما أن غادرتها ، حتى بادرت إلى شراء بعض الكتب ، وقيثارة ، ثم عدت إليها بها . وشعرت باغتباط ومتعة غريبة وأنا أتلقى شكرها ، وأرى التأثير الذى تركه فى نفسها ما أظهرت من اهتمام بالغ بها ، زعزع الفكرة السيئة التى كان « ستيفانى » قد تركها فى نفسها — بفعلته — عن الرجال !

وفى اليوم الثالث ، سألتنى فى غمرة ما كانت تضفيه علىّ من آيات الشكر والعرفان ، عما يدعونى إلى أن أبدى لها كل هذه الرعاية والعطف ، بدلا من أن أسيء الظن بها .. فقلت إن ما دعانى إلى ذلك ، هو عين ما دعاها إلى أن تطمئن إلىّ حين تقدمت إليها ، برغم أنها لم تكن تعرفنى ، ورغم اللثام الذى كان يعلو وجهى ..

واستطردت قائلا : « كان من السهل أن أحدس أنك حسناء فى محنة ، فلما رأيت شبابك ، ونبلك ، وأساك ، شعرت بقوة خفية تدفعنى إلى أن أساعدك .. وكان طابع الصدق الذى لازم كلماتك الأولى كفيلا بأن يجعلنى لا أرتاب قط فى قصتك .. ثم أن الشعور بالشرف والرغبة فى محو العار ، يبرران فرارك من أهلك .. إن الجبان الذى خدعك لا يستحق أن يتزوج منك ، بل يجب أن يدفع حياته جزاء جرمه ! » .

ــ هذا حق ، وأرجو أن يثأر لى أخى !

وعلمت أن لها أخا ضابطا فى خدمة البابا .. فقلت لها :

ــ تخطئين إذا ظننت أن « ستيفانى » يستحق أن ينازل أخاك .. إنه جبان لن يجرؤ على أن يعرض نفسه لأية ميتة شريفة نبيلة !

وإذ كنت أتكلم ، مدت يدها إلى أطواء ثيابها ، فأخرجت شيئا تأملته ، ثم وضعته على المنضدة .. وكان هذا الشيء خنجرا طوله خمسة عشر سنتيمترا !

عابد الجمال .. مخلص له !

نفذت عبارات الثقة التى أبدتها الفتاة إلى أعماق قلبى ، وقد كدت أهن للطيش والنزق .. على أننى حين زرتها بعد ظهر اليوم التالى ، ألفيتها أمام المرآة تتزين .. وكانت المرة الأولى التى أرى فيها وجهها بأكمله ، ونحرها ، ونصفى ذراعيها اللتين أجادت الطبيعة صوغهما .. ورأيت على منضدة الزينة خاتما فتناولته وأخذت أتأمله ، وإذا بى أشهد فيه إطارا يحوى صورة شخص يشبهها تمام الشبه ، وإن كان فى زى الرجال . وكأنما لاحظت ما دار بخلدى ، فقالت : « .. إنها صورة شقيقى الضابط فى الحرس البابوى .. إنه يكبرنى بعامين » !

وسألتها أن تسمح لى بأن أضع إصبعها فى الخاتم .. حتى إذا انتهيت ، وجدت من الشهامة أن أطبع قبلة على يدها ، وإذا بها تسحبها وقد تضرج وجهها . وخشيت أن تظن بى الظنون ، فرحت أؤكد لها احترامى .. وكأنما خشيت بدورها أن تكون قد آذت شعورى ، فجلست إلى القيثارة التى ابتعتها لها ، وأخذت تعزف بعض القطع ، فى دقة وبساطة المتمكنة من فنها .. وأسكرتنى النغمات ، فتوسلت إليها أن تغنى .. وليس بوسعى أن أصف عذوبة غنائها !.. ثم ألحفت فى أن تسمح لى بأن أقبل يدها ، فكانت القبلة التى طبعتها مزيجا من الحب ، والتقدير ، والاحترام ، والإعجاب !

وغادرتها وقد اشتدت بى تباريح الهوى، وعزمت على أن أسعى لمكاشفتها بوجدى .. ولكنى كنت أرجئ عزمى يوما بعد يوم .. إلى أن كان ذات صباح

زرتها فيه ، فأعربت لها عن عجبى لأنها لا تعرف عنى شيئا ، أنا الذى أنقذتها وأخذت أغدق عليها من كرمى !.. ومن ثم رحت أروى لها كل شىء عن نفسى .. وما لبث أن تحول الحديث إلى « ستيفان » ــ الحبيب الذى غرر بها ــ وكيف أن أحدا لا يعرف له مكانا ، فى حين أن أباها ولا بد يظنها مختفية معه .. وكانت عند ذكر « ستيفانى » تبدى اشمئزازا بالغا ، وأردفت أنها تحب أن تقضى ما بقى لها من عمر فى دير ناء ، حيث لا يعرف أحد فضيحتها المخزية !

السباحة .. فى بحر الهوى !

ولكن القدر كان ينفذ خطة أخرى .. فبينما كنت و « أبى » ــ الشيخ « براجادين » ــ وزميلاه حول مائدة العشاء فى ذلك المساء ، قال « باربارو » : « لقد جاءنى اليوم أحد رعايا البابا بتوصية خاصة ، كى أساعده بنفوذى فى مسألة دقيقة ، شائكة .. إذ يبدو أن أحد رعايا جمهوريتنا اختطف ابنته وفر بها ، وقد عزم الأب على أن يعرض المسألة على مجلس العشرة .. » .

وخفق قلبى ، ولكنى تظاهرت بعدم الاكتراث ، حتى إذا كان الصباح التالى ، بادرت مبكرا إلى حسنائى أحمل إليها النبأ ، فتوسلت إلى أن أحمل مسيو « باربارو » على أن يتوسط بينها وبين أبيها .. وأعطتنى التعهد الذى كتبه خادعها الوغد ، قاطعا فيه الوعد على نفسه بالزواج منها ، حتى يقوم دليلا لدى أبيها على أنها كانت ضحية ! وأخذت أفكر فى الخطة التى أنتهجها .. فإن تنفيذ رغبة الكونتة الشابة كان يقتضى البوح بأنها تحت رعايتى ..

وفى عصر ذلك اليوم جاء الكونت « ا. س. » ــ أبوها ــ يصحبه شقيقها ، الذى كان صورة دقيقة منها ، واختليا بمسيو « باربارو » ساعة ،

حتى إذا انصرفا ، تحايلت حتى استدرجت مسيو « باربارو » ليسألنى أن أكتشف الغيب وأستقرئ ما فيه بصدد هذا الموضوع . وتظاهرت بالاستغراق فى التأمل ، ثم قلت فى هدوء تام : « من واجبك أن تنصح الأب بأن يغفر لابنته ، وأن يتخلى عن كل فكرة ترمى إلى إجبارها على الزواج من الشاب الذى خدعها ، لأن الله قضى على هذا بالموت » .

وراق الرد للشيوخ الثلاثة . وقال مسيو « براجادين » لمسيو « باربارو » إنه يحسن به أن يدعو الكونت وابنه فى اليوم التالى للغداء ، ثم يسعى فى روية وحكمة لحمل الأب على الصفح عن ابنته .. وإذ وعد الشيخ بذلك ، تعهدت بدورى أن أسأل الأرواح عن مكان الفتاة . ثم أسرعت إليها أطلعها على التطورات .. وأمضيت الأمسية فى صحبتها ، وقد استبد بها الاغتباط لقرب ارتدادها إلى أبيها .. وأخذت تعرب عن مدى تقديرها لى ، واعترافها بفضلى ، فقلت :

ـــ كونى صريحة وقولى الحق .. إنك ما كنت لتترددى فى الارتياب فى شخصى لو أننى وقعت فى هواك ..

ـــ بل إننى لا أخشى شيئا سوى أن أفقدك !

وكان صوتها ووميض عينيها يؤكدان صدقها .. ووجدتنى أحتويها بين ذراعى وألصق شفتى بشفتيها .. وأسلمت نفسى للهوى الجارف ، أسبح على أمواج النشوة التى يزخر بها بحره .. وضاعف من نشوتى أن قرأت على وجه الحبيبة آيات الهناءة ، والحب ، والعاطفة المشبوبة !

وإذ انتصف الليل ، استأذنت فى الانصراف ، حرصا على سمعتها !!

الفتيات فى أمان .. مع كازانوفا !!

وتناول الكونت وابنه الغداء معنا فى اليوم التالى .. كان الابن آية فى الحسن ، ونبل الخلق ! وكان صورة طبق الأصل من أخته ، وقد سعيت لأكسب صداقته .. وإذ رأى الكونت الجو الذى يسود القصر ، اطمأن قلبه ، فراح يروى لنا قصته ، وكان من قبل قد قصر ثقته على مسيو « باربارو » .. ومضى يؤكد أن « ستيفانى » لم يلج داره قط ، وأنه كان قد عرف أنه أمضى ليلة تحت نافذة مخدع ابنته يناجيها ويغازلها .. وأخذ يتساءل : أى سحر فى الشاب جعل الفتاة تستجيب له بهذه السرعة ؟!.. وكان الأعجب من هذا أن الشاب غادر المدينة قبل فرار الفتاة بيومين .. ثم أخذ يردد وجوب قسر الشاب على الزواج من ضحيته !

وهنا قال مسيو « باربارو » : « ليس هناك ما يؤكد أن الفتاة تعيش مع الشاب الذى غرر بها .. ويخيل إلىّ أنه من الخير أن لا تصر على هذا الزواج القسرى الذى قد يقضى على ابنتك بشقاء أبدى ، إذ أن « ستيفانى » من أحقر الشبان الذين يعملون فى حكومتنا ومن أدناهم قدرا ! » .

وقال مسيو « براجادين » : « لو أننى كنت فى مكانك لتركت ندم ابنتى وتوبتها يطفآن جذوة غضبى ، ولصفحت عنها » .

ــ وأين هى ؟.. ما كنت لأتردد فى أن أغفر لها لو أنها جاءتنى تائبة .. ولكن ، كيف أتوقع منها التوبة وهى معه ؟.. لقد علمت من تحرياتى أنها جاءت فى قارب صغير لنقل البضائع ، وهبطت على مسافة عشرين ياردة من البوابة الرومانية ، حيث التقى بها شخص يخفى وجهه خلف قناع ، فسار

معها ، ثم .. اختفى كل أثر لها !.. على أننى لا أملك إلا أن أستبعد أن يكون ذلك الشخص هو « ستيفانى » ، لأن الأوصاف التى نميت إلىّ تخالف أوصاف « ستيفانى » .. لقد رأى هذا الشخص أربعة أفراد ، وحصروا شبهاتهم فى أربعة شبان ، هذه أسماؤهم ، وسوف أتهمهم أمام مجلس العشرة .. » .

وقرأ مسيو « باربارو » الأسماء ، فإذا اسمى بينها !.. وضحك أصدقائى الشيوخ الثلاثة ، وقال مسيو « براجادين » : « ها هو ذا كازانوفا .. ابنى ، وأقسم لك بشرفى أن لو كانت ابنتك فى رعايته فسوف تكون فى أمان !! » .

واستبدت الحيرة بالكونت وابنه .. وأخذ الأب يلحف فى الرجاء ، والدموع تنساب من عينيه ، أن أرشده إلى مقر ابنته ، فوعدته بأن أسعى للعثور عليها ، على أن يرجئ شكواه إلى مجلس العشرة ..

ساعات .. فى محراب الهوى !

وأسرعت بعد هذا الاجتماع إلى محبوبتى أروى لها بإسهاب ما دار . وكانت تبكى فرحا وهى تستعيدنى ما قاله والدها ، فوعدتها بأن أصحب أخاها إلى مقرها فى اليوم التالى . وتناولت عشائى معها ، ثم أمضينا ساعتين فى محراب الهوى . ولولا خشيتى من أن ترتاب صاحبة المنزل ، ما فارقتها !.. وما أن بلغت بيتى بعد منتصف الليل ، حتى ألفيت أصدقائى الشيوخ الثلاثة فى انتظارى ، وبادرنى مسيو « براجادين » قائلا إن نبوءتى قد صحت ، وإن « ستيفانى » مات ـــ بالنسبة للدنيا ـــ إذ غدا راهبا . فانتهزت فرصة إيمانهم بصحة اتصالى بالأرواح ـــ بعد هذا الدليل ! ـــ وقلت :

ـــ إذن ، فأنا الآن فى حل من أن أصارحك يا أبى العزيز ، بما كانت الأرواح تضطرنى إلى تكتمه من قبل !

ورويت لهم ما كان من أمر لقائى للفتاة ، ولم أكتم إلا ما رأيت أن ليس من شأنهم أن يعرفوه .. وقال مسيو « براجادين » :

ـــ إذن فلنبق مقرها سرا حتى نستوثق تماما من أن أباها قد غفر لها ، وأنه سيأخذها معه إلى مدينة (ك ..) .

قلت : « إنه لا يملك سوى أن يغفر لها ، لأنها لم تفر من أهلها إلا اعتمادا على وعد بخط الشاب تعهد فيه بأن يتزوجها .. وقد واتانى إلهام من الأرواح بأن أسعى إلى « البوابة الرومانية » ، فى نفس اللحظة التى غادرت فيها القارب وأن أدعوها لأن تتبعنى ، فسارت معى دون أن تمانع ، وكأنها هى الأخرى كانت

تطيع إرادة خفية روحية .. ومن ثم صحبتها إلى بيت مأمون ، وتركتها فى رعاية امرأة تقية ..

ونصحتهم بأن يدعوا الكونت فى اليوم بعد التالى للغداء .

رياضة غرامية .. فى الصباح !

ولم أنم إلا ساعات قلائل .. وما أن انبثقت أولى بوادر ضياء النهار ، حتى بادرت إلى حبيبتى .. وتلقتنى فى فراشها ، وعيناها تفيضان حبورا ، فلم نضيع الوقت ، ورحنا نثبت مدى حبنا ، وهوانا . وبعد رياضتنا الغرامية ، أفضيت إليها بالجديد من الأنباء . وأخيرا أدركنا أن وقت فراقنا لن يلبث أن يحين فى اليوم التالى ، فأشاع هذا أسى فى قلبينا ، رحنا نحاول إغراقه بإطلاق عواطفنا تتدفق كالسيل يجرف كل ما أمامه !

على أن الوقت مر سريعا .. وعندما عدت إلى دارنا ، وجدت الكونت وابنه فى زيارتنا ، وقد اشتد القلق بالأب فعاد يتعجل الرغبة فى رفع قضيته إلى مجلس العشرة . وكان هذا العزم سببا فى أن أفضينا إليه بأن ابنته فى رعايتى .

وفى الصباح المبكر التالى ، أسرعت إلى معبودتى ، فغرقنا فى بحر الغرام حتى الظهر ، حين اضطررت إلى مغادرتها ، لأن أباها وأخاها كانا مدعوين للغداء على مائدتنا ..

وعرض مسيو « براجادين » على الكونت الورقة التى كتبها « ستيفانى » للفتاة .. ومضى يشرح له قصتها ، مبررا فرارها ، فما كان من الرجل إلا أن هتفف متأثرا : « أواه !.. أكدوا لها أننى غفرت لها .. إن سعادتى أصبحت تتوقف على رؤيتها ! » .

وأكدت له أننى سأرد له ابنته فى اليوم التالى . ولكى يطمئن ، دعوت ابنه ومسيو « باربارو » إلى أن يصحبانى لزيارتها ..

وكان اللقاء بين الشقيقين مؤثرا .. وأخذت الفتاة تعرب لأخيها عن الصنيع الذى أديته لها ، وأسمتنى « ملاكها الحارس » .. وإذ تأهبنا للانصراف ، راحت تقول إنها تتعجل اللحظة التى ترتمى فيها على قدمَىْ أبيها !

وأمضيت سحابة النهار التالى مع الحبيبة ، نغترف أكبر قدر من ملذات الهوى قبل أن يقدر لنا الفراق .. ثم بارحتها فى المساء ، لأعود بأبيها وأخيها ومسيو « داندولو » ومسيو « باربارو » .. وما أن رأت أباها حتى ارتمت على قدميه .. فاندفع الرجل باكيا ، وأنهضها ليحتويها فى أحضانه ، ويغمرها بقبلاته ، ويؤكد لها صفحه !

مبارزة .. فى الليل !

بعد أيام ، ذهبت مع الشيوخ الثلاثة إلى « بادوا » لنقضى بضعة أيام .. وكاد الملل يقتلنى ، لولا أن وقعت فى حب غانية تدعى « إنسيلا » .. وكان الذى قدمنى لها ، شاب من عشاق اللهو مثلى ، يدعى « الكونت مدينى » .. وكان مقامرا عريقا ، ومن ثم رحنا نقضى ليالينا نحن الثلاثة فى اللعب ، إلى أن اكتشفت ذات مساء ، أنهما متآمران على الغش لابتزاز نقودى ، فشهرت مسدسى فى صدر الكونت وأجبرتهما على أن يردا كل ما أخذاه منى !

وبعد أن ردّا المال ، أخذت « الكونت » العزة بالإثم ، فدعانى إلى المبارزة . وخرجنا نسعى حتى وجدنا بقعة مناسبة ، فرحنا نتبارز تحت ضوء القمر ، حتى أصبت غريمى بجرح فى كتفه ، وأجبرته على أن يسألنى العفو !

وأفضيت إلى أبى فى الصباح بما جرى ، فنصحنى بأن أغادر « بادوا » فورا ، خشية نفوذ « الكونت مدينى » ـــ الذى ظل غريما لى بعد ذلك طيلة العمر ـــ ومن ثم رحلت إلى نابولى ..

وأمضيت ما تبقى من سنة ١٧٤٦ دون ما مغامرة تستحق الذكر ، اللهم إلا أننى وقعت فى هوى فتاة حسناء لم يلبث أن فرق بيننا زواجها من راقص فرنسى ، استوطن البندقية من أجلها ..

زواج .. بدون عقد !

وفى يناير سنة ١٧٤٧ ، وجدتنى فى ضيق شديد ، اضطرنى إلى أن أسعى إلى بلدة على بضعة أميال من البندقية ، تدعى (تريفيو) ، لأرهن خاتما لدى مراب كنت أثق فيه .. ولهذا خرجت فى الصباح الباكر ، وسرت إلى نهاية قناة (ريدجيو) ، لأستأجر « جندولا » يقلنى إلى (ميسترا) ، ومن هناك أستقل عربة تحملنى إلى (تريفيو) .

ومر بى « جندول » صغير ، رأيت فيه فتاة ريفية فى ثياب بديعة مع قس مسن ، فانحنيت لأتأملها ، وظن النوتى أننى أريد أن أنضم إلى راكبيه ، اقتصادا فى النفقات . ولم أتردد ، حين أوقف « الجندول » ، فى أن أهبط إليه .. ودفعت له ضعف ما طلب ، كى لا يسمح لأحد آخر بمشاطرتنا « الجندول » . وأراد القس أن يتنحى عن مجلسه ، ولكننى أبيت فى تأدب ، ليتاح لى أن أجلس أمام الفتاة ، التى كانت غاية فى البهاء .

واتصل الحديث بينى وبين القس ، فما لبثت الفتاة أن اطمأنت إلىّ .. وسرعان ما عرفت أن أباها مات تاركا إياها فى رعاية عمها القس ، فورثت عنه ثروة لا بأس بها .. كما أنها توشك أن ترث أمها التى طال بها المرض واقترب أجلها !

ورحت فى لباقة أطرى جمال الفتاة ، فإذا بها وعمها يضحكان .. وسألتهما فى دهشة عن سر الضحك ، فقالت « كريستينا » ، وهذا اسمها :

ــ لأن الغزل وإطراء حسنى هما كل ما فزت به من رجال (البندقية) ، ولكننى لم أصادف بينهم من لديه الجرأة على أن يثبت صدق تأثره بجمالى ،

فيقودنى إلى الكنيسة ليرتبط بى ويحظى بجمالى ، له وحده إلى نهاية العمر !..
لقد اضطررنا إلى أن نغادر (البندقية) — بعد أسبوعين — كما أتيناها !

وقال العم القس : « إن هذه الفتاة أهل لخير زوج ، سيما وأنها تملك ثلاثة آلاف جنيه .. ولكنها تصر على أن يكون زوجها من أهل (البندقية) .. ولقد أمضينا فى المدينة أسبوعين ، ترددنا خلالهما على عدد من الأسرات ، والتقت الفتاة بكثير من الشبان ، ولكن الذين أعجبت بهم لم يسألوها الزواج ، والذين طلبوها لم يروقوا لها ! » .

وإذ بلغنا نهاية الرحلة بالجندول ، قال القس إنه سيسير على قدميه إلى بلدته ، بعد أن يجد للفتاة مكانا فى إحدى العربات ، اقتصادا للنفقات .. فقلت :

— إنكما تسديان صنيعا لى ، لو قبلتما دعوتى إلى أن تصحبانى فى العربة التى سأستقلها .

ودعانا القس إلى القداس فى كنيسة القرية التى هبطنا بها . وفى طريقنا إليها ، قدمت ذراعى للفتاة ، قائلا — إذ رأيتها تتردد موجسة — : « إن أصول المجاملة تقتضى أن أقدم لك ذراعى تعتمدين عليها ، خشية أن يظن الناس أننا نجهل آداب السلوك » .

— أوَلا تخشى أن يرانا أحد من معارفك ، فيشى بك إلى حبيبتك ؟!

— ليست لى حبيبة .. ولن تكون لى فى المستقبل حبيبة ، لأننى لن ألقى فى (البندقية) حسناء فى مثل جمالك !

— ليتنى التقيت بك هناك ، فكانت تتاح لنا الفرصة كى يدرس كل منا صاحبه ، وكى يطمئن عمى إلى مركزك ..

— إننى على استعداد لأن أتحمل نفقات عودتكما إليها ..

— أجاد أنت فى قولك ؟.. إذن ، فقل لعمى ..

— وهل تقبلين شابا مثلى زوجا ؟.. هل تظنين أنك ستحبيننى ؟

— أجل ، سأحبك كل الحب إذا ما تزوجتنى !

وتطلعت إلى الفتاة مأخوذا .. كانت فاتنة .. وكانت ساذجة !

وتعمدت أن أدعوهما خلال الرحلة إلى فندق ريفى صغير ، غير مطروق . وجلست أمام الفتاة ، حين ضمتنا مائدة العشاء ، فأخذت أكتشف مزيدا من آيات فتنتها ، ومن ثم قلت لعمها :

— إننى أنصحك يا أبى بأن تصحب ابنة أخيك ثانية إلى (البندقية) ، وسأتكفل بنفقاتكما ، كما سأدلك على سيدة تقية ، طيبة ، تستطيع أن تأتمنها على الآنسة « كريستينا » ، فإننى أريد أن تتاح لى فرصة دراسة شخصيتها عسى أن أتخذها زوجة ..

وإذ أبدى الرجل رضاءه ، وعدته بأن أكتب له خلال أسبوع .

ودعوت صاحب الفندق لأحجز غرفتين ، ولكنه قال إنه لا يملك سوى غرفة واحدة ، فأظهر القس الطيب أنه لا يمانع فى أن ننام معا ، فسوف يشغل وابنة أخيه سريرا ، ويدعان لى السرير الثانى ..

وسمعت الفتاة فى الظلام تتودد إلى عمها وتلاطفه .. وما لبث القس الطيب أن ضحك قائلا : « أتعرف ماذا تحاول ابنة أخى ؟.. إننى كنت سأعرج على بلدة أخرى فى طريقنا إلى بلدتنا ، وهى تحاول أن تقنعنى بأن أعفيها من عناء السفر ، فأذهب لأداء مهمتى ثم أعود لأصحبها إلى بلدتنا ، قائلة إن بوسعى أن أطمئن عليها فى رعاية سيد نبيل كريم مثلك » !

قلت : « إننى إذ أشكر لكما هذه الثقة ، أعتقد أن ليس لك أن تخشى على فتاة عاقلة حكيمة مثلها » .

قال : « الحق أنكما أهل للثقة . إذن سأدعها لرعايتك يا سيدى ، وسأعود فى صباح بعد باكر » .

وأمضيت نهاية اليوم التالى وأنا أحرم نفسى من استغلال أية فرصة ، وأنا فى صحبة زميلتى الحسناء . ولكننى كنت أزداد تدلها ووجدا بها ، دقيقة بعد أخرى .. وما أرانى بحاجة إلى أن أذكر أننى عوضت نفسى عن هذا الحرمان ، حين انفردنا فى غرفتنا .. وكانت النشوة أقوى من أن نفطن فى غمرتها إلى الحدود التى كان ينبغى أن نقف عندها ..

وهتفت « كريستينا » إذ أفقنا من نشوتنا : « ماذا فعلنا ؟ » .

ـــ أصبحنا زوجين !!

ـــ وماذا يقول عمى حين يأتى ؟

ـــ لا داعى لأن يعرف شيئا ، إلى أن يبارك زواجنا !

ولكنها ما لبثت أن أخلدت إلى وجوم رابنى ، فسألتها عما أصابها ، وإذ ذاك قالت : « إن ما جرى بيننا خليق بأن يجعلنا نعمل على عقد الزواج بأسرع ما نستطيع . ولكنك تعرف أننا الآن فى أواخر أعياد « الكرنفال » ، وسيتبعها الصوم الكبير ، ومن ثم فلن يتاح لنا أن نتزوج قبل عيد الفصح ..

قلت : « فى وسعنا أن نحصل على إذن خاص .. »

فقبلتنى فى تقدير .. ولا أكتم إننى ، وقد أشبعت وجدى ، بدأت أشعر بالندم على التورط ، وبالرغبة فى البحث عن منفذ . على أننى لم أكن أقوى على أن أسلم تلك الفتاة الساذجة للشقاء .

وإذ عاد عمها ، وعدته بأن أتصل به فى الأيام الأولى للموسم الكبير .. وأسرعت عائدا إلى البندقية ، فوجدت أصدقائى الشيوخ الثلاثة أشد ما يكونون شوقا لرؤيتى ، وقلقا علىّ ، إذ لم أكن قد أنبأتهم بأننى سأتغيب عنهم ليلتين .

« كازانوفا » يبحث عن زوج لحبيبته !

وفى اليوم التالى ، خطرت لى فكرة تمكننى من أن أحقق السعادة لكريستينا دون أن أضطر إلى الزواج منها . وفى المساء ، جلست إلى الشيوخ الثلاثة ، الذين راحوا يسألوننى أن أستشير الأرواح فى بعض المسائل . وفجأة قلت لهم : « بهذه المناسبة ، لقد تعهدت لفتاة طيبة بأن أحصل لها إذن بابوى لعقد قرانها خلال الصوم الكبير ، فى كنيسة قريتها .. إن عمها يريد أن يزوجها ليطمئن عليها ، وإن كان لم يجد لها بعد زوجا .. »

ووعدنى « أبى » بأن يكتب إلى روما ليطلب من سفير البندقية أن يسعى للحصول على هذا الإذن . وإذ ذاك تظاهرت بأننى أستغرق فى غيبوبة روحية ، ثم قلت : « إن الأرواح تكلفنا نحن الأربعة أن نبحث لها عن زوج ! » .

وواتانى الحظ فى اللعب بألف جنيه بندق ، فسددت ديونى ، وبدأت الراحة تعاود بالى . وإن هى إلا عشرة أيام ، حتى وصل الإذن البابوى لكريستينا بأن تعقد قرانها خلال فترة الصوم الكبير . ولم يبق إلا تعيين الزوج .

وبادرت أكتب إلى القس كى يلقانى فى (تريفيو) .. ولم أدهش حين وجدت ابنة أخيه معه ، إذ ظننت أنى أعددت العدة لزواجها منى ، حتى إنها تلقتنى بالعناق والقبلات .. ولو لم يكن عمها حاضرا ، لانصهرت إرادتى ، وارتضيت أن أكون زوجها ، فقد عاد جمالها يخلب لبى !

العثور على الضحية !

وفى اليوم التالى ، سنحت لنا فرصة خلونا فيها ، بيد أننى وقد عقدت العزم على أن لا أكون زوجها ، استطعت أن أكبح جماح نزواتى .. وغادرتها وعمها فى ذلك اليوم ، على أن أعود إليهما بعد عشرة أيام .

وفى يوم الأحد الثانى ، فى فترة الصوم الكبير ، عثر مسيو « داندولو » على شاب رشحه لأن يكوْن زوجا لكريستينا .. وكان حسن الخلق ، مليح الوجه ، فى الثانية والعشرين من عمره ، يتيم الوالدين ، وفى حاجة إلى زوجة صالحة تعنى به ، وتكون ذات ثروة تمكنه من أن يؤسس مكتبا للمحاماة والتسجيلات القضائية . وعرفنى فى اليوم التالى بالشاب ، فوجدته صالحا من كل النواحى .. وملت إليه ، فتوثقت بيننا أواصر الود . وإذ أنبأه مسيو « داندولو » بأن أمر العروس التى ينشدها فى يدى ، ألح فى أن أقدمه إليها ، فسألته أن يفرد يوما لهذه الزيارة . وصحبته فى ذلك اليوم إلى قرية القس ، فبلغناها قبل منتصف النهار بساعتين . وما أن استقررنا بدار القس ، حتى أقبلت « كريستينا » فحيتنى فى شوق ، وهى تجهل ما دبرت . على أننى ما لبثت أن تحينت فرصة خلوت إليها فيها لأوصيها بأن تتحفظ إذا ما اجتمعنا حول مائدة الغداء ، لأن زميلى قد يكون الزوج الذى أراده الله لها !

وفى وسع القارئ أن يتصور مدى الألم الذى كنت أعانيه وأنا أفضى إليها بهذا . ولكن الأدعى للدهشة هو ذلك المسلك الذى واجهت به الموقف ، فقد

تلقت النبأ فى سكون ورزانة .. وبعد وجوم قصير ، سألتنى : « إن هذا التطور جد غريب . هل أنبأت عمى به ؟ .. ثم ، متى يتم الزواج إذا أنا رقت فى نظر صاحبك ؟ » .

ووعدتها بأن أنبئ عمها بما جد ، وأن أعمل على أن يكون الزواج خلال عشرة أيام .. فقد أدركت ما كان يقلقها : كانت تخشى أن تكون علاقتنا ذات ثمرة !

مبارزة .. بسبب عشيقة قديمة !

غادرت البندقية ذات مساء ، فلم ينقض يومان حتى بلغت (مانتوا) . وكنت وحيدا ، أحمل الكثير من الثياب والجواهر والمال .. ومع أنى لم أكن أعرف أحدا هناك ، إلا أنى كنت أحظى بجرأة وصحة الشاب الذى لم يجاوز الربيع الثالث والعشرين من عمره .. لذلك نزلت فى فندق كبير ، وبعد أن تناولت عشاء فخما ، خرجت للنزهة ، ثم ذهبت إلى المسرح .. وشد ما كان اغتباطى حين شاهدت « مارينا » ـــ صديقتى القديمة التى رويت مغامرتى معها فى حلقة سابقة ـــ تؤدى لونا من الرقص والمرح ، بين تصفيق المفتونين بجمالها . ولما كان حسنها قد نضج ، فقد عولت على أن أجدد علاقتى معها ، واستأجرت من أرشدنى إلى دارها فى نهاية السهرة .. فوجدتها تجلس إلى مائدة العشاء مع شخص .. ولكنها لم تكد ترانى حتى قفزت من مكانها وأخذت تحتضننى وتغرقنى بالقبلات .. فقابلت استقبالها بمثله ، بعد إذ اطمأننت إلى أنها لم تكن تعبأ بجليسها . وأجلستنى إلى جوارها ، فسألتها عن زميلها ، وقد ساءنى أن لم يبادر بتحيتى ..

وأجابت : « إنه « كونت شيلى » من روما .. وهو عشيقى ! » .

فتحولت إلى الرجل أهنئه بحظه وأداعبه قائلا : « لا يسوؤنك هذا اللقاء الحار بيننا ، فإن مارينا ابنتى » !

فأجاب : « بل هى عاهرة » !!

قالت لى الفتاة فى لهجة لاذعة : « صدقه .. فإنه النذل الذى يأتينى

بالرجال » !

وقذفها الوغد بسكين ، فتحاشتها ، وإذ جرى وراءها ، شهرت سيفي في طريقه .. واتفقنا على أن نلتقي في كازينو « بومي » في اليوم التالي لنسوي حسابنا .. وإذ هممت بالانصراف ، تشبثت « مارينا » بي ، وألحت في أن أصحبها معي ، فأنزلتها في غرفة ملاصقة لغرفتي في الفندق . وأمرت بعشاء ، ثم سألتها عن قصتها مع « الكونت شيلي » ، فروت لي أنه مقامر محترف ، ينتحل لقب « الكونت » ، وقد استدرجها بلقبه المزعوم حتى أصبحت عشيقته ، فأخذ يستغلها في غشي ضحاياه في الميسر !

واختتمت قصتها قائلة : « سأكون لك وحدك منذ الليلة ، إذا كنت لا تزال على ما كنت عليه في (كورفو) من عزوبة ، وكنت لا تزال تحبني » .. فلما اطمأنت إلى حبي ، راحت تؤكد لي أن ذلك الوغد لن يفي بوعده للمبارزة .. ولكني لم أشأ أن أركن إلى تأكيدها ، بل وضعت كل ما أملك من مال ومجوهرات في جيبي ، وذهبت إلى « الكازينو ». ولم يكن « الكونت » الزائف قد وصل بعد . على أنني صادفت فرنسيا مليحا طاب لي أن أتحدث إليه . وما لبث أن جاء الشقي ومعه شخص يحمل سيفا طويلا ، ويبدو عليه مظهر الأشقياء .. وذهبنا إلى بقعة مناسبة .. وبينما انهمكت في مبارزة غريمي ، تحرش زميله الشقي بالفرنسي معيرا إياه بأنه يحترف الرقص ، فسرعان ما أخذا يتبارزان هما الآخران .. وانتهى الصراع بتغلبي والفرنسي على النذلين .. » .

* * *

وتوثقت العلاقات بين « كازانوفا » والفرنسي الذي تبين أنه راقص مشهور يدعى « باليتي » .. ولم يلبث أن أعجب بمارينا ، وابتكر رقصة بديعة يظهران فيها معا .. وإذ رأى « كازانوفا » أن أمامهما مستقبلا في (ميلان) ،

تركهما يرحلان معا ، وبقى فى (مانتوا) . وحدث ذات مساء ، أن تأخر فى الخارج دون أن يكون معه مصباح ، وكانت القوانين تحتم على كل من يسير فى الطريق أثناء الليل أن يحمل مصباحا ، ومن ثم قبض عليه أحد رجال الشرطة . وكان ضابط البوليس شابا لطيفا ، مرحا ، لم يملك أن يطلق سراحه ، ولكنه استبقاه كضيف ، ودعاه إلى عشاء بهيج ، انضم إليهما فيه ضابطان آخران ، وامرأتان مبتذلتان . حتى إذا فرغوا من العشاء ، انتظموا حول مائدة للمقامرة .. وخرج « كازانوفا » فى نهاية السهرة وقد ربح فى الميسر ، ولكنه أصيب بعدوى مرض من إحدى المرأتين ، قضى ستة أسابيع قبل أن يبرأ منه !

مغامرة .. من نوع جديد !

« وقضيت عيد الفصح فى (مانتوا) .. وبعد افتتاح موسم الأوبرا ، تبينت أن كيس نقودى ما زال مفعما بالمال ، فقررت أن أرحل إلى (نابولى) لأزور عزيزتى (تيريز) و « دونا لوكريسيا » . و « دون أنتونيو كازانوفا » ، وصديقى الشاعر الصغير « بالو » وأباه .. ولكننى فى الليلة السابقة على الرحيل ، ذهبت إلى « الأوبرا » فإذا بى أصادف ما جعلنى أعدل عن الرحلة . ففيما كنت أتهيأ لمغادرة دار المسرح ، اقترب منى شاب بادرنى ــ دون أى تعارف أو مقدمات ــ بأن من الخطأ أن أقضى شهرين فى « مانتوا » دون أن أشهد مجموعة التاريخ الطبيعى التى يقتنيها أبوه .. « دون أنطونيو كابيتانى » .. النائب الأسقفى .

وواعدته على أن يوافينى فى الصباح التالى .. وبالفعل جاء فصحبنى إلى حيث التقيت بأبيه الذى أدركت لأول وهلة أنه كان ذا نزوات تهوسية . كانت مجموعته تتألف من كتب السحر ، وبعض التمائم والعملات القديمة ، ونموذج لسفينة نوح فى مستقرها على جبل « أرارات » بأرمينيا ، وبضع من ميداليات نقشت عليها صور « سيزوستريس » و « سميراميس » ، وخنجر قديم غريب الشكل قد علاه الصدأ .

ولم أتمالك أن سألته عن علاقة هذه الأشياء بالتاريخ الطبيعى ، فطفق يلقى علىّ شرحا طويلا مليئا بالمعلومات المشوشة ، حتى انتهى إلى الخنجر فزعم أنه عين الخنجر الذى قطع به القديس بطرس أذن الحارس الذى أراد القبض على

السيد المسيح !

وهتفت : « وكيف لم تصب ثراء وأنت تملك هذا الخنجر ؟.. إن لذلك طريقتين : أولاهما ، أنك بهذا الامتياز تملك حق الاستيلاء على الكنوز الدفينة تحت الأرض ، في البلدان الخاضعة لسلطان الكنيسة .. والثانية ، أن بوسعك أن تبيع الخنجر للبابا ، إذا كنت تملك الدليل على أصله » !

ــ تقصد « الرق » القديم الذى كتب عليه أصله ؟.. إننى أملكه ..

ــ إذن ، فلست أشك فى أن البابا على استعداد لأن يعين ابنك كاردينالا فى سبيل اقتناء هذا الخنجر .. هل لديك غمده ؟

ــ لا .. على إننى لا أراه ضروريا .. ثم إننى صنعت له غمدا !

ــ لا قيمة لهذا ، إذ لا بد من عين الغمد الذى غيب فيه القديس بطرس الخنجر .. إن هذا الغمد موجود ، وهو فى حوزة شخص على استعداد لأن يبيعه بثمن معقول ، أو أن يبتاع الخنجر .. إذ لا جدوى ولا قيمة لأحدهما بدون الآخر !

ــ وكم يطلب ثمنا للغمد ؟

ــ ألف قطعة ذهبية من عملة البندقية .

ــ وكم تراه يدفع ثمنا للخنجر ؟

ــ ألف قطعة .. لأن كلا منهما يعادل الآخر فى القيمة .

وتولت الرجل دهشة مشوبة بالحماس ، ففتح درجا أخرج منه مخطوطا قديما كتب باللغة العبرية ، واشتمل على رسم دقيق للخنجر .. فتظاهرت بالدهشة ، وازددت تحمسا فى نصحه بشراء الغمد ، ولكنه قال :

ــ لا داعى لأن أشترى الغمد ، أو أن يسعى صديقك إلى شراء الخنجر .. إننا نستطيع أن نتشاطر حق التنقيب عن الكنوز الدفينة .

فقلت له إن الطلسم الذى عقد بمقتضاه السحر الذى أخفيت بقوته الكنوز تحت الأرض ، يحتم أن يكون الخنجر والغمد فى حوزة شخص واحد .. فإذا قدر للبابا أن يملك الاثنين ، فسيغدو بوسعه — بطريقة سحرية أعرفها — أن يقطع إحدى أذنى كل ملك مسيحى تخالجه الرغبة فى العدوان على حقوق الكنيسة !

« كازانوفا » .. الساحر المزعوم !

وإذ أبدى ميله لبيع الخنجر ، وعدته بأن آتيه بالثمن فى منتصف النهار التالى ، على أن يكون النصف نقدا ، والنصف الآخر بمقتضى سند قابل للدفع بعد شهر واحد .. وغادرته وقد ازددت شوقا إلى المضى فى الدعاية الخادعة حتى النهاية .. وبالفعل عدت إليه فى اليوم التالى ، فكان أول ما بادرنى به أنه علم أن ثمة كنزا هائلا مدفونا فى بقعة من الأراضى الخاضعة للبابا ، ومن ثم فقد رأى أن من الأفضل أن يشترى الغمد . وإذ اطمأننت إلى أنه عدل عن بيع الخنجر ، أخرجت كيسا مملوءا بالعملة الذهبية ، وقلت إننى كنت متأهبا لشراء الخنجر .. وإذ ذاك قال إن رجلا يقيم فى أراضى البابا قد أرسل له خطابا يعرب فيه عن يقينه بأن ثمة كنزا تحت أرض قبو داره .. وقرأ على ابنه بعض فقرات من الخطاب محتفظا بباقى المعلومات ، ولكننى استطعت أن ألمح اسم قرية الرجل ، وهى (شيزينا) .. وعاد صاحب الخنجر يقول :

— إن كل ما تمس إليه الحاجة الآن ، هو أن تتيح لى فرصة الحصول على الغمد بضمان منك ، لأننى لا أملك مالا .. وإذا أرشدتنى إلى الساحر الذى يعرف كيف يفك السحر عن الكنز ، تقاسمت وإياه الثروة !

قلت له : « أنا الذى أعرف السحر ، ولكن لا سبيل إلى الاتفاق ما لم تدفع لى خمسمائة قطعة ذهبية فورا ، أو أن تبيعنى الخنجر ! » .

وإذ رفض الرجل ، هددته بأن بوسعى أن أنتزع الخنجر منه بقوة السحر ، فلما تحدانى قلت له : « إذن ، فسيكون الخنجر فى حوزتى غدا ، وإذ ذاك لا تطمع فى أن تراه ثانية ! » .

يزور وثيقة عن الكنز الموهوم !

وتحدى الرجل مرة أخرى مقدرتى على الاتصال بالأرواح ، وطلب برهانا ، فتظاهرت بأننى أستغرق فى غيبوبة ، حتى إذا أفقت قلت له إن الأرواح أنبأتنى بأن الكنز غير بعيد عن (روبيكون) ، وهو مجرى قديم لنهر غاض ماؤه ، فرجع وابنه إلى كتاب تبينا منه أن هذا النهر كان يجرى يوما على مقربة من قرية (شيزينا) .. وإذ ذاك استولت عليهما دهشة طاغية .. بينما انصرفت من لدنهما .

ولم يكن فى نيتى أن أغتصب خمسمائة قطعة ذهبية من الأحمق وابنه ، وإنما كانت خطتى تتمثل فى أن آخذ منهما المبلغ فأدفنه فى دار أحمق آخر ، ثم أتظاهر بالكشف عنه ككنز قديم ، وأضحك من ثلاثتهم ، فقد تولتنى رغبة فى أن أتظاهر بالدراية فى السحر . وما أن فارقتهما حتى يممت شطر مكتبة عامة ، فاستعنت بكتاب قديم فى اختلاق وثيقة مزورة جاء فيها :

« إن الكنز مدفون على عمق سبع عشرة عقدة ونصف العقدة من سطح الأرض ، وقد ظل فى مكانه هذا ستة قرون . وتقدر قيمته بنحو مليونى قطعة ذهبية ، وهو فى صندوق كان « جودفرى دوبوبيون » قد أخذه من « ماتيلدا »

كونتة توسكانى ، فى سنة ١٠٨١ ، عندما أقدم على مساعدة هنرى الرابع فى التغلب على الأميرة . وقد دفن الصندوق بيديه قبل أن يخرج ليشترك فى حصار بيت المقدس . ونمى إلى جريجورى السابع ــ الذى كان ساحرا ماهرا ــ أمر الكنز فأصر على أن يستولى عليه ، ولكن الموت حال دون تنفيذ عزمه . وفى وسع ساحر أن يكشف عن الكنز فى ليلة يكون فيها القمر بدرا ، بأن يقف وسط الدائرة السحرية ، فيرتفع الكنز إلى سطح الأرض » .

الساحر المسحور بفتنة عذراء ريفية !

وصح ما توقعت ، إذ أقبل الرجل وابنه فى الصباح الباكر ، فأطلعتهما على تلك السطور ، وأظهرت استعدادى لأن أنزل لهما عن ربع الكنز إذا هما ابتاعا غمد الخنجر ، وعدت إلى التهديد بالاستيلاء على الخنجر ذاته .

وشيئا فشيئا ، استولى الطمع تماما على نفس الشيخ المأفون فاتفقنا على أن يعهد بالخنجر إلى ابنه ، على أن يصحبنى هذا إلى (شيزينا) حيث يقوم بيت صديقهما الذى زعم أن الكنز مدفون تحت داره .. ورحلت مع الابن ، فتلقانا الفلاح بالترحاب .. ووعدت الرجل بأن يكون له مثل نصيب « كابيتانى » .. أى ربع ثان من الكنز . ثم طلب أن يفرد لى وحدى حجرة ذات سريرين ، تتصل بها حجرة داخلية مجهزة بأدوات الاستحمام ، فى الطرف الأقصى من الدار ، على أن تزود بمنضدتين صغيرتين وثالثة كبيرة ، وأن يبحث لى عن فتاة ، عذراء ، تجيد الحياكة ، وتتراوح سنها بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، على أن تكون أمينة على السر ، حتى لا يتسرب إلى السلطات شىء من أعمالنا .. وأضفت قائلا : « لسوف نقضى ليلتنا فى فندق القرية ، على أن

أحتل حجرتى هنا غدا ، فأوفد خادما أمينا فى الصباح لينقل متاعى .. ولن يلزمنى سوى وجبتين فى اليوم ، وأعدك بأن أدفع نفقات إقامتى لديك إذا لم نوفق إلى استخراج الكنز . وأرجو أن تضع فى البيت مائة شمعة جديدة وثلاثة مشاعل تكون رهن أمرى » .

وانتقلنا فى اليوم التالى إلى ضيافة الفلاح الغنى ، وكان يدعى « فرانتسيا » ، فأولم لنا الساذج مأدبة فخمة جعلتنى أنصحه بالاقتصاد .. وبعد العشاء ، قال لى إنه لا يجد عذراء يأتمنها على السر — وفقا لتعليماتى — خيرا من ابنته الكبرى « جافوتى » التى تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها ، فقلت له :

— لا بأس .. والآن ، ما الذى يجعلك تعتقد أن الكنز مدفون تحت دارك ؟

— هناك أولا حكايات تناقلتها أسرتنا من أب إلى ابن خلال الأجيال الثمانية الأخيرة .. وهناك — ثانيا — أصوات غريبة نسمعها فى الليل منبعثة من تحت الأرض ..

وأظهرت اقتناعا ، ثم تماديت فى تمثيل دور الساحر ، وما لبثت أن أخرجت مفكرتى وأوهمتهم أنها كتاب سحرى دعوتهم لكى يقسموا عليه بأنهم طاهرون ، أوفياء ، كما جعلت « جافوتى » تقسم بأنها عذراء .. حتى إذا لاحظت ما اعتراها من خجل ، رحت أشرح لها قيمة ذلك بالنسبة للعمل العظيم الذى كنت مقدما عليه .. ثم دعوت رب البيت و « كابيتانى » و « جافوتى » إلى اتباع نظام يوجب أن يتناول كل واحد منهم عشاءه معى ليلة ، متبعين فى الدور ترتيب أعمارهم ، وعلى أن لا يتناول من يكون عليه الدور طعاما طيلة اليوم السابق على ليلة عشائه معى ، ثم أن يسمح لى بأن أغسل جسمه فى الغرفة الملحقة بغرفتى قبل العشاء بنصف ساعة !.. كما اشترطت أن تنام « جافوتى » فى تلك الغرفة فى كل ليلة . ثم أعددت قائمة

بلوازم دعوت « فرانتسيا » إلى أن يبتاعها لى بنفسه ، وكان بينها قطعة من الكتان طولها بين ٢٠ ، ٣٠ ياردة ، وخيط ، ومقص ، وإبر ، وورق ، وريش للكتابة ومداد ، وبعض الأعشاب والعطور ، وقدر من زيت الزيتون ، وغصن من شجر الزيتون يبلغ طوله ١٨ بوصة !

وقبل ظهر اليوم التالى ، كان الرجل الطيب قد أحضر كل هذه الأشياء ، فدعوت « جافوتى » إلى غرفتى ، وأمرتها أن تقطع القماش إلى سبع قطع ، أربع منها طولها أربعة أقدام ، وقطعتان طولهما قدمان ، والقطعة الباقية تحاك على شكل « طرطور » للثوب الذى سأرتديه حين أقوم بالعملية الكبرى . وطلبت إليها أن تتناول الغداء فى حجرتى ، وأن تلزمها طيلة يومها ، فلا تبرحها إلا حين يفد أبوها ليتناول العشاء معى . ثم تعود بمجرد انصرافه ، وتلج الغرفة الداخلية فتنام .

وسارت الأمور كما أهوى .. وفى المساء ، تركنى الرجل الساذج أغسل جسمه ، ثم تناول العشاء معى فى نهم ، قائلا إنها المرة الأولى التى استطاع أن يصوم فيها عن الطعام يوما كاملا .. وتحت تأثير النبيذ ، نام ـــ بعد أن غادر حجرتى ـــ نوما عميقا حتى الصباح ..

« كازانوفا » يطهر الفتاة العذراء !!

وظلت « جافوتى » طيلة اليوم التالى منهمكة فى الحياكة فى غرفتى فلم تبرحها حتى أقبل « كابيتانى » للعشاء ، ففعلت به ما فعلت برب البيت فى الليلة السالفة .. حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، حان دور « جافوتى » .. وقبل العشاء بنصف ساعة ، قلت لها :

ــ الآن اذهبى إلى الحمام ، ونادينى إذا ما أصبحت على استعداد كى أطهرك كما طهرت أباك و « كابيتانى » ..

وغسلت كل جزء من جسمها وأنا أتمتم بكلمات غير مفهومة .. وكان قوامها بديعا ، فلاقيت عناء شديدا كى لا أكشف انفعالاتى . وتعمدت أن أجرى راحتى طويلا على المواضع الحساسة ، حتى اتقدت الدماء فى عروق الفتاة .. وكان كبح جماح نفسى من أقسى الواجبات !

وإذ كانت صائمة طول يومها ، فقد أقبلت على الطعام فى نهم ، وأسرفت فى احتساء النبيذ حتى تورد وجهها ، وقلت لها إذ فرغت من العشاء : « ترى هل تضايقت يا عزيزتى جافوتى مما اضطررت إلى عمله الليلة ؟ » .

فأجابت : « أبدا .. بل إننى ارتحت إليه » !

ــ إذن ، أرجو أن لا تجدى مانعا من أن تغسلى جسمى ليلة غد كما فعلت بك اليوم .. وفى المستقبل ، آمل أن تنامى فى غرفتى ، حتى أتأكد من أننى سأجدك ليلة العملية الكبرى كما ينبغى أن تكونى ..

ومنذ تلك الساعة اطمأنت الفتاة إلىّ ، وأصبحت تبتسم لى ، فقد فعلت الطبيعة فعلها فى ذهن الفتاة العذراء .. وأوت فى تلك الليلة إلى أحد السريرين اللذين فى غرفتى فى غير حياء ، إذ لم يعد لديها ما تخفيه عنى بعد أن وقفت أمامى عارية فى الحمام !.: وكان من أقسى الأمور على نفسى ، ألا ألتمس المتعة قبل ليلة « العملية الكبرى » .

وقضت الفتاة يومها التالى فى الحياكة .. حتى إذا ما اقترب موعد العشاء ، ذهبت أنا إلى الحمام ، وما أن جلست فى المغسل حتى ناديتها ، فأقبلت تغسل جسمى .. وكانت لمساتها لطيفة ، أنعشتنى ، ولكننى حرصت على أن أكبح عواطفى !

بدء التجربة الكبرى !

ثم جاء اليوم الذى كان مقدرا للقمر أن يكتمل فى ليله .. وفى النهار ، استخدمت الورق فى عمل دائرة كبيرة وأخذت أرسم عليها بالمداد أشكالا غريبة .. حتى إذا أقبل الليل ، ارتديت الثوب الذى صنعته يدا عذراء طاهرة ، وتناولت عصا الزيتون فى يدى اليمنى والخنجر فى يدى اليسرى ، وحملت الدائرة الورقية ثم خرجت إلى ساحة الدار ، بعد أن سألت « فرانتسيا » و « كابيتانى » أن يقفا فى الشرفة حتى لا يسترق أحد النظر إلىّ .. ثم وضعت الدائرة الورقية على أرض الساحة ، وأوقدت نارا فى بعض الأعشاب العطرية ، ورحت أدور حول الدائرة عدة مرات ، ثم قفزت فى منتصفها ، وأنا لا أكف عن التمتمة والهمهمة .. وبقيت جامدا بضع دقائق ، ثم سمعت رعدا قاصفا ، فرفعت بصرى ، وإذا السحاب ينعقد فى الغرب ، ولا يلبث أن ينتشر سريعا ، والبرق يسرى فى أرجائه .. كانت ثمة عاصفة تقترب .. وشعرت بالخوف يسرى فى جوانحى ، وقد خيل إلىّ أن الله قد غضب علىّ لقلة إيمانى ، ولفجورى وجحودى .. وأخذ خوفى يزداد باشتداد الرعد وتوالى البرق .. قط لم أعرف معنى الخوف كما عرفته فى تلك الليلة !

وما لبث المطر أن تدفق غزيرا .. وكأنما غسل سيله الخوف عن نفسى .. وأدركت أن الله قد شاء أن يمهلنى ، وأن هذا الخوف لم يكن سوى لون من الإنذار !

وكنت أعرف من البداية أن فشلى سيفتضح للجميع ، ولكننى كنت قد دبرت الأمر .. فما لبثت أن خرجت عن الدائرة ، وسعيت إلى غرفتى ، حيث

أقبلت « جافوتى » تجفف جسمى من البلل .. ثم دعوت « فرانتسيا » و « كابيتانى » فقلت لهما إن العاصفة أفسدت العملية ، ولكننى اتفقت مع حراس الكنز السبعة من الجان على أن نرجئ استخراج الكنز .. ودفعت إلى « فرانتسيا » بالورقة التى كنت قد كتبتها فى المكتبة العامة فى (مانتوا) قبل حضورى ، قائلا إنها خلاصة المعلومات التى أفضى لى بها الحراس السبعة !

السماء تنقذ الحمل من الذئب

وشعرت برهبة لم يسبق لى بها عهد .. خيل إلىّ أن السماء كانت تنذرنى كى لا أمس الفتاة العذراء الساذجة ، لذلك وجدتنى أتأمل مفاتن جسمها حين نامت ، دون أن تهتز جارحة من جوارحى !

وإذ تنفس الصباح ، كان أول ما شغلنى ، هو أن أبتعد عن الدار بأسرع ما أستطيع ، سيما وقد خشيت أن يتسرب شىء من قصتى إلى السلطات .. وكانت عقوبة من يزعم السحر أن يحرق حيا !.. لذلك أمرت « كابيتانى » أن يبادر بحمل متاعنا إلى فندق البلدة . ثم التفت إلى « جافوتى » التى كانت بادية الأسى ، فأكدت لها أننى عائد ، وقلت لها إننا وقد أتممنا الإجراءات الأساسية ، لم نعد بحاجة إلى أن تظل عذراء ، بل لها أن تتزوج إذا شاءت ! وفى الفندق ، رددت الخنجر إلى « كابيتانى » وافترقنا .. دون أن يتكبد أحد منا أية خسارة .. وهكذا تدخلت السماء لتصدنى عن وزر لعل عبئه كان يلازمنى طيلة العمر لو أننى ارتكبته !

حسناء .. فى زى ضابط !

قبل أن يبرح « كازانوفا » بلدة (شيزانى) ، مسرح مغامراته الأخيرة ، التقى بصديقه القديم الكونت « سبادا » .. وفى الصباح التالى ، استيقظ على ضجة فى الفندق ، إذ أقبلت ثلة من حرس الأسقف لاقتحام الغرفة المجاورة لغرفته ، بعد أن نمى إلى الأسقف أن نزيلها يصحب امرأة ليست زوجة له .. وتدخل « كازانوفا » فى الأمر ، إذ وجد أن الرجل لم يكن يعرف الإيطالية ، وأن الشخص الذى كان يزامله فى الغرفة لم يكن امرأة ، وإنما كان ضابطا شابا !.. وبعد أن انصرف الحرس ، علم « كازانوفا » من النزيل أنه من ضباط حاشية إمبراطور المجر ، وأنه يحمل جواز سفر من الوزير البابوى .. على أن أعظم ما أدهشه ، هو أنه لم يلبث أن تبين أن الضابط الآخر — الشاب — كان بالفعل امرأة .. امرأة فرنسية متنكرة .. وكان من العجيب أن الضابط المجرى لم يكن يعرف اللغة الفرنسية ، ولم تكن المرأة تعرف سوى لغة بلادها !

فى ركاب الفرنسية الحسناء ..

دعيت والضابط المجرى وزميلته — وكانت تدعى « هنرييت » — إلى العشاء فى منزل الجنرال « سبادا » .. وكانت الحسناء متنكرة فى زى الضابط ، وإن لم يغفل حقيقتها أحد .. والواقع أننى بدأت أحس باهتمام نحوها ، واشتد إعجابى بها فى تلك المأدبة ، حتى أننى قررت أن أرافقها وزميلها إلى (بارما)

ـــ حيث كان الضابط المجرى موفدا ـــ متظاهرا بالرغبة فى أن أعاونهما لجهلهما باللغة الإيطالية !.. وراودنى الأمل فى أن أستطيع خلال الرحلة أن أكتسب ود الفرنسية ، سيما وأن الفارق بينى وبين « الكابتن » المجرى كان شاسعا .. إذ كان الرجل فى الستين ، بينما كنت فى الثالثة والعشرين ، وسيما ، جميل الطلعة !

وقبل الرجل أن أصحبه وزميلته إلى (بارما) ، مغتبطا بأنه وجد من يؤدى لهما مهمة المترجم !.. ومن ثم بادرت إلى شراء عربة من طراز إنجليزى .. وأتاحت لى هذه الرابطة الجديدة فرصة الحديث إلى الحسناء بلغتها ، وأنا مطمئن إلى أن زميلها لا يفقه حديثنا !.. وكم كانت دهشتى حين تبينت أنها لم تكن مجرد مغامرة مستهترة ، وإنما كان لها من الخلق ما لا يتوفر إلا لسيدة على قدر كبير من الثقافة والتربية الراقية !

نيران .. فى فؤاد كازانوفا

وغادرنا (شيزانى) بعد الغداء فى اليوم التالى .. وكان حتما علينا أن نقضى أولى ليالينا فى غرفتين متجاورتين فى (فورلى) ، فلم يقدر لجفنىّ أن يغمضا لحظة ، إذ كان إدراكى أن « هنرييت » مع « الكابتن » المجرى فى خلوة يثير أقسى الانفعالات فى نفسى !

وقضينا ليلتنا الثانية فى (بولونيا) .. وساعد العشاء الدسم ، والجو الدافئ ، على إذكاء ضرام الجوَى فى جوانحى .. وخطر لى أن أسأل الفرنسية عما جمعها بالضابط الكهل ، فابتسمت ودعتنى إلى أن أسأله ، فقال فى بساطة أنه كان يتنزه مع صديق من زملائه فى روما ذات يوم ، على مقربة من النهر ، فرأى

ضابطا مسنا يغادر قاربا فى صحبة الشابة التى كانت فى الزى العسكرى ، ففتن بها ، وعهد إلى خادمه بأن يبحث عن مقرها .. واستطرد قائلا : « وشاءت المصادفات أن يعهد إلىّ « الكاردينال آلبانى » — الوزير البابوى — بالسفر بعد يومين إلى (بارما) ، فى مهمة دبيلوماسية ، وزودنى بجواز خاص وبمال يكفينى .. وقبل أن أرحل ، جاء خادمى يعلننى باهتدائه إلى مقر الفتاة ، فأوفدته يناشدها أن تلقانى ، وينبئها بأننى راحل فى اليوم التالى ، فكان جوابها إنها على استعداد لأن تقابلنى خارج أبواب روما إذا حددت موعد سفرى .. وبالفعل برّت بوعدها ، وما لبثت أن صعدت إلى عربتى ، فبقيت فى صحبتى منذ ذلك الحين » ..

محاولة .. قبل انتهاء الرحلة !

ولم يكن الضابط الكهل يعرف عنها سوى الاسم الذى ذكرته له الحسناء ، وسوى ما لمسه من رقى منبتها .. ثم استطرد قائلا : « لكم يسرنى لو أنها روت لك قصتها فترجمتها لى باللاتينية ، فإننى أنشد ودها صادقا ، وسيحزننى أن تفارقنى فى بارما » .

وترجمت للشابة حديثه ، فقالت : « أرجو أن تنبئه بأننى كنت أستطيع أن أكذب عليه ، ولكننى أعزف عن الكذب .. وفى الوقت ذاته ، لست فى حل من أن أذكر الحقيقة .. كل ما أرجوه هو أن يدعنى وشأنى بمجرد وصولنا إلى (بارما) ، وأن لا يحاول التحرى عنى .. وإذا شاءت المصادفات أن نلتقى ، فلسوف أذكر له صنيعه إذا حرص على أن يتظاهر بأنه لم يرنى من قبل » !

وما أن آويت إلى مخدعى فى تلك الليلة ، حتى كنت فى أقصى حالات

الحيرة ، واللهفة .. كان لا بد لى من أنال هذه الفرنسية الفاتنة مهما يكلفنى ذلك من ثمن .. لذلك قضيت الليل بطوله أفكر فى الأمر ، وخطر لى أن الضابط لن يضن على بأن أجرب حظى معها ، ما دام مضطرا إلى أن يفارقها فى (بارما) فراقا نهائيا .. لذلك أسرعت إلى غرفتهما فى الصباح ، فقلت له إننى لم أعد أشك فى أن إصرار الشابة على أن تفارقه فى (بارما) ، معناه أنها تأمل فى أن تلتقى هناك بعشيق لها ، فليس يضيره ، والأمر كذلك ، أن يسمح لى بنصف ساعة ، أحاول فيها أن أطفئ نار الوجد التى كانت تضطرم فى فؤادى !

استجابة غير مباشرة !

وكان الرجل المجرى طيبا ، فأشفق لحالى ، ووعدنى بأن يغادر الفندق بعد الفطور ، متظاهرا بالانطلاق لمهمة خاصة ، وبذلك يخلى لى الجو .. وبالفعل بر بوعده . فما أن خرج ، حتى سألت « هنرييت » أن تسمح لى بأن أؤنس وحدتها ، فأبدت سرورها . وإذ خلا لنا الجو ، بادرتها قائلا : « لست أدرى أى عاطفة يكنها لك هذا الرجل الأمين ، وإنما الذى أدريه أنه أوتى من السيطرة على نفسه ما لم يتح لى .. إذ أرانى مضطرا لأن أصارحك بأننى أحترق بنيران هواك ، فإما كنت لى ، وإما مكثت هنا ، لأننى لا أطيق أن أراك تفارقيننا فى (بارما) لتلتقى بعشيق آخر ، أو بزوج .. لقد عقدت العزم ، وعليك الآن أن تختارى بين أن أصحبك أو أن أبقى هنا .. فإذا كان الجواب الأخير ، فلسوف أفارقك ، وأرحل إلى نابولى لأنشد شفاء من حبك .. أما إذا رأيت أن أصحبك إلى (بارما) ، فيجب أن تعدينى بأن تكونى لى ! » .

قالت ضاحكة : « ما تصورت من قبل أن يجهر الإنسان بمثل هذا الحب

المتقد .. كنت أتصور حديث الحب ناعما ، رقيقا ، لطيفا .. » .

ــ ولكن وطأة عواطفى لم تدع سبيلا للرقة واللطف .. هل تستطيعين أن تتصورى وطأة العذاب الذى يبرح بالرجل حين يتدله فى هوى امرأة ، ويجد نفسه فى حيرة مما إذا كان سيحظى بها أو يظل معذبا طوال العمر .. لشد ما ألعن الحظ الذى ساقنى إلى لقائك !

ــ إذن ، فأنت آسف على أن عرفتنى ؟

ــ أوَليس لى عذر فى أن أكون كذلك ؟

ــ لا .. لأننى لم أقرر بعد أمرا فيما عرضت علىّ ..

ــ إذن ، فهل لى أن أطمئن ؟ .. هل لى أن أثق فى أنك تحبين أن أصحبك إلى (بارما) ؟

ــ أجل .. تعال إلى (بارما) !

(ويمضى « كازانوفا » مع « هنرييت » والضابط المجرى إلى (بارما) وهو يكاد يطير فرحا . وقبل أن يبلغوها ، يقترح أن لا يصلوا ثلاثتهم معا إلى المدينة ، حتى لا تثير صحبتهم الأقاويل ، فيتنازل الضابط عن مكانه ، على أن يستأنف الرحلة فى عربة أخرى .. وإذ يصل « كازانوفا » إلى المدينة ، يسجل اسمه لدى البوليس باسم السيد « فاروسى » ــ وهو لقب أمه ــ بينما تسمى « هنرييت » نفسها « آن دارسى » .. ويقيمان فى فندق « داندرمونت » ، ويستأجران خادما ، ثم يخرج كازانوفا ليبتاع ثيابا لفاتنته) .

المدينة الزاخرة بالجواسيس

« كانت (بارما) إذ ذاك تئن تحت نير حكومة جديدة ، بثت الجواسيس فى كل مكان ، حتى لقد كان من المحتمل أن يكون خادمى جاسوسا !.. على أن (بارما) كانت مسقط رأس أبى ، فاتخذت سبيلى فى المدينة .. ولم أكد أصدق أننى فى إيطاليا ، إذ لم يكن أحد ليتحدث بغير الفرنسية أو الأسبانية ، أما الذين لا يعرفون سوى الإيطالية ، فكانوا يتكلمون همسا .. وآثرت أن لا أسأل أحدا ، فظللت أجوس خلال المدينة ، حتى عثرت على متجر للأقمشة ، تجلس فيه سيدة بادية الطيبة ، ظنت لأول وهلة أننى من الفرنسيين ، ولكننى طمأنتها إلى أننى إيطالى فهتفت : « شكرا لله .. ما أندر الإيطاليين فى هذه الأيام !.. فإن الدون فيليبو وصل أخيرا ، ولن تلبث زوجته مدام دى فرانس أن تلحق به ! »

.. وسرعان ما تحولت تعد لى ما طلبت من أقمشة تكفى لأن تسد جميع حاجات فاتنتى .. » .

(وتطوعت المرأة بإرشاد كازانوفا إلى حائكة وابنة لها تجيد التطريز ، ووعدت بإرسالهما إلى الفندق .. ثم طلب كازانوفا صانع أحذية لصنع عدد من الأحذية للحسناء الفرنسية .. وإذ رأى الرجل أنها لا تعرف الإيطالية ، وعد بأن يحضر لها أستاذا فلمنكى الأصل .. وما لبثت الحائكة أن أقبلت مع ابنتها ، فأكبتا على إعداد ثياب « هنرييت » .. وفى تلك الأثناء ، ارتاب « كازانوفا » فى أن خادمه جاسوس للسلطات ، فسرحه .. وعند ذاك عرضت الحائكة أن تحضر ابنها بدلا منه) .

كازانوفا يخفى قرابته لحائكة !

وجاء الخادم الجديد ، فإذا به شاب بشوش ، مليح ، متواضع ، فى الثامنة عشرة من عمره ، ذكر أن اسمه « كودانيا » .. وتذكرت إذ ذاك أن إحدى أخوات أبى تزوجت فى (بارما) من رجل من أسرة « كودانيا » .. واستطعت فيما بعد أن أتأكد من أن المرأة هى عمتى بالفعل ، وأن ابنتها وابنها من أقرب أقاربى ، ولكننى لم أصارحهم بهذه القربى !.. على أننا إكراما للأم أصبحنا ندعوها لتناول الطعام على مائدتنا ..

وفى مساء اليوم الثانى ، جلست مع حبيبتى نتناول عشاءنا وحيدين ، فلاحظت على وجهها أمارات الأسى . وإذ سألتها قالت : « إنك يا حبيبى تسرف فى الإنفاق علىّ ، فإذا كنت ترمى بذلك إلى أن أزداد لك حبا ، فاعلم أننى لا أحبك اليوم أكثر مما كنت أحبك بالأمس ، إذ أن حبك يملأ كل قلبى !» .

فهتفت : « أواه يا حبيبتى !.. دعينى أشعر بأننى غنى ، وثقى أنك لن تكونى سبب إفلاسى .. إنك لم تخلقى إلا لإسعادى ، وكل ما أرجوه هو أن لا تفارقينى أبدا »

ــ وهذه كل أمنيتى .. ولكن كيف لنا أن نثق بالمستقبل ؟.. أأنت حر ؟.. ألست مرتبطا بأحد ؟

ــ لست مرتبطا فى الحياة كلها بسواك ، وكم أرجو أن تكونى كذلك بالنسبة لى !

ــ لن يستطيع أن ينتزعك من أحضانى إلا شىء واحد : الواجب !.. إننى

واثقة من أن هناك من يبحثون الآن عنى ، ولن يلبثوا أن يعثروا علىّ ، أينما كنت .. وما أشد تعاستى إذ ذاك !

ـــ ما أظن هؤلاء الأشخاص هنا فى الآونة الحاضرة ، فلا تعكرى بالخوف هناءتنا .. أوَتخشين الضابط الذى فررت منه فى روما ؟

ـــ إن هذا الضابط والد زوجى ، وما فررت منه إلا لأنه كان يبغى أن يزج بى فى الدير ، فيدفننى حية !.. ألا اغفر لى اضطرارى إلى أن لا أبوح لك بقصتى !

.. وأقبل مدرس اللغة الإيطالية فى الصباح التالى .. كان رجلا محترم المظهر ، مؤدبا ، متحفظا فى حديثه .. ولكنه من ناحية أخرى كان مثالا للنفاق المهذب !

.. وتركته مع « هنرييت » ساعة ، فلما عدت صارحنى بأنه وجد « هنرييت » على قدر وافر من الثقافة .. وكان هذا الأستاذ ـــ ويدعى « فالفتان ديلاهاى » ـــ مهندسا فى الأصل ، وما أرانى بحاجة إلى أن أصفه للقارئ ، إذ أنه لن يلبث أن يعرفه فى كثير من المناسبات فى مذكراتى ..

وأثبتت « هنرييت » على مر الأيام وفاء ، وهياما ، مع ذكاء ، وحضور بديهة ، وثقافة رفيعة نمت عن اطلاع واسع .. والذى لا يؤمن بأن من النساء من تستطيع أن تكفل للرجل سعادة متواصلة طوال ساعات اليوم الأربع والعشرين ، لم يحظ من دهره ولا بد بامرأة مثل « هنرييت » .. كانت هى الرقة ، والحنان ، والذكاء .. وكانت كفيلة بأن تأسر قلب كل إنسان !

وفى ذات يوم ، ذهبت إلى مكتبة فرنسية ، فالتقيت هناك بأحدب يدعى « ديبوا شاترلرو » .. وكان حفارا بارعا ، يتولى إدارة دار سك النقود التابعة لولى عهد أسبانيا ، فسرعان ما غدا صديقا وفيا ، يبادر إلى أداء كل خدمة أرجوها ..

سمو مكانة الحبيبة

وما أن لحقت « مدام دى فرانس » بزوجها « الدون فيليبو » ــ ولى عهد أسبانيا ــ فى (بارما) حتى بدأ موسم الأوبرا .. واحتجزت لهنرييت ولى مقصورة فى دار « الأوبرا » ، حرصت على أن تكون بمنجى عن اجتذاب الأنظار إلينا !

وبعد شهر ، كانت « هنرييت » قد تمكنت من اللغة الإيطالية ، وأخذت تحرص ما استطاعت على أن تدرب لسانها على الانطلاق بها .. وأصبحت أصحب حبيبتى معى أينما خرجت ، ونحن نحرص على أن نسدل الستائر على نوافذ العربة ، ونتجنب التعرف بالناس أو مخالطتهم .. وكان « ديبوا » يعجب من أمرنا ، ويحاول أن يعرف شيئا من قصتنا ، بيد أنه كان أمكر من أن يفضح فضوله ، فظل يتحين الفرصة ، إلى أن ذكر لى يوما أن بلاط ولى العهد الأسبانى قد غدا أبهج مكان فى المدينة ، وملتقى الأجانب جميعا .. ثم التفت إلى « هنرييت » قائلا : « إن كثيرا من السيدات الأجنبيات عندنا يجدن فى البلاط سماء تتألق فيها نجومهم .. وكم أرجو لو أن السيدة أسعدتنا ، فنراها هناك » !

فقالت فى ترفع : « إننى أعتبر الظهور فى البلاط دعاية ممجوجة ، ولا سيما إذا كان من حق السيدة أن تظهر فى البلاط بالفعل ، ولكن أحدا لم يدعها ! »

وكان عذرا لبقا ، أفحم الرجل ، وأقنعه فى الوقت ذاته بسمو مكانة حبيبتى !

لقاء .. يثير الهواجس !

هكذا ظلت أيامنا تترى مفعمة بالسعادة والهناءة .. حتى إذا كان اليوم التالى لانتهاء موسم الأوبرا ، قال « ديبوا » ـــ وهو يتناول الغداء على مائدتنا ـــ إنه دعا كبار فنانى « الأوبرا » إلى تناول الغداء على مائدته فى اليوم التالى ، وإن المغنى الأول والمغنية الأولى سيؤديان بعض أغانيهما .. ودعانا إلى حضور المأدبة ، فلما انصرف ، تشاورنا فى الأمر ، فقالت « هنرييت » إنها تخشى أن يكون بين المدعوين من يعرفها فيقضى على سعادتنا ، ولكنها تخشى أيضا أن تزيد من فضول « ديبوا » بعدم تلبيتنا الدعوة ، ومن ثم اتفقنا على أن نتأخر عن موعد المأدبة ، بحيث نصل إلى الدار أثناء الغناء ، فنندس بين الجمع دون أن نثير انتباها !

وكانت مفاجأة لنا حين ذهبنا فى اليوم التالى ، فوجدنا أن موعد الحفل قد أرجئ إلى ما بعد العشاء .. واضطررنا إلى البقاء .. ولو أننى كنت على دراية بقصة « هنرييت » لكان لى تصرف آخر ، بل لما مكثت فى (بارما) ، ولبعدت بحبيبتى إلى أقصى أطراف الأرض !

كان « ديبوا » قد دعا إلى مأدبته أشهر نبلاء البلاط ، من أسبانيين وفرنسيين .. وكان جمال « هنرييت » كفيلا بأن يثير اهتمامهم ، ويجتذب أنظارهم .. على أن الحفلة انتهت على خير حال .. وانقضى بعدها شهر ، حظينا خلاله بأشهى متع الجسم ، والفكر ، والروح !.. ثم انتقل البلاط إلى (كولورنو) ، وتقرر أن يقام مهرجان هائل ، رأيت أن نرحل لمشاهدته .. وفيما كنا نتمشى ذات مساء ـــ مع « ديبوا » ـــ فى حدائق القصر الأميرى ،

الذى فتحت أبوابه لجميع الناس ، التقينا بمدام دى فرانس تتمشى مع نفر من حاشيتها .. ولاحظت أن سيدا من مرافقى الأميرة أخذ يرمق « هنرييت » بنظرات ثاقبة ، متفحصة .. حتى إذا هممنا بالعودة بعد فترة ، التقينا بذلك السيد يعترض طريقنا ، ثم يشير إلى « ديبوا » ، فينتحى به جانبا . وطال حديثهما .. وكانت أنظارهما تتطلع إلينا بين وقت وآخر ، وما لبث السيد أن سار نحونا ، فاعتذر فى أدب ، ثم انحنى لهنرييت وسألها عما إذا كان قد تشرف بمقابلتها من قبل ، فأجابت مضطربة : « ما أظننى أذكر أننى حظيت برؤيتك قبل اليوم » .

قال : « إذن ، اغفرى لى خطئى يا سيدتى » ..

وكرر الرجل اعتذاره ثم انصرف ..

وبدت « هنرييت » فى تلك الليلة قلقة ، مهمومة . ولما سألتها عما بها ، ذكرت لى أنها أدركت من اسم ذلك الرجل — وكان « دانتوان » — أنه من أسرة عريقة فى مقاطعة (بروفانس) الفرنسية ، ولكنها لم تره من قبل .. فصارحتها بأننى تطيرت من ذلك اللقاء ، ودعوتها إلى أن نبادر بالعودة إلى (بارما) حيث أسوى بعض المسائل ، ثم نرحل إلى (جنوا) ، فقالت : « إن هذا أدعى لراحتنا يا عزيزى ، بيد أننى لا أرى حاجة بنا إلى العجلة ! »

موعد مع السيد « دانتوان » !

وعدنا إلى (بارما) .. وبعد يومين ، أحضر لى خادمى رسالة ، ذكر أن حاملها يرتقب ردا .. وناولتها إلى حبيبتى ففضتها ، وأرسلت بصرها خلال سطورها ، ثم أسلمتها إلىّ قائلة : « أعتقد أن السيد دانتوان رجل شريف ، وأن

لا داعى لأن نخشاه » .. وقرأت فى الرسالة هذه السطور :

« أناشدك يا سيدى أن تحدد موعدا ألقاك فيه — فى فندقك ، أو فى مسكنى ، أو فى أى مكان تختاره — لنتحدث فى موضوع عظيم الأهمية بالنسبة لك ، ويشرفنى أن أكون المخلص : دانتوان » .

غيوم .. فى سماء الغرام الجديد !

كانت الرسالة باسمى الذى اتخذته فى (بارما) : « فاروسى » ، فقلت : « أعتقد أنه يجمل بى أن أقابله ، ولكن .. أين ؟ »

قالت هنرييت : « لا هنا ، ولا فى مسكنه .. فلنتقابلا فى حدائق قصر الدوق .. ولتذكر فى ردك المكان وساعة اللقاء فقط » !

فكتبت إلى السيد « دانتوان » أعده بأن ألقاه فى الحدائق ، فى منتصف الساعة الثانية عشرة .. وبعد أن حمل خادمى الرد إلى الرسول ، بادرت إلى ارتداء ثيابى ، وأنا أحاول أن أبدى استبشارا ، و « هنرييت » تبذل جهدها هى الأخرى لتبدو مشرقة .. على أننا لم نفلح فى التخلص من المخاوف التى شرعت تساورنا !

والتقيت بالسيد « دانتوان » فى الموعد .. وما أن استوثقنا من أننا بمنجى عن الأسماع ، حتى بادر قائلا : « إنما اضطررت يا سيدى أن أسألك أن تسمح لى بلقائك ، لأننى لم أجد أسلم من هذه الطريقة لإيصال رسالة إلى السيدة دارسى .. فأناشدك أن تسلمها إليها ، وأن تعذرنى إذا قدمتها إليك مغلقة .. فإذا كنت مخطئا فى شخصيتها ، فلا حاجة بها إلى الرد .. أما إذا كنت على صواب ، فهى وحدها التى تستطيع أن تبت فيما إذا كانت تطلعك عليها ، أو

تحتفظ بما فيها لنفسها .. وهذا هو المبرر لإبقاء الرسالة مغلقة .. فإذا كنت صديقا لها حقا ، فأعتقد أن ما تتضمنه هذه الرسالة يهمك بقدر ما يهمها ، ومن ثم أتوقع أن تطلعك عليها ! » .

وانحنى كل منا للآخر فى احترام ، ثم افترقنا ، وأسرعت عائدا إلى الفندق .. وما أن وصلت إلى الجناح الذى كنا نستأجره ، حتى كان قلبى يخفق فى عنف ، ويكاد يقفز من صدرى لهفة وقلقا .. وأعدت على مسمع « هنرييت » كل ما دار بينى وبين السيد « دانتوان » ، ثم أسلمتها الخطاب ، ففضته لتجد رسالة من أربع صفحات ، أخذت تقرأها بإمعان ، وعلى وجهها إمارات الانفعال العاطفى ، ثم قالت لى :

ــ يا أحب عزيز ، أرجو أن لا تظن فى تصرفى أى مساس بشعورك وكرامتك ، إذا حجبت عنك محتويات هذه الرسالة .. فإنها تتناول أسرارا تمس شرف أسرتين .. ثم إننى أرانى مضطرة إلى أن أستقبل السيد « دانتوان » الذى يؤكد أنه أحد أقاربى !

فهتفت : « آه !.. هذه بداية النهاية !.. لم تلكأت بك فى (بارما) ، ولم أبادر إلى الابتعاد بك عنها ؟.. يا له من غباء . ما أراه يفضى إلـى خير !» .

ــ أناشدك يا حبيبى أن لا تستبق الحوادث ، أو تفترض الشر قبل وقوعه .. فلتسرى عنك ، ولنحتفظ بكل ما أوتينا من عقل وحكمة لنتغلب على الظروف ، مهما تكن .. وعليك الآن أن تكتب إلى السيد « دانتوان » لتدعوه للحضور إلىّ غدا ..

ــ أواه !.. ما أشق ما تدعيننى إليه !

ــ يجب أن تبقى إلى جانبى عندما يفد السيد « دانتوان » ، حتى إذا حييته وقضينا بضع دقائق فى تبادل المجاملات ، فأرجو أن تنتحل أى عذر لمغادرتنا

وتركنا وحيدين . إن السيد « دانتوان » يعرف كل شيء عن حياتى وقصتى ، ويعرف فيم أخطأت ، وفيم أصبت .. وأعتقد أنه — بوصفه قريبا لى ، رجلا شريفا — سيعدل فى حكمه ، ويقينى أى شر قد أتعرض له ، ويرشدنى إلى خير مسلك .. على أنه لن يقسرنى على ما لا أحب ، وإذا اشتممت منه أية رغبة فى الظلم أو التحيز ضدى ، أو المراوغة فى الشروط التى سأمليها عليه ، فثق أننى سأرفض العودة إلى فرنسا ، وسأتبعك أينما شئت ، مكرسة كل حياتى لك .. ومع ذلك ، فأرجو يا حبيبى أن تروض نفسك على توقع أحداث قد تؤدى إلى أن نسلم معا بأن الفراق هو أسلم طريق ننتهجه .. وإذا تحقق هذا ، فعلينا أن نحشد كل شجاعتنا للإقدام عليه !

الحب .. يكلف غاليا !

وأقبل السيد « دانتوان » فى اليوم التالى ، فعملت بما أشارت به حبيبتى ، وبقيت وحيدا ست ساعات ، كانت من أقسى الساعات على قلبى .. وما أن لاحظت أن عينى « هنرييت » كانتا محتقنتين — بعد انصرافه — حتى جزعت ، ولكنها ابتسمت قائلة : « هلا رحلنا غدا يا حبيبى ؟ » .

وكدت أطير فرحا ، فقلت : « أجل يا حبيبتى .. إلى أين تريدين أن أحملك ؟ »

— أينما شئت ، وحيثما يروق لك ، ولكن ..

وطارت الفرحة من نفسى ، حين استأنفت قائلة : « يجب أن نكون هنا مرة أخرى ، بعد أسبوعين » .. فهتفت محسورا : « آه !.. يالخيبة آمالى ! » .

فقالت : « لا مفر ، للأسف !.. لقد وعدت بأن أكون هنا فى ذلك

الموعد ، لأتلقى الرد على خطاب كتبته منذ لحظات .. وليس لنا أن نخشى أية إجراءات عنيفة ، أو أى عنف أو قسر ، ومن ثم ففى وسعنا أن نبقى هنا ، ولكننى كرهت (بارما) ، فلم أعد أطيق فيها بقاء !» .

وفى اليوم التالى رحلنا إلى (ميلانو) ، حيث قضينا الأسبوعين فى هناءة ، لا نكاد نفترق لحظة .. ولم نلتق خلالهما بغير صاحب الفندق الذى نزلنا فيه ، وحائكة الثياب التى قامت بصنع سترة من فراء النمر أمرت بها لهنرييت الحبيبة .. وكان فرحها بهذه الهدية بالغا .. وكانت — لفرط رقة شعورها — تشفق علىّ من النفقات المسرفة ، وإن أحجمت عن أن تسألنى عن مواردى !.. وقد حمدت لها ذلك ، إذ كنت أتكتم ما بدأت أشعر به من تناقص مواردى .. وما أن عدنا إلى (بارما) ، حتى كان كل ما بقى فى كيسى لا يتجاوز أربعمائة دينار !

وفى اليوم التالى ، أقبل السيد « دانتوان » لزيارتنا ، وتناول الغداء معنا .. وما لبثت أن انسحبت وأخليت له الجو مع « هنرييت » .. وطال حديثهما وقتا يقرب من الوقت الذى استغرقه لقاؤهما السابق . وما أن انصرف ، حتى أنبأتنى « هنرييت » بأن فراقنا صار أمرا مقررا ، فبقينا فترة طويلة صامتين ، متعانقين ، نذرف الدمع سخينا ..

(وجاء فراق « كازانوفا » عن « هنرييت » نهاية محزنة لقصة الغرام الذى يعتبر من أسعد المغامرات فى حياة أمير العشاق .. وتقرر أن يرحل كازانوفا بحبيبته إلى (جنوا) ، ثم يودعها إلى الأبد . وفى عناقهما الأخير ، أصرت « هنرييت » على أن يتقبل « كازانوفا » منها خمسمائة جنيه فرنسى من الذهب ، كهدية له .. وتركت الفرنسية الحسناء رسالة إلى السيد « دانتوان » .. وفيما كان كازانوفا يهم بمبارحة الفندق بعد رحيلها ، لمح على

زجاج إحدى النوافذ عبارة حفرتها « هنرييت » بماسة خاتمها : « لن تلبث أن تنسى .. هنرييت » .. فتمتم لنفسه محزونا : « لا ، لن أنساك ما حييت » !.. (وقد كتب فى مذكراته معقبا : « .. وإلى اليوم ، وقد كسا الشيب شعرى ، لا تزال ذكرى هنرييت نبعا أستمد منه الهناءة ») .. وما أن وصل إلى (بارما) ثانية ، حتى أسلم رسالة حبيبته إلى « دانتوان » ، فإذا بداخلها رسالة أخرى له هو ، جاء فيها : « لن يكون لى بعدك حبيب .. أما أنت ، فآمل أن تعثر على هنرييت أخرى تنسيك إياى .. فوداعا ! ») .

أشجان .. « كازانوفا » !!

« لازمت غرفتي حزينا ، كسير القلب ، غير عابئ بما تأتى به الأيام . وبعد أربع وعشرين ساعة ، كان الإعياء قد نال منى كثيرا .. وخطر لى أننى لو مضيت على هذه الحال ، لتخلصت من الحياة البغيضة .. وانقضت أربع وعشرون ساعة أخرى ، بلغ الإعياء منى فى نهايتها أقصى مبلغ .. وفيما كنت فى هذه الحال ، فوجئت بالسيد « لاهاى » — من أصدقائى القدامى — يطرق الباب . وعولت على أن لا أفتح له .. ولا لأى مخلوق آخر — حتى أمضى فى عزلتى إلى نحبى .. ولكنه راح يؤكد أنه يحمل رسالة هامة لى ، فداخلنى الرجاء ، وتحاملت على ساقىّ الواهنتين ، وجررت نفسى إلى الباب ، ثم عدت إلى السرير بعد أن فتحت له . وبهت الرجل حين رآنى ، فأخذ يتفرس فى وجهى ، ثم صاح : « معذرة إذا كنت قد أزعجتك ، ولكن .. إنك تبدو مريضا ! » .

قلت : « أجل ، وأحب أن تتركنى وحيدا » .

واقترب مني ، وأمسك برسغي ليجس نبضي .. وهاله أن النبض كان جد ضعيف ، فسألنى عما أكلت بالأمس ، وما أن أدرك أننى لم أتناول طعاما منذ يومين ، حتى أدرك سر وهنى وإعيائى ، فراح يلح علىّ فى أن أتناول بعض الحساء ، وأخذ يتلطف معى ، ويغمرنى بعطفه ، حتى انصعت له أخيرا .. وما أن جاء الطعام الذى طلبه لى ، حتى كانت قوة المقاومة قد نضبت من نفسى ، فتناولت الحساء .. وإذ رأى « لاهاى » أنه انتصر على عنادى ، لازمنى طيلة اليوم ، عاملا على التسرية عنى بفكاهاته وحديثه المرح .. وفى اليوم التالى دعوته للغداء .. ولم أكن قد تخففت من ذرة واحدة من حزنى ، ولكن الحياة عادت تبدو لى أفضل من الموت !

* * *

(وأقلقت حال « كازانوفا » كلا من « لاهاى » و « ديبوا » ، فحملاه على أن يتردد معهما على المسرح ، حيث كانت تقوم بالتمثيل فرقة فرنسية . وما لبث صاحبنا أن تعرف بممثلة من الفرقة . ومع أنها لم ترق له ، إلا أنه راق لها .. ومازالت به حتى « خلعت » عليه مرضا بشعا ، ألزمه حجرته لمدة ستة أسابيع ، خلال شتاء سنة ١٧٤٩ . وفى محنة هذا المرض ، أخذ « لاهاى » يبث فيه روح التوبة ، ويسعد إذ يراه يبكى ندما على ما ارتكب من موبقات .. وأخذت التقوى تستولى على نفس كازانوفا رويدا)

العاشق الأعظم .. يتردد على الكنيسة يوميا !

« من المؤكد أن العقل يتبع الجسم .. فعندما كانت معدتى خاوية ، كان الدواء يبعث أبخرته إلى رأسى فتهفو بعقلى .. ومن ثم ذهبت فى اتجاهى الدينى إلى

درجة التهوس !.. وما أن جاء شهر إبريل ، حتى كنت قد برئت تماما من المرض ، وأصبحت أتردد على الكنيسة يوميا مع « لاهاى » !

***

(وظل « كازانوفا » سادرا فى نوبة التقوى .. وتعرف فى تلك الأثناء بتلميذ للسيد « لاهاى » يدعى البارون « بافوا » ، فساعده بوساطة السيد « براجادين » — الشيخ الذى تبنى كازانوفا فى البندقية — على أن يصبح ضابطا فى جيش البندقية .. ثم لم يلبث « كازانوفا » أن رحل بدوره إلى هناك ، حيث تلقاه « براجادين » و « داندولو » و « باربارو » مذهولين لفرط ما أصابه من تغير ، إذ غدا تقيا صالحا !.. على أنه ما لبث أن تبين أن « بافوا » لم يكن من التدين بالدرجة التى كان يبديها أمام « لاهاى » .. وكتب « كازانوفا » فى مذكراته عن ذلك : « على أن أطرف ما فى الأمر ، هو أن بافوا رد عقلى — دون أن يدرى — إلى حاله الأصلية .. ومنذ ذلك الحين عدت إلى مغامراتى ! »

.. وكان ذلك فى بداية أعياد « الكرنفال » ، فى سنة ١٧٥٠ ، وحدث أن فاز « كازانوفا » فى « اليانصيب » العام بثلاثة آلاف دينار ، فقرر أن يرحل إلى باريس ، حيث كانت زوجة ولى عهد أسبانيا — وابنة ملك فرنسا — تتهيأ لتضع طفلها الأول ، وقد شرع القوم فى اتخاذ الاستعدادات لإقامة مهرجانات شعبية .. كما عول على أن يزور فى طريقه مدينة (ريدجيو) الإيطالية ، حيث أقيم مهرجان كبير لزواج « دوق سافوى » من أميرة أسبانية .. وفى أول يونية سنة ١٧٥٠ ، انطلق كازانوفا فى رحلته مزودا بالمال والعتاد .. وفى (ريدجيو) ، التقى بأستاذ « الباليه » — « باليتى » — زوج عشيقته السابقة « مارينا » .. فرحلا معا إلى باريس) .

« كازانوفا » .. فى جماعة « الماسونيين » !

« ومكثنا فى (ليون) أياما ، قدر لى خلالها أن أصبح من « الماسونيين » الأحرار ، فلما وصلت إلى باريس ، كنت « تلميذا » فى هذه الجماعة . ولم ألبث أن أصبحت « زميلا » ، ثم « أستاذا » !.. ذلك لأن الشاب الذى يحب الأسفار ، وينشد معرفة الدنيا والمجتمع الراق ، ولا يبغى أن يبدو فى أى بلد يهبط به أقل مستوى من أقرانه ، خليق بأن يكون من « الماسونيين » الأحرار !.. إنها جماعة خيرية ، إنسانية ــ فى الأصل ــ وإن كانت فى بعض الظروف ، والأزمان ، والبقاع ، قد استغلت فى تدبير المؤامرات والدسائس لقلب أنظمة الحكم ، ولكن .. أى شيء تحت قبة السماء لم يتعرض يوما لأن يُساء استغلاله ؟.. ألم نر « الجيزويت » ــ وهم فى مسوح الرهبان ــ يدسون الخناجر فى أيدى الذين أعماهم التعصب والحماس ليغتالوا بها الملوك !

على أن « الماسونيين » الأحرار ــ فيما وراء ذلك ــ جماعة غامضة .. فإذا التحق المرء بها لمجرد الكشف عن سرها ، فإنه يتعرض لكثير من الأخطار ، دون أن يصل فى النهاية إلى هذا السر ــ الذى يصان فى حرص بالغ ، وتكتم شديد !ــ ومن الخطأ أن نظن أن السر قاصر على بعض كلمات أو إشارات ، وإنما هو أعمق من هذا بكثير !

خادمات الفنادق .. فى باريس !

وكان أول ما أعجبت به عند وصولى إلى باريس ، طريق « لوى كانز » — أو لويس الخامس عشر — الرائع ، ونظافة الفنادق ، وسرعة الخدمة فيها ، وتولى الفتيات هذه الخدمة !! . وكنا قبل بلوغها قد تناولنا غداءنا فى (فونتينبلو) ، وهم الاسم المشتق من (فونتين — بيل) أى عين الماء الجميل !.. وإذ شارفنا العاصمة ، رأينا عربة أنيقة مقبلة ، فإذا زميلى يصيح ليستوقفها .. كانت عربة أمه ، التى رحبت بى كصديق لابنها .. وكانت أمه هى الممثلة ذائعة الصيت « سيلفيا » .. وقد تولى خادم من عندها مرافقتى إلى المسكن الذى هبطت فيه — وكان لا يبعد عن بيت « باليتى » بأكثر من خمسين مترا — لينقل متاعى .. وما لبث « باليتى أن قدمنى إلى أبيه « ماريو » .. وكان اسما « ماريو » و « سيلفيا » ألمع اسمين على المسرح الفرنسى إذ ذاك .. وأقامت « سيلفيا » مأدبة عشاء فخمة احتفالا بوصول ابنها ، دعت إليها جميع أقاربها ومعارفها ، فكانت فرصة لكى أتعرف إليهم .. وأخذت خلال العشاء أدرس « سيلفيا » .. كانت إذ ذاك فى نحو الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت رشيقة ، ذات بهاء وعظمة .. وكان وجهها لغزا غامضا .. كان يثير فى المرء أدفأ العواطف ، مع ذلك فقد كان — إذا تأملته عن قرب — خلوا من أى جمال !.. غير أنها رغم ذلك كانت معبودة فرنسا بأسرها ، وكانت مواهبها فى التمثيل « الكوميدى » تزيد من سلطانها على النفوس .. وكانت لها — فوق كل هذا — ميزة أخرى تحيطها بهالة من النساء .. تلك هى أنها كانت تعيش فى عفة وتقوى !.. كانت تتلطف إلى جميع المعجبين ، ولكنها تصد أى عاشق أو

طامع !.. وقد أكسبها هذا المسلك احتراما وتقديرا فوق ما يخطر بالبال !

وكانت تجلس إلى جوارها على المائدة ، ابنتها الوحيدة ، التى كانت إذ ذاك فى التاسعة من عمرها .. والتى كانت تكاد تستأثر بالقسط الأوفر من عنايتها واهتمامها ..

قس .. يعرف نساء باريس

وعدت فى نهاية السهرة إلى دار مدام « كينسون » حيث نزلت .. وما أن استيقظت فى الصباح ، حتى وجدت مدام كينسون قد أتتنى بخادم خاص .. كان ضئيل الجسم ، لم يرق مظهره لى ، فلما سألته عن اسمه قال : « أى اسم يحلو لك يا سيدى .. فقد اعتاد كل سيد أخدمه أن يطلق علىّ اسما من عنده » ! .. فهتفت بين الغيظ والعجب : « ولكنى أسألك عن اسمك الأصلى .. اسم أسرتك ؟ » .. وإذ ذاك قال : « لست أعرف لنفسى أسرة .. ولقد كان لى فى صغرى اسم ، ولكننى نسيته منذ عملت فى خدمة الناس » !.. ومن ثم قررت أن أدعوه « أسبرى » .. واتفقنا على أن يتقاضى ثلاثين فلسا فى اليوم .. وإذ رآنى أنظر إلى قامته الضئيلة فى ازدراء ، قال : « إن قوامى يا سيدى خير ضمان يؤكد أننى لن أستعير ثيابك فى أى موعد غرامى يعرض لى ! » .

وكان أول ما هفت نفسى إلى زيارته فى باريس ، حدائق القصر الملكى ، التى كانت مفتوحة للجمهور . وقد بثت فيها مناضد ومقاعد للإيجار ، فاتخذت مقعدا إلى إحدى المناضد .. وحمل إلىّ أحد السقاة زجاجة من شراب يسمونه « أورجا » ، لذ لى حتى أننى عزمت على أن أتناوله مع كل وجبة . ثم

سألت الساقى عن الأنباء ، فقال إن ابنة الملك ـــ زوجة ولى عهد أسبانيا ـــ قد وضعت أميرا .. وإذ ذاك قال قس كان يجلس إلى مائدة مجاورة : « يا للغباء !.. بل لقد وضعت أميرة » . فإذا القس ينهض بدوره ، فيسير معى خلال الحدائق .. ذاكرا لى اسم كل امرأة كنا نصادفها !

وفيما كنا سائرين ، أقبل علينا شاب عانق القس فى شوق .. وقدمه لى القس على أنه أستاذ بحّاثة فى اللغة الإيطالية يدعى « باتوا » .. وكان بالفعل يجيد اللغة ، ولكن فى أسلوب « بوكاشيو » وفطاحل الكتّاب !.. ولم ينقض ربع ساعة حتى كنا صديقين !.. وبينما نحن فى الطريق ، لاحظت زحاما أمام حانوت كتب عليه : « سعوط القط سيفيه » .. وإذ أبديت عجبى للزحام ، قال زميلى : « كل هؤلاء جاءوا ليملأوا علبهم سعوطا » .. قلت : « أوَليس فى باريس حانوت آخر لبيع السعوط ؟ » .

.. قال : « بلى .. ولكن سعوط « القط سيفيه » هو « الموضة » منذ استعملته دوقة « شارتر » .. » ، فقلت : « وكيف أصبح كذلك ؟ » .. فأجاب : « الأمر بسيط .. لقد استوقفت عربتها مرتين أو ثلاثا أمام الحانوت لتملأ علبتها سعوطا ، وكانت فى كل مرة تقول للفتاة التى تولت خدمتها إن هذا أجود سعوط فى باريس .. فسرعان ما التقط كلماتها المتسكعون الذين كانوا يلتفون حول عربة الأميرة فى فضول ، وراحوا يرددونها فى كل مكان » !

قلت : « هل الأميرة لم تفطن إلى ما كان لإعجابها من أثر ! » .

ـــ على النقيض .. إنما شاءت فى الواقع أن تسدى معروفا إلى صاحبة الحانوت .. إنك لا تعرف مدى طيبة الباريسيين .. إنك الآن فى البلد الوحيد الذى يستطيع فيه الذكاء أن يجلب على صاحبه ثروة ، إن بالحق أو بالباطل ..

الفساد فى عهد لويس الخامس عشر

وصحبنى « باتو » إلى دار مدموازيل « لوفيل » ، الممثلة التى كانت فى مقدمة فاتنات باريس .. وكانت عضوا فى الأكاديمية الملكية للموسيقى .. ورأيت حولها ثلاثة أطفال فى أبهى آيات الجمال ، فلما أطريت حسنهم قالت فى صراحة : « لا عجب !.. فأولهم أنجبته من دون « دانيس » ، وثانيهم من كونت « ديجمون » ، والثالث من « ميزونروج » الذى تزوج أخيرا من أميرة رومانفيل ! » .. وانطلقت بعد ذلك ضاحكة ، حتى شعرت بالدماء تتصاعد إلى وجهى حياء !.. فما كنت أدرى أن هذه أمور عادية فى باريس فى ذلك العصر !.. وكانت الغانية التى تنجب من عشيق نبيل ، تصيب منه دخلا سخيا ، ومن ثم كانت صحبة الغانيات للنبلاء .. حرفة !

ولقد دعانى الممثل الإيطالى « كارلين بيرتيناتس » إلى الغداء يوما ، فى دار مدام « دولا كايليرى » ، حيث كان يقيم .. ورأيت السيدة محوطة بأربعة أطفال ، ، فلما أطريتهم ، قال زوجها : « إنهم أبناء السيد كارلين » .

قلت : « ولكنهم ولا بد يا سيدى ينتمون إليك ، فأنت الزوج الشرعى ! »

قال : « إن مسيو كارلين رجل شريف ، وهو يعترف بأبنائه .. وزوجتى تصر على نسبتهم إليه » !!

وكان الرجل يتكلم فى بساطة ، متقبلا الأمر الواقع بروح فلسفية !!

سهرة مع « مدام بومبادور » و « ريشيليو »

وكان لويس الخامس عشر مغرما بالصيد ، ويقضى ستة أسابيع من كل عام فى قصر (فونتينبلو) لهذا الغرض .. وكانت هذه الأسابيع الستة تكبد الخزانة الفرنسية خمسة ملايين من الفرنكات !.. إذ كان الملك يصطحب معه عادة كل من يدخلون التسرية على نفوس السفراء الأجانب والحاشية الضخمة ، ومن ثم كان يتبعه إلى هناك ممثلو الأوبرا و « الكوميدى فرانسيز » وممثلاتهما . وقد دعانى « باليتى » و « سيلفيا » وزوجها إلى أن أصحبهم وأنزل فى ضيافتهم .. وكانت فرصة رائعة ، أتاحت لى التعرف إلى السفراء وأقطاب الحاشية .. كما تعرفت إلى السيد « موروسينى » ـــ سفير جمهورية البندقية لدى البلاط الفرنسى ـــ الذى دعانى معه إلى حفلة افتتاح الأوبرا .. وجاء مقعدى تحت مقصورة « مدام دى بومبادور » مباشرة .. وكنت مصابا بزكام ، فرحت أنظف أنفى بين وقت وآخر ، مما حدا بسيد فى مقصورة « مدام دى بومبادور » إلى أن يقول إننى ولا بد لم أحسن إغلاق نوافذ مخدعى .. ولم أكن أعرف أن السيد هو الماريشال« ريشيليو » ، فأجبت بنكتة لاذعة أضحكت الجميع .. وإن هو إلا نصف ساعة ، حتى وجدت الماريشال يسألنى عن أى الممثلتين اللتين ظهرتا على المسرح أعجبتنى ، فأشرت إلى إحداهما .. فقال : « ولكنها أوتيت ساقين بشعتين » .. فأجبت : « إنهما لا تظهران من تحت ثيابها يا سيدى ! » .

وأثار الرد ضحك مدام بومبادور .. وعرف الماريشال من السيد « موروسينى » من أكون ، فأبدى سروره بأن يستقبلنى إذا زرته..

وبعد أيام أتيح لى أن أزور قصر (فونتينبلو) ، وأن أجوس خلال أبهائه وحجراته .. وكانت الملكة تتناول غداءها فى غرفة مكشوفة لجميع الزائرين ، وقد علقت عيناها بالمائدة .. وأخذت تلتهم الطعام بشهية غريبة ، غير حافلة بالحاشية التى أحاطت بها تتأملها ..

ورجتنى بعض سيدات المجتمع الراقى أن أعلمهن الإيطالية .. وكان خلطى بين الكلمات الفرنسية ، وارتباكى فى النطق بها ، مبعث فكاهة فى هذه الدروس ، مما أكسبنى مكانة عند تلميذاتى !.. وقدر لى ذات يوم أن ألتقى عند إحداهن ، وكانت تدعى « مدام بريودو » ، بابنة أخت لها فى الرابعة عشرة من عمرها ، مؤدبة ، متحفظة ، شديدة الذكاء .. فلم ألبث أن ضممتها إلى تلميذاتى .. ولم تتلق ستة دروس حتى بدأت تحاول الكلام بالإيطالية !

مغامرة .. تنتهى إلى فضيحة !

ويذكرنى هذا بعواطفى التى أهملت الحديث عنها ، فى غمرة محاولاتى لتصوير المجتمع الباريسى فى الوقت الذى زرت فيه فرنسا .. ولعل أولى مغامراتى كانت مع الابنة الكبرى لصاحبة الدار التى نزلت فيها .. كانت فتاة تتراوح سنها بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، وقد أصبح من عاداتها أن تزورنى فى غرفتى فى أغلب الأوقات .. ولم يطل بى الوقت حتى تبينت أنها أحبتنى .. وكان خليقا بى أن أنظر إلى الأمر كحماقة أو نزق ، ومن ثم لم يقع بيننا خلال الخمسة أو الستة الأشهر الأولى ، سوى بعض العبث الصبيانى ..

.. إلى أن عدت إلى المسكن فى ساعة متأخرة ذات ليلة ، فألفيت « ميمى » ، — وكان هذا اسمها — نائمة فى سريرى .. ولم أر داعيا

لايقاظها !.. ومنذ ذلك الحين جرفنا التيار ، حتى فاجأتنى بعد أربعة أشهر بأن سرنا وشيك الافتضاح .. وجلسنا نتشاور فى الأمر ، ثم عولنا على تركه للظروف .. ولكن بطنها تضخم ، حتى لم يعد الأمر — بعد شهرين آخرين — يخاف على مدام « كينسون » ، التى انهالت على ابنتها ضربا ، حتى أفضت إليها باسم « الذئب » !

واقتحمت السيدة غرفتى مهتاجة ، وانهالت علىّ سبابا وتوبيخا ، ثم انتهت إلى أن لا بد لى من إصلاح غلطتى بالزواج من ابنتها .. وفى غمرة الورطة ، خف ذكائى لإنقاذى ، فزعمت لها أننى متزوج فى إيطاليا .. فلما اشتد حنقها ، قلت لها فى هدوء : « ولكن .. من أدراك أننى والد الجنين الذى فى أحشاء ابنتك ؟.. إننى أؤكد لك استعدادى لأن أقسم بأننى غير متأكد من صدق ابنتك .. وعلى كل حال ، فهناك مخرج سهل .. إذا كانت حاملا ، فمن الممكن إجهاضها ! » .

تحقيق فى قسم البوليس

وفى اليوم التالى ، دعيت إلى قسم البوليس ، فإذا مدام « كينسون » هناك ، فى أتم العدة انخوض المعركة .. وإذ ذاك ، قلت للمأمور أن يثبت فى المحضر على لسانى : « أننى لم أمس ابنة الشاكية بأى سوء ، وأننى واثق من أن الفتاة نفسها على استعداد لأن تشهد بذلك .. » .

قال : « ولكنها حامل ، وتعلن أن حملها نتيجة علاقتك بها .. وتقسم بأنها لم تعرف قط رجلا سواك » .

— ما أظن إنسانا يستطيع أن يطمئن إلى امرأة فى هذا الصدد .. ثم إننى لم

أغوها ، وإنما هى التى أغوتنى .. وسرعان ما وافقتها ، فما من رجل يرفض إغواء فتاة فاتنة ..

— وهل كانت عذراء ؟.. إن أمها تزعم ذلك ، وتطالبك بتعويض .

— إن التعويض لا يدفع — فى أى قانون — إلا لضحية مخدوعة ، لا لامرأة تبعث بابنتها إلى غرفة شاب .. أوَليس من حقى أن أرتاب فى أنها كانت ترسلها خصيصا لإغوائى ؟.. ثم إننى ما كنت لأقوى على شىء بغير رغبتها !

— لقد كانت ترسلها لخدمتك .. ولا بد من أن تدفع تعويضا ..

— لن أدفع شيئا .. لأننى ، فى اعتقادى ، لم أخرق قانونا .. وسوف أرتاد كل المحاكم فى سبيل الإنصاف والعدالة ..

على أننى لم أقو بعد ذلك على مقاومة دموع « ميمى » الحسناء ، فتكفلت بنفقات الوضع .. وأنجبت ولدا أرسل إلى أحد الملاجئ ليُربى على نفقة الدولة .. وما لبثت « ميمى » أن فرت من أمها ، وسرعان ما ظهرت على المسرح ، كممثلة ..

فاتنة .. فى الثالثة عشرة !

دعانى السفير البولندى « الكونت لوز » ذات يوم إلى أن أترجم « أوبرا » فرنسية ، لحفلة راقصة كبرى تقام فى البلاط البولندى .. وكانت المهمة عسيرة ، إذ كنت مضطرا إلى أن أراعى أوزان الشعر وأنغام الموسيقى فى آن واحد .. وقد نلت جزاء هذا علبة سعوط ذهبية فاخرة من ملك بولندا — فوق أتعابى — كما تلقيت تقديرا من أمى التى كانت ألمع النجوم المسرحية فى تلك البلاد ، فى هذه الآونة !

وما لبث « باتوا » أن صحبنى إلى مهرجان « سان لوران » .. ثم دعانى إلى تناول العشاء مع ممثلة تدعى « مورفى » ، والمبيت فى دارها .. ولكن الممثلة لم ترق لى ، فتركته ينفرد بها ، وآثرت أن أقضى الليلة على أريكة .. ولكننى لم ألبث أن رأيت أمامى صبية فى الثالثة عشرة من عمرها — بعد أن نام الآخران — جاءت تساومنى على أن تنزل لى عن فراشها .. وقادتنى إلى غرفة ضيقة .. وبحثت عن الفراش ، فإذا هو حشية زرية من القش .. وآثرت بالطبع الأريكة على هذا الفراش ، ولكننى فوجئت بالصبية تستلقى ، وتنشر على جسدها غطاء اتخذته من « ستارة » قديمة .. ولست أدرى كيف أبرز الغطاء القذر مفاتن جسد الصغيرة .. ووجدتنى أعجب بها ، إلى درجة أن عمدت إلى غسل جسمها بيدى ، لأزيل الأقذار عن هذه الفتنة ، التى كانت أقرب من رأيت فى الحياة إلى آلهات الإغريق !

واتفقت مع أختها بعد تلك الليلة على أن أرتاد منزلها من أجل الصبية لقاء أجر سخى .. وبلغ من افتتانى بها أن دعوت رساما ألمانيا أجزلت له العطاء ليرسمها عارية وقد استلقت على بطنها ، ورفعت صدرها ملتفتة بنحرها .. واستطاع الرسام أن ينتج لوحة تكاد تكون نموذجا حيا لكل ما للفتاة من مفاتن .. واحتفظ لنفسه بنسخة أخرى رسمها .. ثم قدر له .. بعد فترة من الزمن — أن يدعى إلى (فرساى) ، فرأى اللوحة معه السيد « دى سان كنتان » أحد أمناء الملك .. وبهر الرجل بجمالها ، فعرضها على الملك .. وبلغ من إعجاب « حامى حمى الدين » — لويس الخامس عشر — بالصورة أن طلب أن يرى الأصل الحى .. الصبية ! .. وكلف الملك « سان كنتان » بالبحث عنها ، فكلف « سان كنتان » بدوره الرسام ، فجاءنى الرسام ينشد عونى .. وكادت أخت الصبية أن تجن فرحا بهذا الحظ الذى هبط على شقيقتها من السماء ! » .

١٠٠٠ فرنك ثمنا للحسناء الصغيرة !

لم يمض يومان أو ثلاثة ، حتى اصطحبت الغانية أختها الفاتنة الصغيرة إلى (فرساى) . وكان « سان كنتان » قد رسم خطة ، فكلف خادما بأن يصحبهما إلى خميلة فى بساتين القصر المترامية . وما لبث الملك أن أقبل بعد نصف ساعة ، فأخرج الرسم من جيبه ، وراح يقارن بينه وبين « الأصل » ، ثم هتف : « ما رأيت من قبل رسما بهذه الدقة ! » .. ثم أجلس الفتاة على حجره ، وأخذ يداعبها ، ويضمها ، حتى إذا اطمئن إلى سذاجتها ، وإلى أن الثمرة لم تقطف بعد ، « خلع عليها ! » قبلة ، فابتسمت الصغيرة وهى تتأمل الملك بنظرة فاحصة !

وسألها الملك عما يدعوها للابتسام ، فقالت : « إنما أحاول أن أتصور شكلك والتاج يعلو هامتك ! » .. وضحك الملك لسذاجة الفتاة .. تلك السذاجة التى كان يمكن أن تعتبر قحة من سواها ، ثم سألها عما إذا كانت تحب أن تبقى فى (فرساى) ، فقالت إن هذا يتوقف على أختها ، وبادرت هذه قائلة إن الإقامة فى (فرساى) شرف عظيم ، لا تكاد تحلم به لأختها . وهنا تركهما الملك وانصرف . وإن هو إلا ربع ساعة ، حتى أقبل « سان كنتان » ، فصحب الصغيرة إلى مقصورة فى جناح بالقصر ، وأسلمها إلى رعاية إحدى نساء الحاشية ، ثم صرف أختها بعد أن سألها عن عنوانها . وفى اليوم التالى ، تلقت الغانية ألف فرنك .. ثمن أختها الصغيرة !

(مذكرات كازانوفا)

ثلاث سنوات فى أحضان الملك !

وأعجب الملك بالفاتنة اليافعة ، التى أطلق عليها اسم « أومورفى » . وكان أشد ما استهواه فيها بساطتها ، وسذاجتها ، ورشاقة حركاتها ، ولطف تصرفاتها .. فضلا عن ذلك الجمال الرائع الذى لا أذكر أننى رأيت له مثيلا ، وقد أمر الملك بتخصيص جناح لإقامتها فى « حديقة الوعول » .. وهى جزء من (فرساى) وقفه الملك العابث على عشيقاته ، ولم يكن يسمح بدخوله لغير نساء الحاشية !.. ولم ينقض عام حتى وضعت الفتاة ولدا ، لم يدر أحد مصيره ، كما لم يدر أحد مصير أولاد العشيقات الأخريات .. على أن ولع الملك بالفاتنة الصغيرة لم يدم لأكثر من ثلاث سنوات ، ثم نبذها بعد أن منحها أربعمائة ألف فرنك ، كانت « دوطة » مغرية ، فسرعان ما تزوجت الفتاة من ضابط من مقاطعة (بريتانى) فى سنة ١٧٨٣ !.

ملك يحب الضحك .. ولا يميل للنساء !

وما لبثت أن صحبت أخى إلى (درسدن) حيث كان يبغى أن يتلقى مزيدا من الدراسات فى فن الرسم . وهناك ، رحبت بنا أمنا — إذ كانت تقيم فى (درسدن) — وأكرمتنا أيما إكرام ، وقد أسعدها أن تجتمع بنا . على أننى ما لبثت أن تركت أخى معها ، وبارحت المدينة دون أن تعترض حياتى فيها أحداث تذكر ، اللهم إلا أننى وضعت مسرحية من النوع « الميلودراما » لقيت من إعجاب ملك ذلك البلد ما حمله على أن يمنحنى هدية ثمينة .. وكان ذلك

الملك يعتمد فى أبهته وكرمه على جيب الكونت « دى برول » وزيره !.. وكان الملك مغرما بوزيره ، إذ كان « دى برول » أكثر بذخا وإسرافا من مولاه !.. ولم أعرف فى حياتى عاهلا يمقت الاقتصاد قدر ذلك الملك ، حتى لقد كان ينفق أموالا طائلة ، فى سبيل .. الضحك !.. وكان يحتفظ بأربعة مهرجين ، كل مهمتهم فى الحياة أن يبتكروا من الحركات والفكاهات ما يضحك مولاهم !

ومع ذلك ، فإن بلاط (درسدن) كان فى ذلك الحين أكثر بلاطات أوربا إشراقا ولمعانا ، وقد ازدهرت الفنون بين رحابه .. ولم يكن ينقصه سوى الغزل والغراميات ، إذ لم يكن للملك أى ميل للجنس اللطيف ، ولم يكن للحاشية أو للرعية أن يتجهوا إلى شيء كهذا ، ما لم يضرب لهم مولاهم المثل والقدوة !

بوليس الآداب فى فيينا !

كنت فى الثامنة والعشرين من عمرى حين وصلت إلى عاصمة (النمسا) للمرة الأولى ، وأنا أبهى ما أكون أناقة . ولكننى كنت خالى الوفاض تقريبا ، ولم يكن لى ثمة معارف ، ولا حملت توصيات لأحد ، اللهم إلا خطاب تقدمة للأب « ماتيستاسيو » ، الأسقف الجليل ، الذى سرعان ما تبينت أنه أكثر ثقافة وعلما مما كان يبدو فى مؤلفاته . وكان دقيقا فى تحرى واختيار كل كلمة فى القصائد التى كان ينظمها !

وكان الرخاء والترف موفورين فى تلك المدينة العظيمة : (فيينا) . ولكن صراحة الإمبراطورة وحزمها ، جعلا التعبد فى محراب « فينوس » — (أى

ممارسة العشق والغرام) ـــ من أصعب الأمور ، إذ ألفت الإمبراطورة فرقة من « ضباط العفة » ، على نسق بوليس الآداب ، كان أفرادها يجوسون خلال الشوارع فى كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يتصيدون كل فتاة مسكينة تكون الظروف قد قضت عليها بأن تعيش وحيدة ، وأن تخرج لتعمل وتكسب عيشها !.. وكان أفراد الفرقة لا يرتدون زيا رسميا ، ومن ثم كان من العسير أن يفطن أحد إليهم وهم يختلطون بالناس فى الطرقات . فإذا رأى الواحد منهم فتاة تسير وحيدة تبعها ، حتى إذا دخلت بيتا ، تحرى عما إذا كانت من سكانه ، فإن لم تكن ، ترقبها إلى أن يراها خارجة فيعترض طريقها ، ويستجوبها !.. وعند أية بادرة من تلعثم أو ارتباك ، يجرها إلى السجن ، ولا يكف طوال الطريق عن استفزازها وإهانتها ، ولا يتورع عن تجريدها مما قد يجده معها من مال أو حلىّ !

« كازانوفا » يتنبأ بمصير إمبراطور النمسا !

وكان من الطبيعى أن ينفر هذا البوليس أى أجنبى يزور (فيينا) من إطالة المقام فيها ، إذ يحول بنشاطه دون أن يحظى هذا الأجنبى بأية متعة فى عاصمة النمسا !

على أن القدر ساق لى عددا من الأشخاص الذين سبق أن التقيت بهم فى البندقية ، فقدمونى إلى عدد من المجتمعات الراقية ، حيث انفسح أمامى المجال للمقامرة ، وحيث تعرفت بإحدى البارونات ، وعدد من السيدات اللائى كانت مراكزهن تجعلهن بمأمن من سطوة « ضباط العفة » !.. وقدر لى فى (فيينا) أن ألتقى للمرة الأولى بجوزيف الثانى ، الابن الأكبر للإمبراطور ..

وكان إذ ذاك أميرا ، مستهترا ، يذهب فى غروره إلى حد الوقاحة . وقد قدر لى أن ألتقى به بعد سنين عديدة فى (لوكسمبورج) ، وكان يسخر من الناس الذين يبتاعون الألقاب من حكومة الإمبراطور . وكان مما قاله : « إننى أحتقر أولئك الذين يشترون رتب الشرف » ، فقلت : « إن جلالتكم على حق ، ولكن ، ما الرأى فيمن يبيعون هذه الرتب ؟! » .

ولقد أراد الأسقف « ماتيستاسيو » مرة أن يختبر مدى تبحرى فى الفراسة ، فسألنى عما أقرأ فى وجه الإمبراطور ، فقلت له : « استهتار .. وانتحار ! » .. وما أظننى بعدت كثيرا عن الحقيقة ، لأن الإمبراطور قتل نفسه .. إذ مات فى حادث جاء نتيجة استهتاره !

(ولم يلذ العيش فى (فيينا) لكازانوفا ، الذى كانت لا تطيب له الحياة بدون مغامرات . ومن ثم لم يلبث أن رحل إلى (تريستا) ، ومنها استقل سفينة ذاهبة إلى (البندقية) . وهكذا عاد إلى وطنه بعد أن غاب عنه ثلاث سنوات . وفى أحد المهرجانات ، قدر له أن ينقذ سيدة جميلة وسيدا فى زى الضباط الألمان انقلبت بهما عربتهما . وسرعان ما مال « كازانوفا » إلى السيدة ، وكانت تدعى مدام « ك. » ، بينما حاول الضابط ــ الذى تبين أنه إيطالى الأصل ، ويدعى « ب. ك. » ــ أن يغشه بأذون مصرفية زائفة . وإذ فطن « كازانوفا » إلى الخدعة ، اعتذر له الضابط ، وقال إنه يرجو أن يراه فى ميدان (سان مارك) فى المساء ، حيث يصحب مدام « ك. » ، كما أعطاه عنوان مسكنه ، ودعاه إلى زيارته فيه) .

صريع الهوى .. دائما !

على أننى لفرط اشمئزازى من تصرفات هذا الضابط ، لم أعد أشعر بميل لتجربة حظى مع مدام « ك. » ، فتفاديت لقاءهما فى ذلك المساء . على أن شيطانى أوعز إلىّ فى الصباح التالى بأن أعتذر لهما لتخلفى عن موعدى معهما ، وتلقانى الضابط بترحاب ودى ، ولامنى لعدم مقابلتى إياهما فى الليلة السالفة . وحاول مرة أخرى أن يوقعنى فى أحد أحابيله ، وأن يستدرجنى إلى توقيع بعض سندات مالية ، ولكننى تهربت منه ، وهممت بالانصراف ، غير أنه استبقانى ليقدمنى إلى أمه وأخته .

وكانت الأم سيدة محترمة ، بسيطة فى مظهرها . ولكن ابنتها كانت رائعة الجمال إلى درجة بهرت عينى . ولم تنقض بضع دقائق ، حتى استأذنت الأم الطيبة ، الساذجة ، فى أن تأوى إلى مخدعها ، وبقيت ابنتها . وإن هو إلا نصف ساعة ، حتى كنت صريع هواها !

.. مع أكمل فتاة فى الوجود !

كان كل ما فيها يهفو بالمشاعر والأحاسيس : ذكاء ، وجمال ، ومرح ، وبراءة ساذجة ــ ولم يكن ثمة ما يأسر عواطفى قدر البراءة والسذاجة !ــ كان كل ما فى الآنسة « ك. ك. » يجعلنى عبدا لها ، ويوحى إلىّ بأنها أكمل امرأة فى الوجود ، ويبعث فى رأسى أكثر الأحلام جموحا !

كانت لا تغادر البيت إلا فى صحبة أمها ، كما كانت تقية ، عفة الخلق ، لا

تقرأ من الكتب إلا ما كان فى مكتبة أبيها التى لم تضم رواية قط !.. على أننى عرفت خلال الحديث الذى دار بيننا — بينما كان أخوها منهمكا فى الكتابة — أنها تتوق إلى مشاهدة معالم (البندقية) ، وتصبو إلى قراءة بعض الكتب الأدبية ، وتتمنى لو أتاح لها القدر أسرة طيبة تستطيع أن تتردد عليها . وراحت تمطرنى بالأسئلة ، وأنا أرد بالإجابات التى تثير الشوق فى نفسها ، وتوجه أفكارها وعواطفها الوجهة التى أردتها ، وإن لم أشر قط فى حديثى إلى ما أوتيت من جمال فتاك ، ولا إلى أثر ذلك الجمال فى نفسى .

عهد .. وإغراء !

وانصرفت أخيرا وأنا آسف لمبارحة الدار ، وقد تغلغل فى نفسى أثر تلك الخصال النادرة . وعاهدت نفسى على أن لا أراها ثانية ، إذ كنت أدرك أننى لست بالرجل الذى يقوى على أن يقيد حريته بالزواج ، وإن رأيت فيها كل الصفات التى تكفل السعادة لزوجها !

وانقضى يومان أضربت بالفعل عن زيارة بيت « ب. ك. » خلالهما . ولكننى فى اليوم الثالث صادفته فى الطريق ، فذكر لى أن أخته لا تكف عن الحديث عنى ، وعن ترديد بعض ما رويته لها .. وأن أمه ارتاحت إلىّ ، وسرت بتعرف الأسرة بى .. وتطرق بنا الكلام إلى الحديث عن الزواج ، فقال إننى وأخته أصلح زوجين متلائمين ، وأنها أوتيت « دوطة » قدرها عشرة آلاف دينار ذهبى !

ودعانى إلى تناول القهوة فى داره فى اليوم التالى ، فنسيت العهد الذى قطعته على نفسى .. أو بالأحرى ، تناسيته !

وذهبت .. وقضيت ثلاث ساعات فى الحديث مع الفتاة الفاتنة ، حتى إذا بارحت الدار فى النهاية ، كنت قد تدلهت فى هواها .. وقلت لها وأنا أفارقها ، إننى أحسد الرجل الذى سيقدر له أن يكون زوجا لها !

كازانوفا .. العاشق الحائر !

ما أن فارقتها فى هذه المرة ، حتى أخذت أدرس عواطفى نحوها . وشد ما جزعت إذ تبينت أننى عاجز عن أن أعاملها فى تحرر وعبث ، وعن أن أظل معها شريفا عفا ، كذلك !.. أجل ، لم أجد من نفسى جرأة على أن أقدم على طلب يدها ، ولا أنا استطعت أن أفكر فى النيل منها .. ولو أن أحدا اقترح علىّ إذ ذاك أن أغرر بها لقتلته !

على أننى ـــ عند هذه المرحلة ـــ كنت قد بدأت أفطن إلى عدة أمور أولها ، أن العذراء الفاتنة صرفتنى عن مطاردة عشيقة شقيقها .. وثانيها ـــ وأهمها ـــ أن الشاب كان يسعى لاستدراجى بشكل مريب إلى الزواج بشقيقته . وخرجت من تفكيرى بأن الوغد كان يعانى ضائقة مالية ـــ بدليل محاولاته العديدة للاحتيال علىّ ـــ وأنه لم يكن يتورع عن أن يبيعنى أخته فى سبيل المال !.. وأسفت على أن تكون مثل هذه العذراء الجميلة ، وأمها الوقور الطيبة ، على قرابة بوغد كهذا . بيد أن انتباهى إلى هذه الحقيقة ، جعل شيطانى ينشط للعمل .. وكانت الحيلة التى وسوس إلىّ الشيطان بها ، بالغة المكر والخبث !.. فقد أوحى إلىّ بأن الشاب لن يرعوى عن بيع أخته لأى مشتر ، ومن ثم فقد يوقع بها تحت رحمة عابث لا يرعى ذمة ولا ضميرا ، فى حين أننى لن أجسر على أن ألحق بها أى ضرر ، لأن حبى لها يمنعنى من إيذائها !

أخيـرا .. خـلا الجـو !

وهكذا وجدتنى أتمشى مع الشاب فى تدبيراته ، فأغرينا الأم الطيبة بأن تأتمننا على ابنتها ، لنصحبها إلى « الأوبرا » .. وبالفعل ذهبت الفتاة معنا . وصحبتنا كذلك عشيقة أخيها . وكان من الطبيعى أن يشغل الشاب بعشيقته ، وأن أجد فرصة لأجاذب الفتاة الحديث ، بمنأى عن أية مضايقة ! وفى اليوم التالى ، أقبل « ب. ك. » مغتبطا ، وقال لى أن الفتاة ذكرت لأمها عقب عودتها من « الأوبرا » أنها تؤثر أن تتزوجنى دون كل رجال الدنيا !.. وأكد لى أنها فطنت إلى حبى لها ، ومن ثم راح يغرينى على الزواج منها ، ويمنينى بما كانت تملك من « دوطة » !

وقلت له : « الواقع أننى لا أحبها فحسب ، بل أعبدها ، ولكن .. هل تظن أن أباك يرضى بى زوجا لها ؟ » .

وكنت قد عرفت أن الأب على شقاق مع أسرته ، وكان لهذا يعيش بعيدا عنها .. فقال « ب. ك. » فى صراحة مترددة : « لا .. ما أظنه يرضى ، ولكنه شيخ طاعن فى السن .. وإلى أن يواتيه الموت ، تستطيع أن تستمتع بصحبة الفتاة !.. وبهذه المناسبة ، أبشرك بأن أمى سمحت بأن نصحب أختى مرة أخرى إلى « الأوبرا » . والآن ، لننتقل إلى حديث عملى .. لقد ابتعت صفقة من النبيذ القبرصى الرائع ، وسأحقق ربحا كبيرا من وراء بيعها .. بيد أن التاجر الذى اشتريت منه ، أبى أن يقبل توقيعى على سند ، دون ما ضامن .. فهل تضمننى ؟ » .

ووقعت السند فى هذه المرة دون ما تردد ، إذ أين الرجل الذى يضيع على

نفسه فرصة كهذه ؟.. كنت قد تُيمت بحب الفتاة ، وكان الشاب يفسح لى الطريق ، وقد غرق فى علاقته بعشيقته فشغل بها عن كل شىء !

وهكذا ، ما لبثت أن وجدت الفرص تسنح ، كى أخلو إلى حبيبتى ، وأن أصحبها فى نزهات بعيدة عن أنظار أخيها !

سباق .. مع الجمال !

واتفقنا يوما على أن نخرج للنزهة : الضابط « ب. ك. » وعشيقته ، وأنا وأخته . وبادرت فابتعت بعض الهدايا لفاتنتى ، ثم خففت إلى مكان اللقاء فى الموعد المتفق عليه تماما ، وإذا بى أجد رفاق قد سبقونى ، فخيل إلىّ أن هذا السبق مجاملة لطيفة من الشاب ، ولم يخامرنى أى ارتياب فى نواياه . على أنه لم يلبث بعد برهة أن زعم أنه وعشيقته منطلقان لبعض مهام خاصة ، ومن ثم فإنه يكل أخته لرعايتى ، على أن نلتقى جميعا فى المسرح فى ذلك المساء ، وما أن بارحنا الشاب وعشيقته ، حتى عرضت على الفتاة أن نستأجر « جندولا » ، ونقضى اليوم فى نزهة على سطح الماء . ولكنها أبدت رغبتها فى الذهاب إلى حديقة (زويكا) ، وهى حديقة بديعة ، صغيرة ، لم أتردد فى أن أستأجرها بأسرها فى ذلك اليوم ، حتى لا يعكر دخيل صفو هناءتى بقرب فاتنتى !.. ثم طلبت غداء دسما شهيا ، وأوينا إلى غرفة تخففنا فيها من معطفينا ، ثم جلسنا بعد ذلك فى الحديقة . ولم تكن « ك. » ترتدى سوى « جونلة » من الحرير الخفيف ، و « بلوزة » من قماش مشابه ، ولكن هذا الزى البسيط لم يزدها إلا سحرا !

.. وكانت نظراتى الولهانة تخترق هذا القماش الحريرى الخفيف ، فأكاد أرى الفتاة عارية !.. ورحت أزفر فى وجد !

وحلا للفاتنة الصغيرة أن تجرى فى الحديقة ، وقد استهواها جمال الطبيعة . وإذ لمحتنى أنظر إليها مشدوها ، ومنتشيا فى الوقت ذاتـه ، تحدتنى أن أسابقها ، فقلت لها: « حسنا .. ولكن لا بد من رهان!.. وليكن رهاننا أن يصدع الخاسر بما يطلبه منه الفائز ! » .

أين الخاتم ؟!

وتعمدت فى المرة الأولى أن أخسر ، لأرى ما قد تأمرنى بعمله . وكان العقاب الذى ابتكرته ، أن اختفت وراء شجرة وأخفت خاتما كان يحيط بإصبعها ، ثم سألتنى أن أبحث عنه ، قائلة إن مخبأه غير بعيد عنها . وكان معنى ذلك أن أتحسس جسمها ، وأن أقلب أطراف ثوبها ، حتى عثرت فى النهاية على الخاتم .. بين نهديها !.. ومددت أصابعى المرتجفة أنتشله ، وأنا موزع بين الدهشة والحرج والرغبة والتورع .. فى آن واحد !.. ولكنى استطعت أن أتبين أخيرا أن الفتاة — التى لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها — كانت مبرأة عن الخبث والخداع ، وما اختارت هذا المخبأ إلا عن سذاجة طائشة ! وقضينا يومنا فى قبلات ودعابات .. كنت أقبلها مشفقا عليها من حرارة وجدى ، وكانت هى تقبلنى كما تقبل الطفلة أباها !

والتقينا فى المساء بأخيها وعشيقته فى المسرح . وكانا قد أفرطا فى الشراب بعض الشيء ، إذ أخذ الشاب يطلق نكاتا وفكاهات لم نكن نفهمها ولا تضحك لها سوى عشيقته !.. وأصر « ب. ك. » على أن نتناول العشاء فى « كازينو » اشتهر بأنه يتألف من غرف تبيح العزلة للجماعات .. وقد كان ، واحتلت جماعتنا غرفة . وكان الطعام شهيا ، والشراب معتقا ، فلم يلبث « ك » أن

خرج عن وقاره واحترامه لطهر أخته ، فراح يقبل عشيقته فى شبق !.. وتمادى فانتهز فرصة وقوفى مع أخته لدى النافذة ، واحتضن عشيقته فى وضع ناب ، وهو يظن أننا لا نفطن إليه .. ولكننى لاحظت أن الفتاة رأت المنظر منعكسا على زجاج النافذة ، فاحتقن وجهها !

كازانوفا يكشف حبه للأسرة !

واشتد حبى للفتاة إذ ذاك ، فعولت على أن أنقذها من المصير الرهيب الذى ينتظرها على يدى أخيها ، فى سبيل تحقيق أهدافه !.. وكانت الأيام لا تزيدنى إلا يقينا من أنه لن يتورع عن أن يبيع أخته من أجل المال !.. لذلك سعيت إليه فى اليوم التالى — يحدونى الحب الخالص البرىء — وبعد أن بينت له مدى ما فى إعجابى بأخته من شعور مجرد ، طاهر ، رحت ألومه على ما كان من مسلكه مع عشيقته أمامها . واعتذر فى تأثر ، ملقيا الذنب على الخمر التى أفرط فى تناولها . وما لبثت أمه وأخته أن أقبلتا ، فشكرتنى الأم على ما تجشمت فى سبيل رعاية ابنتها . ووجدتنى أندفع قائلا إننى إنما أحب الفتاة ، وأتمنى لو ظفرت بها زوجة لى . ثم قبلت يد الأم ، وقد استبد بى الوجد والتأثر حتى أجريا دمعى على خدى !.. وسرعان ما بكت العجوز الطيبة حنانا . ثم تركتنى مع ابنتها وابنها — الذى مكث جامدا مشدوها — وغادرت الحجرة ودهشت الفتاة لما سمعته من قولى لأمها ، ولكنها ازدادت دهشة حين صارحها شقيقها بما أنحيت به عليه من لوم على مسلكه خلال ليلة أمس ، فى حضورها !

يتقلب على لهب مستعر !

ولكن أثر هذا اللوم لم يبق فى نفس الوغد طويلا .. إذ ما لبث بعد فترة أن دعانى إلى أن أوافيه فى موعد جديد ، فيحضر لى أخته ويتركها معى لينصرف إلى عشيقته . وزاد على ذلك بأن أسلمنى مفتاح المسكن لأعود بأخته بعد العشاء ، دون حاجة إلى أن نلتقى به !

ووافيتهما فى الموعد — فى الصباح التالى — وأنا أشد ما أكون قلقا وانفعالا . فقد كنت أعرف مدى وجدى واستعاره ، ولذا كنت أخشى عواقب البقاء مع الفتاة دون رقيب !.. وقضيت مع « ك. » اليوم فى الحديقة كما فعلنا فى المرة السابقة . وقبل أن نذهب إلى المسرح فى المساء ، تناولنا العشاء فى مقصورة منعزلة بالحديقة . وتخلت الفتاة عن حذرها ، فجلست على ركبتى ، وراحت تبادلنى قبلات أخذت تشتد حرارة بين قبلة وأخرى !.. ووجدتها تناقشنى فيما حدث بين أخيها وعشيقته عقب العشاء فى المرة السالفة !..

فقلت لها : « ألست تخشين أن أفعل بك شيئا كهذا ؟ » ، فقالت : « لا يا حبيبى ، فإنى أدرك مدى حبك لى .. وعلى كل ، ففى وسعنا أن نعجل بزواجنا . وإنى لعلى استعداد لأن أتزوجك غدا لو أردت . وما أرى أن أبى قد يرفض ! »

وأدركت ما كانت ترمى إليه .. إن أباها سيضطر إلى القبول — إنقاذا لشرفه — إذا هى كانت لى ، وأسلمتنى نفسها !.. وكنت أتقلب على لهب مستعر ، فلم أعد أقوى على المقاومة . فقلت لها : « أواه ، يا حبيبتى !.. أواثقة أنت من أنك لن تندمى إذا ما أصبحت زوجتى ؟ » . قالت : « لن أندم بكل

تأكيد يا حبيبى ، فإن ما ألمسه من حبك لى ، لا يمكن أن يسمح لك بأن تفعل ما يشقينى ! ».

عابدان .. فى محراب إلـٰه الهوى !

وهتفت فى شوق وحماس : « إذن ، لنبدأ زواجنا منذ الآن .. ليكن الله وحده شاهدا على مواثيقنا وإيماننا ، فلن يكون البشر خيرا من الله فى الشهادة . إنه الوحيد الذى يعلم براءة نوايانا . فلنربط مصيرينا معا ، ولنهنأ باتحادنا ! » .. فقالت : « افعل بى ما شئت يا حبيبى ، وأعاهد الله على أن أكون زوجتك الوفية منذ هذه اللحظة إلى الأبد ! » .. وبادلتها هذا القسم ، ثم أسلمنا نفسينا إلى عبادة إلـٰه الحب والهوى . وكانت بشرتها كالحرير ملمسا ، وبياضا ناصعا ، وشعرها ليلا يطبق على منكبين من عاج !! .. أى قوام رشيق أوتيته !.. وما كان أبدع نحرها ، وتكور نهديها الفاتنين ، وجمال عينيها إذ أومضت فيهما شرارة الرغبة !

رياضتنا الغرامية !!

جاءنى « ب. ك. » فى الصباح التالى ، متهلل الوجه ، وقال : « إننى متأكد من أنك نلت من أختى وطرا ، وإنى لجد مغتبط بهذا . وسأحضرها لك اليوم ! » .. فرحبت بما عرض ، وقلت له إننى سأدبر طريقة لا تدع لأبيه سبيلا إلى الرفض ، إذا ما تقدمت لطلب يد الفتاة . ولكن الشاب النذل لم يكن ليفلت الفرصة دون أن يفوز لنفسه بنفع . لذلك لم يلبث أن سألنى أن أوقع

ـــ كضامن ـــ على سند حرره لجوهرى مقابل خاتم ثمنه مائتا جنيه ذهبى . فقلت له : « إننى على استعداد للتوقيع ، ولكنك تسىء إلى حبى لأختك بهذا التصرف ! » .

.. وضمنته لدى التاجر . فلم يحن ظهر ذلك اليوم ، حتى أحضر لى أخته .. فكانت لهفة كل منا إلى صاحبه فى هذه المرة أقوى منها فى سابقتها . وبدا لى أن الفتاة كانت تواقة لأن تثمر « عبادتنا » هذه ـــ فى « محراب الهوى ! » ـــ ثمرة تجبر أباها على أن يوافق لفوره على زواجنا !.. وانغمسنا فى نشوتنا ، فلم نفطن إلا والفجر يغزو الكون !

وجددنا استمتاعنا باللقاء فى يوم الجمعة التالى ، ثم افترقنا على أن نلتقى فى يوم الاثنين ، وكان آخر أيام « الكرنفال » . وما كان ليعوقنى عن هذا اللقاء سوى الموت ، إذ كانت هذه المناسبة آخر فرصة تسنح لنا كى نمارس رياضتنا الغرامية !

كازانوفا .. يطلب الزواج من « الضحية » !

والتقيت بشقيق حبيبتى .. فى صباح يوم الاثنين ـــ فأكد لى أن أخته تذكر موعدنا . وأخذت أنتظرها . وانقضت الساعة الأولى ، وكانت الثانية أثقل وطأة ، وأوشك صبرى أن ينفد بمرور الثالثة . فلما انقضت الساعة الرابعة ، ولم يظهر أثر لمعبودتى ، تولانى قلق رهيب ، ورحت أتصور أبشع النكبات . وجاءت أخيرا ، وقد أسدلت على وجهها قناعا ، متلهفة على أن نسرع إلى معبد هوانا ، ذاكرة أنها لم تر أخاها فى ذلك اليوم ، على عكس ما زعم لى ـــ وكان علينا أن نستقل « جندولا » لنصل إلى حديقتنا ، فإذا بالرياح تهب ـــ

ونحن فى عرض الماء ـــ قوية ، فتلاعب الجندول ، وتجعلنا تحت رحمة الأقدار . على أننا بلغنا البر بسلام . وقضينا ست ساعات كاملة فى صومعتنا ، لم يعكر هناءتنا خلالها سوى أن أعياد « الكرنفال » كانت قد انتهت ، ولم نكن ندرى كيف ندبر اجتماعتنا بعدها ، إذ لم تكن أم فتاتى قد سمحت لها بالخروج فى الأيام السالفة إلا للاحتفال بهذه الأعياد . على أننا اتفقنا على أن أذهب إلى دارهم فى الصباح التالى ، فألزم غرفة أخيها ، وتوافينى هى هناك ! وكان الهوى قد جرفنى ، فخلوت فى تلك الليلة إلى أبى الروحى ـــ السيد « براجادان » ـــ وزميليه ، وصارحتهم بقصة غرامى ، وقلت إن المشكلة هى أن لا بد لى من مركز محترم ، يليق بصداق الفتاة ، وكان يبلغ عشرة آلاف درهم ذهبى . وطلبوا لى أن أتصل بالأرواح ـــ التى كنت أزعم أننى على اتصال بها ـــ وأواتيهم بمشورتها . وتظاهرت بالغيبوبة ، ورحت أتكلم ، فلما صحوت ثانية ، كانت النتيجة أن على السيد « براجادان » أن يطلب يد الفتاة لى ، لأن الأرواح اختارته لهذه المهمة . فقرر زميلاه أن يصحباه لهذه الغاية ، إذا ما جاء والد الفتاة إلى البندقية .

والد « المعبودة » .. يرفض عرض العاشق !

وذهبت فى اليوم التالى إلى دار معبودتى ، وأنا أكاد أطير فرحا ، ولكننى فوجئت بها وبأمها حزينتين ، إذ سجن « ب. ك. » لأنه عجز عن سداد دين باهظ لا سبيل إلى تدبير قيمته .. ووفقت بعد لأى إلى إقناع الأم بأن تقبل منى مبلغ خمسة وعشرين جنيها ذهبيا ، تستعين به فى تلك الظروف ، ثم رويت لهما ما تقرر من طلب يد الفتاة رسميا ، ولكن الأم قالت إننى يجب أن لا أنساق

للآمال ، لأن والد الفتاة كان مصرا على أن لا يزوجها إلا لتاجر ، وبعد أن تبلغ الثامنة عشرة !.. وذكرت لى أن الأب قد يفد فى تلك الليلة ، لأنها أرسلت تدعوه . وفيما كنت منصرفا ، دست حبيبتى رسالة فى يدى تدعونى فيها لأن أوافيها فى منتصف الليل ، مستخدما المفتاح الذى كان أخوها قد أعطانيه !

وما أن علم السيد « براجادان » بأن والد حبيبتى كان مرتقبا فى تلك الليلة ، حتى بادر بالكتابة إليه يسأله موعدا لمقابلته . ولست بحاجة إلى أن أذكر أننى ذهبت للفتاة فى الموعد المتفق عليه ، فقضينا ساعتين من أسعد ساعات العمر .. ثم عدت إلى دارنا . وقضيت صباح اليوم التالى ، أرتقب فى قلق . حتى إذا كان الظهر أخبرنى أبى الروحى بأن والد الفتاة رد فى رسالته بأنه سيزوره فى اليوم التالى بنفسه . فلما انتصف الليل ، وافيت حبيبتى ، فأخبرتنى بأن رسالة عضو مجلس الشيوخ شغلت بال أبيها .

وأقبل السيد « ش. ك. » بعد أن فرغنا من الغداء فى اليوم التالى ، فظل ساعتين كاملتين مع أصدقائى الثلاثة ، وأنا معتكف فى غرفتى . وما أن انصرف ، حتى علمت أنه أجاب بنفس ما سبق أن ذكرته لى زوجته ، وإن أضاف إلى ذلك نبأ كان له على نفسى وقع الصاعقة — إذ قال إنه رأى من الخير لابنته أن تقضى السنوات الأربع التالية — والسابقة على السن التى قرر أن يزوجها فيها — فى مدرسة داخلية بأحد الأديرة ، ليحسن إعدادها للزواج . وكان العزاء الوحيد الذى ساقه ، هو أنه لن يمانع فى أن يزوجنى من الفتاة ، إذا كان قد قدر لى — بعد السنوات الأربع — أن أوطد مركزى فى الحياة !

ومكثت أربعا وعشرين ساعة فى هم وحيرة ، وقد أخذت الأفكار المتشائمة تعذبنى وتضنى فؤادى . وانتهيت أخيرا إلى أن أسعى لزيارة مدام « ك. » — أم معبودتى — ولكننى حين ذهبت ، تبينت أنها قد رحلت مع ابنتها

إلى الريف . وبلغ بى الخبل مبلغه ، حتى أننى سعيت لزيارة « ب. ك. » — شقيق الفتاة — فى سجنه ، على أمل أن أجد لديه أية معلومات أفيد منها ، ولكننى لم أظفر منه بشىء ذى بال . ورحت أعتصر ذهنى بحثا عن خطة لما ينبغى أن أعمله ، وأنا أنحى على نفسى باللائمة ، وأتصور ما قد تكون فيه حبيبتى من تعاسة وشقاء . وزاد من همى أن السيد « براجادان » وزميليه سافروا بعد يومين إلى (بادوا) ، وتركونى وحيدا ، فأقبلت على الخمر والميسر حتى فقدت كل ما كنت أملك !.. ولكننى لم أجزع ، فقد طاب لى أن أقود نفسى إلى الدمار ، لولا أن فوجئت بالخادم يقود إلىّ سيدة حملت رسالة لى . وما أن ألقيت نظرة على الرسالة ، حتى أيقنت أنها من فتاتى ، فكدت أجن لهفة ، وأسرعت أفضها بأصابع مرتجفة ، فإذا بها تتضمن سطورا قلائل ، أعلنت خلالها « ك. ك. » أنها ألحقت بمدرسة أحد الأديرة ، وأن أباها أمر بألا يسمح لها بتسلم رسائل أو استقبال زائرين ، ولكنها رغم ذلك استطاعت أن تهتدى إلى المرأة التى حملت لى هذه الرقعة . ثم وعدتنى بالكتابة إلىّ مرة أخرى . وبادرت بالكتابة إلى حبيبتى ردا موجزا ، اختبارا لأمانة المرأة التى قررنا أن نتخذها بيننا رسولا ! وكانت رسالة حبيبتى مبعث إنعاش قضى على ما استولى علىّ من هم واكتئاب ، فبادرت إلى إعداد حقائبى ، ولحقت بأبى وصديقيه فى (بادوا) . وهناك ، تعرفت بشاب من (ميلانو) يدعى « دون أنتونيو كروش » ، عرض علىّ أن أشاركه فى مشروع لإدارة حلقة للمقامرة فى داره . ولم تكن زوجته فوق الشبهات ، ومن ثم كان المفهوم أن الغرض الأول لهذه الحلقة هو .. ابتزاز أموال أعضائها !

الغاية .. تبرر الوسيلة !!

وهكذا شاءت الظروف أن أكون شريكا فى مؤامرة للنهب ، ولكننى كنت مضطرا إلى ذلك ، إذ خيل إلىّ أننى إذا حصلت على مبلغ كبير من المال ، استطعت أن أدبر طريقة لاختطاف فتاتى والهرب بها بعيدا ، إلى حيث نحظى معا بالسعادة التى كنا نحلم بها .

وكان لا بد لى من أن أقدم ثلاثمائة دينار بندق ، للاشتراك فى المشروع ، فأوقعنى هذا بين براثن مراب كان كالوحش المفترس ، إذ استغل حاجتى ليأخذ منى سندا بألف دينار بندق ، خصم منها مقدما جميع فوائده ، فلم يكد يبقى أكثر من نصفها ، وسار المشروع بنجاح كبير لأربع أو خمس ليال ، ثم أقبل « كروش » فجأة ذات يوم ، يعلن أنه تلقى إنذارا من السلطات بأن يبرح (بادوا) خلال أربع وعشرين ساعة ، لأنه يغرى الناس على القمار !.. وبادرت لفورى إلى حمل نصف الذهب الذى كان معنا ، ثم امتطيت جوادا ، وانطلقت إلى خارج المدينة فى جنح الظلام ، وفى أسوأ الأحوال الجوية ، واستطعت بعد عناء أن أصل إلى البندقية . وكأنما كنت والحظ على موعد ، إذ لم أكد أستيقظ فى الصباح التالى ، حتى أقبلت « موران » ـــ رسولة حبيبتى ـــ تحمل رسالة منها ، وتسألنى أن أعد الرد خلال ساعتين . وبادرت إلى فض الخطاب ، فإذا فيه :

قبلات حنون .. من إحدى الراهبات !

كان الخطاب طويلا ، يتألف من سبع صفحات ، ولن أرهق القارئ بإيراد نصه ، ولكنى أكتفى بتلخيصه فيما يلى :

عاد والد الفتاة إلى الدار بعد مقابلته للسيد « براجادان » ، فدعاها وأمها ، وسأل الفتاة عن ظروف تعرفها بى ، فقالت إنها رأتنى خمس أو ست مرات مع أخيها ، وإننى سألتها عما إذا كانت توافق على الزواج منى ، فقالت إن الجواب من شأن أبويها . وإذ ذاك قال لها أبوها إنها لا تزال صغيرة فى السن ، فلا ينبغى أن تشغل بالها بأمر الزواج ، فضلا عن أننى لم أكن قد حصلت بعد على مركز فى المجتمع . وبعد يومين ، قال لابنته إن عمة لها ستصحبها إلى دير تمكث فيه حتى يختار لها أهلها زوجا صالحا ، فأجابته بأنها تطيع رغباته راضية ، مما اغتبط له الرجل ، فوعدها بأن يزورها فى الدير ، وأن يصطحب أمها إذا كانت صحتها تسمح لها بمرافقته .

وهكذا ألحقت الفتاة بالدير ، حيث أفردت لها حجرة نقل إليها فراشها وثيابها . وقد اغتبطت بهذه الغرفة ، كما ارتاحت إلى الراهبة التى تولت رعايتها . ومع أن هذه الراهبة حرمت عليها كتابة الرسائل ، أو تسلم خطابات من الخارج ، أو استقبال زائرين — وإلا كان عقابها الحرمان من الكنيسة ، بل واللعنة الأبدية ! — فقد كانت هى التى أمدتها بالورق والمداد والكتب ، فانتهزت حبيبتى فرصة الليل لتخرق القانون وتكتب لى كل هذه الصفحات !

وروت لى فى أسلوب مشوق أن أجمل راهبة فى الدير أحبتها ، فآثرتها بدروس اللغة الفرنسية مرتين فى كل يوم ، وحرمت عليها — فى ود — أن

تتعرف بواحدة سواها من ساكنات الدير . وكانت تلك الراهبة فى الثانية والعشرين من عمرها ، جميلة ، كريمة ، من أسرة غنية ، تبدى لها كافة الراهبات الأخريات احتراما كبيرا .. « حتى إذا انفردنا معا ، أخذت تنهال علىّ بقبلات حنون .. وأحسبك كنت تغار منها لولا أنها أنثى ! » .. وذكرت حبيبتى أن مشروع الفرار لن يكون عسيرا ، ولكنها نصحتنى بالتريث ريثما تدرس موقع الدير والطريق الذى تتبعه . وناشدتنى أن أبقى وفيا لها . وسألتنى أن أرسل لها صورة لى ، لتخفيها فى خاتم لا يعرف سره سوانا !.. وأنبأتنى أن فى وسعى أن أرسل هذا الخاتم عن طريق أمها .. وأضافت قائلة : « وعلى أية حال ، فإننى آمل أن أجد نفسى بعد أشهر قلائل فى وضع كفيل بأن يثير فضيحة فى الدير ، إذا أصر أهلى على إبقائى هنا » !

كازانوفا والقديسة « كاترين » .. فى إطار واحد !

وأرسلت إليها — مع رسولتنا — ورقا ، وأقلاما ، وشمعا أحمر تختم به رسائلها ، فضلا عن رسالة ملتهبة بالأشواق . وعدت فى اليوم ذاته إلى (بادوا) ، بعد أن اطمأننت إلى أن قرار السلطات بإقصاء « كروش » لا يمسنى فى شىء ، فتلقانى أبى الروحى وزميلاه باغتباط فياض . وفى الليلة ذاتها ، قدر لى أن أكسب خمسمائة دينار فى اللعب ، فلجأت فى اليوم التالى إلى رسام بارع ، رسم لى صورة دقيقة ، كما رسم صورة أخرى للقديسة « كاترين » ، ثم حملت الرسمين إلى صائغ سألته أن يصنع خاتما يضع فى مكان الحجر الكريم منه صورة القديسة ، على أن يكون فى وسط الإطار المحيط بها زر دقيق جدا ، إذا ضغط انزاحت الصورة فتكشف عن صورتى !

ودهشت عندما التقيت فى يوم الجمعة التالى بشقيق حبيبتى فى المدينة ، فزرته وعشيقته فى الفندق الذى نزلا فيه . وهناك ، عرفت أن رجلا ذا مكانة ، ابتاع منه العقود التى كانت لديه ، مقابل خمسة عشر ألف دينار فلورنسى ، يدفعها على ثلاث سنوات ، وإنه لقاء هذا سعى للإفراج عنه مقابل ضمانة شخصية منه ، كما منحه أربعة خطابات اعتماد بمبلغ ستة آلاف دينار ، ذكر لى الشاب أنه سيبتاع بها كمية من الحرير يبيعها بربح لا يقل عن عشرة فى المائة . وسألنى أن أصحبه وعشيقته إلى (فيشنتسا) فى اليوم التالى ، لشراء الحرير ، وإبرام الصفقة ، واعدا بأن يرد لى جزءا مما كان قد اقترضه منى . ولم أر مانعا من أن أجاريه ، فسافرت معهما فى اليوم التالى ، بعد أن توليت عنهما دفع حساب الفندق !.. وما أن استقر بنا المقام فى فندق فيشنتسا ، حتى انطلق « ب. ك. » لينجز مهمته . وما أن وجدت الغانية نفسها معى على انفراد ، حتى قالت لى : « لقد أحببتك منذ ثمانى عشرة سنة .. عندما رأيتك فى (بادوا) للمرة الأولى ، وكان كل منا فى التاسعة من عمره ! » .. واستطعت بعد لأى أن أتذكرها . كانت ابنة الرجل الذى أرسلنى إليه السيد « جريمانى » حين بعث بى إلى (بادوا) لأتعلم ، والذى أشرف على إيجاد مسكن لى هناك .

وعاد « ب. ك. » بصحبة بعض التجار ، فسرعان ما امتلأت الحجرة بالبضائع ، وراح يناقشهم فى الأسعار ، ثم طلب كميات أخرى وعدوه بأن يرسلوها فى اليوم التالى ، رغم أنه كان يوم الأحد ، ودعاهم « ب. ك. » إلى الغداء وأسرف فى طلب أشهى ألوان الطعام والخمور . حتى إذا حل المساء ، أقبل نفر من علية القوم ، كان الشاب يحمل رسائل توصية لهم ، فدعاهم إلى عشاء كان أفخم من الغداء . وغاظنى هذا التصرف منه ، إذ كنت أعلم أنه لا يحمل من المال سوى خطابات الاعتماد التى سيحولها للتجار ، كذلك تركت

الجمع فى صخبهم ولجأت إلى فراشى محنقا . وفى الصباح ، وجدت الغرفة قد اكتظت ببضائع تفوق أثمانها قيمة تلك الخطابات . وجاء التجار فتناولوا معنا غداء لا يقل فخامة عن غداء اليوم السابق . حتى إذا كان المساء ، أخبرنى « ب. ك. » بأننا مدعوون إلى حفلة راقصة ، فصحبته وعشيقته ، ولكننى سرعان ما شعرت بالضيق والملل ، لا سيما وقد لاحظت أن القوم كانوا يتحاشوننى ولا يكادون يتكلمون معى ، وأن السيدات كن يعرضن عن مراقصتى .. ورابنى هذا الأمر ، ولكننى كنت فى حالة نفسية جعلتنى أرتاح إلى هذا الإعراض ، لأبادر إلى مغادرة الحفلة ، واللجوء إلى فراشى .

كازانوفا .. « زوج شرف » !!

واحتملت يوم الاثنين بصبر نافد ، إذ كان من المقرر أن نرحل فى صباح يوم الثلاثاء . فلما استيقظت فى ذلك الصباح ، أقبل خادم يدعونى إلى الإفطار . وإذ تلكأت قليلا، جاء خادم آخر وأخبرنى أن « زوجتى » ترجونى أن أعجل بالهبوط . ولم أتمالك نفسى ، فصفعت الخادم فى عنف ، وركلته بقوة طوحت به إلى أسفل السلم ، ثم هبطت محنقا ، فولجت إلى غرفة المائدة ، وسألت « ب. ك. » عن الوغد الذى أعلن فى الفندق أننى زوج لعشيقته ، ولكنه أبدى جهلا بكل شيء !.. وفى تلك الأثناء ، أقبل صاحب الفندق مشهرا خنجرا ، ليقتص منى جزاء ضربى خادمه . وشهرت بدورى مسدسى . وسألته — آمرا — بأن يفسر لى السر فيما قيل من أننى زوج المرأة ، فأجاب قائلا : « هكذا أثبت الكابتن ب. ك. فى سجل الفندق » ! وانقضضت على « ب. ك. » وقد أدركت سر ازورار القوم عنى ، بعد إذ

رأونى أترك « زوجتى » تنام فى مخدع « زميلى » راضيا !.. وأمسكت برقبة الوغد ، وألصقته إلى الجدار ، وأوشكت أن أقضى عليه لو لا أن أنقذه صاحب الفندق من بطشى . وأخذت الفاجرة تبكى ، بينما كان الجبان يردد : « هذا كذب ! » .. فأثار قوله صاحب الفندق فأسرع وأحضر السجل ، ووضعه تحت عينى النذل وتحداه أن ينكر أنه الذى أملى أسماءنا . ثم أطبق الرجل دفتر السجل ، وصفعه به صفعة قوية طوحته إلى الجدار مبهوتا ، مذعورا ! وغادرت الحجرة ثائرا ، فأمرت صاحب الفندق أن يعد لى عربة ، ثم صعدت إلى غرفتى أحزم أمتعتى وأنا أكاد أموت خجلا ، بعد أن تبينت الموقف الذى وضعنى فيه ذلك الزنيم أمام المجتمع . وفيما أنا أهم بالانصراف ، أقبلت مدام « ك » — عشيقة النذل — فصرخت فيها : « اغربى عنى ، وإلا لنسيت ما ينبغى من احترام لجنسك » !.. ولكنها ارتمت على قدمىّ وقلبها يتفطر أسى ، وراحت تقسم أن لا يد لها فى الأمر ، وأنها لم تكن حاضرة عندما أملى الوغد اسماءنا . وأكدت زوجة صاحب الفندق قولها . وأقبلت العربة التى طلبتها ، فدعوت الفندق لأنقده نصيبى من النفقات ، ولكنه اعتذر عن قبول شىء منى ، قائلا إننى لم أطلب بنفسى شيئا !

ووفد إذ ذاك واحد من علية القوم الذين تعرفوا إلى « ب. ك. » ، ويدعى « الكونت فيلو » ، فناديته قائلا : « أحسبك صدقت يا كونت إن هذه المرأة زوجتى ؟ » .

فأجاب فى ترفع : « هذه حقيقة تعرفها المدينة بأسرها ! » .

قلت : « يا للعنة !.. وكيف تصدقون شيئا كهذا وأنا أقيم وحدى فى غرفة منفصلة ، وقد رأيتمونى أغادر مائدة العشاء ، والحفلة ، تاركا إياهم معكم جميعا ؟ » .. فقال الكونت : « من الأزواج من يستمرئون هذا

التساهل ! » .. فصرحت فيه : « ما أظنني أبدو من هذا النوع ، وما كنت أحسب أنكم على هذه الدرجة من الجهل بأقدار الأشراف .. انتظرني خارج الفندق يا سيدى ، وسأريك الدليل ! » .

.. ومغفل كبير !

وكانت التعسة « ك » تكاد تنفطر لفرط البكاء ، حتى لقد أشفقت عليها .. فإن الدموع من أقوى الأسلحة التى كنت أواجهها من النساء طوال حياتى !.. ورأيت أننى إذا غادرت الفندق دون أن أدفع شيئا ، فلن يلبث القوم أن يضحكوا ويسخروا من غضبى ، ويروا أننى كنت شريكا فى حيلة للنصب والغش . لذلك رجوت صاحب الفندق أن يحضر لى قائمة الحساب ، وقد عولت على أن أدفع نصف قيمتها . ولكن مدام « ك » عادت — فى تلك الأثناء — ترتمى على قدمى باكية ، ضارعة ، ذاكرة أننى سألقى بها إلى التهلكة إذا تخليت عنها ، إذ لم تكن تملك مالا تدفعه ، أو شيئا ترهنه فى مقابل إقامتها فى الفندق . فصحت : « أوَليس لدى زميلك خطابات اعتماد ؟ » .. فقالت : « لقد فطن التجار إلى زيفها فردوها ، واستردوا جميع بضائعهم .. أواه !.. من كان يظن أن الأمر كله بهذا الشكل ! » .. فصحت : « ياللوغد !.. كان يعرف ذلك ، ومن ثم ألح علىّ كى أصحبكما إلى هنا !.. حسنا . سأدفع ثمن غبائى ! » .. ودفعت قيمة قائمة الحساب بأكملها ، إذ رأيت هذا أنسب لمقامى ومركزى ، وحصلت من صاحب الفندق على إيصال وقعه اثنان من الشهود . ثم منحت الخادم الذى ضربته جنيهين ، تعويضا له ، وألقيت للتعسة ، مدام « ك » ، بمثلهما !

وهكذا انتهت المغامرة المزرية ، التي لقنتني درسا لم أنسه بعد ذلك .

وعلمت بعد بضع أسابيع أن أحد علية القوم في المدينة أشفق على الشقيين فمنحهما مبلغا مكنهما من مغادرة المدينة . وبعد شهر من ذلك ، ألقى القبض مرة أخرى على « ب. ك. » لعجزه عن سداد ديونه ، ولإفلاس الرجل الذى كان قد توسط للإفراج عنه في المرة السابقة بضمانة شخصية منه . ولقد كتب لي عدة رسائل يتوسل إليّ فيها أن أذهب لزيارته في السجن . ولكنني لم أحفل بهذه الرسائل . كذلك حاولت مدام « ك » مرارا أن تقابلني ، فلم ألن ، ولم أقبل السماح لها بمقابلتي !

كازانوفا يتعرف بالراهبة « الغامضة » !

وعدت إلى (بادوا) ، فلم أبق بها إلا ريثما تسلمت الخاتم من الصائغ الذى كنت قد عهدت إليه بصنعه ، وتناولت الغداء مع السيد « براجادان » ، الذى لم يلبث أن عاد إلى (البندقية) بعد أيام قلائل ، حيث كنت قد سبقته !

وفي ساعة مبكرة من ذات صباح ، أقبلت مبعوثة حبيبتي من الدير ، تحمل خطابا من الفتاة ، مليئا بالأشواق ، فأقبلت على قراءته ملهوفا ، ثم كتبت لها رسالة رويت فيها تلك الخدعة اللئيمة التي استدرجني إليها أخوها الوغد ، ثم أنبأتها بسر الخاتم الذى وعدتها بأن أسلمه لأمها . وما لبثت أن أخذت أتردد لبضعة أيام على الكنيسة التي كانت أمها تذهب إليها لتحضر القداس كل صباح ، حتى رأيتها تفد عليها يوما ، فركعت إلى جوارها ، وسألتها أن تتبعني ، ثم قدتها إلى إحدى الردهات . وبعد بضع عبارات على سبيل المجاملة ، ذكرت لها أنني سأظل وفيا لابنتها إلى آخر العمر ، ثم سألتها عما إذا كانت قد زارتها ،

فقالت : « إننى أعتزم أن أذهب لأطمئن عليها فى يوم الأحد المقبل . ولسوف أذكرك لها بالطبع ، فإننى أدرك أنها ستغتبط لسماع أنبائك . ولكنى — للأسف — لست فى حل من أن أذكر لك مكانها ! » .. كانت السيدة الطيبة تظن أننى لا أعلم بمقر حبيبتى !!.. فقلت لها : « لن أحرجك يا أمى ، ولست أرغب فى معرفة مقرها . ولكنى أرجوك أن تحملى إليها هذا الخاتم هدية وتذكارا . إنه يحمل صورة قديستنا التى تستبشر ببركتها ، فأرجوك أن توصيها بأن تحيط إصبعها بهذا الخاتم دائما ، وأن تتأمل صورة القديسة وهى تؤدى صلاتها اليومية ، لأننى أعتقد أن ببركتها سيتاح لنا أن نغدو زوجين ، وأن نحقق آمالنا . وقولى لها إننى أتوجه بالدعوات فى كل صباح إلى القديس جيمس » ! وابتهجت الأم لتقواى ، ولهذا الوفاء منى لابنتها ، فوعدتنى بأن تحمل إليها هديتى وأقوالى . وقد برت بوعدها ، إذ تسلمت فى يوم الأربعاء التالى خطابا من حبيبتى مفعما بأرق آيات الحب والحنان ، وبأجمل مظاهر الشكر والعرفان . وقالت لى إنها لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تمس زر الخاتم ، فتنزاح صورة القديسة « كاترين » ، وتصافح عينيها طلعتى الحبيبة ، فتخال أنها ملكت الدنيا بأسرها . وأضافت : « إننى لا أنفك أقبل صورتك ، حتى أمام الراهبات وتحت أبصارهن . فإذا اقتربن منى ، ضغطت الزر ، فترتد صورة قديسته الحبيبة لتخفى صورتك .. ومن ثم تجد كل الراهبات أشد ما يكنّ ابتهاجا لتقواى ، ولتعلقى بالقديسة « كاترين » ، التى يؤكدن أن وجهى جد شبيه بوجهها » !.. واسترسلت قائلة إن الراهبة التى تعلمها اللغة الفرنسية عرضت عليها خمسين دينارا فى مقابل الخاتم ، لشدة الشبه بينها وبين القديسة .. ولكنها بالطبع لم تكن لتتنزل عن الخاتم ، ولو وهبت لها الدنيا بأسرها فى مقابله !.. كذلك قالت : « ولقد أطرت أمى تقواك كل الإطراء .

وهى أشد ما تكون ابتهاجا بوفائك ومشاعرك ، وبهذه المناسبة ، أرجو أن لا تذكر لى قط اسم ذلك الأخ الوضيع الذى رزئت به ! » .

وظل حديث القديسة « كاترين » المباركة يملأ صفحات خطاباتها لبضعة أسابيع أخرى .. تلك القديسة التى كانت تجعلها ترتجف فرقا عدة مرات فى كل يوم ، إذ كانت الراهبات الكبيرات يقبلن على تأمل صورتها — فى الخاتم — بدافع من الفضول ، ويرحن يتحسسن الصورة ونقوش الخاتم ، ومعبودتى فى خوف من أن تمس أصابعهن الزر الدقيق ، فيفتضح سرها !

(تلت هذه السطور صفحات مليئة بذكر الراهبات ، دون ما أحداث معينة ذات قيمة ، اللهم إلا أن « كازانوفا » استطاع التعرف بالراهبة التى كانت تلقن حبيبته اللغة الفرنسية ، فإذا بها امرأة شديدة الذكاء ، وشديدة الغموض فى آن واحد ، حتى لقد أحس العاشق الداهية أن دهاءه وحيلته لا يكادان يرقيان إلى درجة دهائها وحيلتها !) .

طاه بارع .. وزوجة فاتنة !

لم يلبث القدر أن دفع إلى طريقى نبيلا يدعى (مارك أنتونى زوررزى) ، أوتى موهبة فى نظم الأراجيز الشعرية اللاذعة . وكان يهوى كتابة المسرحيات ، فوضع مسرحيتين هزليتين لم يرض عنهما الجمهور ، ولكنه اعتقد أن فشلهما إنما كان خطة مدبرة بوحى ونفوذ الأب « كيارى » ، الذى كان شاعر مسرح القديس (إنجيلو) ، بالاسم فقط !.. ومن ثم اشتد عداء « زوررزى » للأب « كيارى » ، وعقد عزمه على أن يثأر منه ، فاستأجر عصبة من الأوغاد ، ليحضروا فى كل ليلة المسرحيات — التى كان المفروض أن

مؤلفها هو الأب « كيارى » ، ولو بصفة اسمية ! — ويعكروا جو المسرح بتهريجهم . وما كنت لأحفل بكيارى ، ولكننى اضطررت لأن أجامل « زورزى » لأنه أوتى بيتا فخما ، وطاهيا بارعا ، وزوجة فاتنة ، ومن ثم ناصرته ، بأن رحت أنتقد مسرحيات خصمه ، وأنظم فيه بعض الأراجيز اللاذعة ، مما اضطره إلى أن يرد على بكتيب صغير ، تناولنى فيه بأقذع الهجاء ، فرددت عليه فى قسوة ، وهددته بالضرب إذا لم ينتق كلماته عندما يتكلم عنى . ولم يحاول أن يرد ، ولكننى تلقيت يوما خطابا غفلا من التوقيع ، يتضمن إنذارا لى بأن أرجع عن مشاكسة الراهب ! وفى تلك الأثناء ، عرض علىّ رجل يدعى « مانوتس » — عرفت فيما بعد أنه من أقذر جواسيس ديوان التفتيش الرهيب — أن يبتاع لى بعض الماسات ، دون أن يتعجلنى الثمن ، وبهذا الزعم أصبح يتردد على مسكنى ، فيطلع على كتبى ويعبث بأوراقى أثناء زياراته ، مدعيا الاهتمام بموضوعاتها ، لا سيما ما كان يدور منها حول السحر !..

ووجدتنى أطلعه — فى غباء — على بعض الكتب التى تتضمن مبادئ علم تحضير الأرواح ، فما لبث أن جاءنى ذات يوم يقول إن ثمة شخصا — لم يكن فى حل من ذكر اسمه — على استعداد لأن يدفع ألف دينار ذهبى ثمنا لخمسة من كتبى ، على شريطة أن يتأكد من أصولها وصحة نسبها إلى مؤلفيها ، فأعرته إياها ليطلعه عليها ، وإذا به يردها إلىّ بعد أربع وعشرين ساعة ، زاعما أنها مزورة . وقد علمت بعد سنوات أنه إنما حملها إلى الأسقف الذى كان يرأس ديوان محاكم التفتيش ، وأن مجرد اقتنائى هذه الكتب كان كافيا لإقناعه بأننى أمارس السحر !

اتهامات أمام محاكم التفتيش !

وكأنما كان القدر مصرا فى ذلك الشهر على سوقى إلى محاكم التفتيش ، إذ اتهمتنى سيدة بأننى أعلم ابنها الإلحاد ، وهى تهمة كانت كفيلة بأن تقضى علىّ بأن أحرق حيا ، لولا أن الظروف خفت إلى معونتى ، فإذا أعضاء ديوان التفتيش لا يملكون أن يودعونى السجون الخاصة بديوانهم ، ومن ثم قرروا إحالتى إلى النيابة العادية لتتولى التحقيق معى . ولقد علمت فيما بعد أن شخصا أجيرا — يؤيده شاهدان — اتهمنى بأننى لا أؤمن بالله ، وإنما أعبد الشيطان .. وإن من الأدلة على ذلك أن ما من مرة لعنت فيها الشيطان أثر خسارتى فى المقامرة !!.. كذلك اتهمت بأننى لا أحفل بالصلاة والطقوس الدينية ، وأننى من جماعة « الماسونيين الأحرار » ، وأننى كنت على علاقة بأجانب يدفعون لى أموالا فى سبيل الإفشاء لهم بما أعرفه — عن طريق عضو الشيوخ الذى تبنانى « براجادان » — من أسرار الدولة !.. وبدا أن ثمة قائمة من الاتهامات ، لا تكاد تنتهى ، حتى لقد نصحنى الأصدقاء المخلصون بأن أنتهز فرصة تحويل قضيتى إلى السلطات المدنية ، لأغادر البلاد ، فأغيب عنها فترة من الوقت . ولكن إيمانى ببراءتى جعلنى أرفض هذه النصيحة فى عناد ، لا سيما وأننى كنت غارقا فى الديون إلى أذنى ، الأمر الذى دفعنى إلى رهن ما كنت أملك من متاع وأشياء ذات قيمة .

على أنه يبدو أن ثباتى قد أغرى السلطات الدينية على أن تتدخل فى الأمر مرة أخرى ، إذ عدت إلى « البنسيون » — الذى كنت أقيم فيه — ذات مساء ، فوجدت صاحبته فى ذعر شديد .. وعلمت منها أن رئيس ديوان التفتيش جاء

بنفسه مع نفر من الشرطة ، واقتحموا غرفتى وفتشوها تفتيشا دقيقا . وكنت لحسن الحظ قد أودعت أوراقى الخاصة ورسائلى وما كنت أعتز به من تذكارات ، لدى صديقة لى تدعى مدام « مانسونى » .. ومن ثم فإنهم — على ما بدا — لم يعثروا على شىء ذى قيمة . غير أن هذا الحادث جعل السيد « براجادان » يزداد إلحاحا فى إغرائه إياى على الرحيل عن البندقية ، وأن لا أعود حتى يدعونى هو إلى العودة . ولكن حنقى بسبب هذا الحادث زادنى إصرارا على البقاء . فتحول يدعونى إلى العودة للإقامة فى قصره ، لأن الحصانة التى كان يتمتع بها لا تمكن السلطات من مداهمة مسكنه دون إجراءات خاصة ، تكفى لتنبيهى إلى الخطر قبل وقوعه !.. غير أننى أمعنت فى الضلال ، وأبيت أن ألين لإلحاحه ، رغم ما كان له من فضل علىّ ، وما كان يكنه لى من حب . كنت أتصرف فى رعونة عمياء ، حتى أن دموع الشيخ الطيب النبيل لم تحرك عواطفى ، وإنما زادتنى إمعانا فى العناد ، فودعنى بقلب مثقل بالحزن والألم ، عندما انصرفت عن زيارته .

كازانوفا .. السجين !

وكانت هذه آخر مرة أراه فيها ، رغم أنه مات بعد ذلك بأحد عشر عاما .. فقد فوجئت قبيل فجر اليوم التالى بباب حجرتى يفتح ، ورأيت كبير محققى ديوان التفتيش يدخل متسائلا : « أأنت جاك كازانوفا ؟ » .. ثم أمرنى بأن أقدم له جميع ما لدى من أوراق ووثائق ، وأن أرتدى ثيابى . وأدركت أن لا سبيل أمامى غير الطاعة !.. وعندما رأيته يحرص على الكتب الخمسة التى سبق لى أن أعرتها لمانوتس ، أدركت حقيقة الدور الذى لعبه ذلك النذل !

وارتديت ثيابى وأنا مشتت البال ، وإن عنيت بأن أختار أجمل ما كنت أملك من ملابس ، وكأننى كنت ذاهبا إلى حفل زفاف ، مما حدا بالسيد « جراندى » — وهو اسم المحقق — إلى أن يرمقنى فى دهشة وعجب !.. وكان ثمة أربعون جنديا — من حملة الأقواس والنشاب — فى الخارج ، مما أوحى إلىّ بأنهم كانوا يتوقعون مقاومة عنيفة منى .. ولكننى لم أحاول أن ألجأ إلى شىء من هذا ، بل تركتهم يقودوننى إلى دار رئيس ديوان التفتيش ، حيث احتجزونى فى غرفة موصدة . ووجدتنى عاجزا عن أن أستجمع قواى الذهنية . لأفكر فيما قد يحسن دفاعا عن نفسى ، فاستلقيت على أريكة ، واستسلمت لنعاس مضطرب ، لم أكن أصحو منه إلا لأرتد إليه !.. حتى إذا كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر ، أقبل رئيس الجند ، فأعلننى بأن أمرا صدر إليه بأن يقودنى إلى « سجن الرصاص » !.. وكان من أبشع السجون ، وقد سمى بهذا الاسم لأن سقفه كان يتألف من عدة ألواح من الرصاص ، بدلا من قوالب القرميد .. وكان الفراغ الذى يقع بين غرفه العليا وسقفه المحدوب ، مقسما إلى « زنزانات » !

وتبعت قائد الجند فى صمت إلى « الجندول » الذى أقلنا إلى السجن . وبعد أن صعدنا سلما وهبطنا آخر ، عبرنا جسرا صغيرا يصل السجن بقصر الدوقية — مقر ديوان التفتيش — عبر قناة ضيقة تسمى « ديورى بالاتسو » . ثم اجتزنا ردهة طويلة ، انتهينا منها إلى غرفة جلس فيها شخص فى ملابس الرهبان . وتأملنى هذا الرجل طويلا ، وما لبث أن قال : « خذوه إلى سجن أمين ! » .. وكان ذلك الرجل هو الأب « كافاللى » ، سكرتير ديوان التفتيش الرهيب .

أمام جهاز الإعدام الرهيب !

وتسلمني كبير حراس السجن ، فتبعته . وصعدنا طابقين ، ثم اجتزنا ردهة طويلة ، إلى باب أفضى بنا إلى ردهة أخرى ، انتهت بباب كشف عند فتحه عن حجرة ضيقة ، منخفضة السقف ، قذرة ، لا ينفذ إليها سوى بصيص ضئيل من النور ، خلال كوة فى سقفها . وظننت فى البداية أن هذه كانت مقرى الجديد ، ولكننى وجدت الرجل يتناول مفتاحا ضخما ، فتح به بابا ثقيلا ، سميكا ــ ذا مزلاج حديدى كبير ــ لا يتجاوز ارتفاعه مترا ، وتتوسطه كوة صغيرة . وأشار لى كبير الحراس لأدخل . ولكننى تلكأت لحظة ، إذ رحت أتأمل آلة كبيرة من الحديد ، على شكل حدوة الفرس ، مثبتة إلى الجدار ، وابتسم السجان إذ فطن إلى ما كنت أتأمل ، وقال : « لعلك تحب أن تعرف فائدة هذه الآلة .. إذن فاعلم أنه إذا صدر أمر أصحاب السعادة بإعدام أى امرئ ، فإنه يجلس على مقعد بدون مسند ، ويلصق ظهره بالجدار ، ثم يهبط هذا الطوق حول عنقه ، ويولج حبل من الحرير فى الثقوب التى فى الطرفين ، ثم يلف حول عجلة ، يتولى إدارتها المكلف بتنفيذ الحكم ، فيظل الطوق يطبق حول عنق المقضى عليه بالإعدام ، حتى يزهق روحه ! » .. فهتفت : « ياللفظاعة !.. وأظنك الشخص الذى يحظى بشرف إدارة العجلة ! » .. ولكنه لم يجب ، بل كرر الإيماء لى بالدخول ، فدخلت ، والسقف المنخفض يجبرنى على أن أسير منحنيا . وأغلق السجان الباب خلفى ، ثم سألنى خلال كوة فيه عما أحب أن أتناوله من طعام . فلما أجبته بأننى لم أفكر فى هذه الناحية ، انصرف .. وسمعته يغلق الأبواب خلفه !

(مذكرات كازانوفا)

يد باردة .. فى الظلام !

وكانت بالحجرة نافذة يبلغ اتساعها حوالى نصف متر ، تقسمها قضبان غليظة من الحديد إلى ست عشرة فتحة مربعة ، سدت الفتحات الوسطى من بينها بقرص ضخم من خشب البلوط السميك . ولم يكن بوسعى أن أنتصب واقفا ، إذ لم يكن ارتفاع السقف يتجاوز مترا ونصف متر . وكان ثمة جزء يكاد يكون منفصلا عن بقية الغرفة ، مما يوحى بأنه معد ليقام فيه سرير ، ولكنه كان خلوا من أى شىء .. بل لم يكن فى الحجرة أثر لمقعد أو منضدة ، بل اقتصر أثاثها على حوض صغير ، ولوح خشبى مثبت إلى الجدار على ارتفاع بسيط من الأرض ، ليتخذ كمقعد ، فألقيت عليه بعباءتى الأنيقة ، وسترتى الجديدة البديعة ، وقبعتى التى وشيت حافتها بريش و « دانتيلا » أسبانية غالية . وكان الحر يكاد يزهق الأنفاس ، فسرت إلى الكوة التى تتوسط أعلى الباب ، ألتمس شيئا من الهواء ، فإذا بى أرى عددا من الفئران الكبيرة تلعب فى الغرفة الخارجية . وكنت بطبعى أشمئز من هذه الحيوانات ، بل إن منظرها كان يجعل الدم يتجمد فى عروقى .. لذلك أسرعت بإغلاق الكوة !

وقضيت حوالى ثمانى ساعات ، متكئا بمرفقى إلى حافة النافذة ، لا أكاد أحير حراكا ، إلى أن ردنى إلى الوسط المحيط بى صوت ساعة تدق على بعد . وعجبت إذ تركت طيلة هذا الوقت دون أن يحفل أحد بأن يأتى إلىّ . ولم أفكر فى الطعام ، ولكننى كنت شديد الظمأ ، وفى فمى مرارة بغيضة .. وإذ انقضت ثلاث ساعات أخرى ، دون أن يفد أحد ، بدأ غيظى يحتدم ، فرحت أصيح ، وأصرخ ، وأركل الجدران والباب ، ولكن .. دون ما جدوى !..

ومرت ساعة أخرى ، ثم أدركنى الخور ، فتأملت ما حولى ، حتى إذا اطمأننت إلى خلو غرفتى من الفئران ، استلقيت على الأرض ، وقد داخلنى يقين بأن المحققين القساة ، المجردين من كل شعور إنسانى ، قد اعتزموا أن يتركونى مهملا فى تلك الحجرة حتى أقضى نحبى جوعا وظمأ !

.. على أن ما أثار دهشتى واستنكارى ، هو أننى لم أكن أعرف الذنب الذى من أجله عوملت بهذا الشكل .. ولم أكن قد ارتكبت جرما فى حق الدولة أو الدين ! وأضنانى التفكير ، والتخبط فى الاستنتاجات ، إلى جانب ما كان قد أصابنى من إرهاق عقب ثورتى .. ومن ثم واتانى النوم ، وكأنه أشفق علىّ أخيرا ! وكان الظلام حالكا عندما استيقظت . وفطنت إلى أننى نائم على جنبى الأيسر ، على الأرض . ومددت يدى اليمنى أبحث عن منديلى ، حيث كنت قد تركته ، وشد ما كان ذعرى عندما مسست يدا أخرى ، باردة ، متيبسة !.. ولم تغشنى رهبة الموت فى حياتى يوما ، بمثل العنف الذى غشيتنى إذ ذاك ، حتى لقد ظللت دقائق مسمرا فى مكانى مشتت العقل . ثم بدأت أسترد جأشى رويدا رويدا ، لأتبين أننى إنما مسست .. يدى اليسرى التى سرت إليها رطوبة الأرض ، وعرقل جريان الدم فيها ثقل جسمى وأنا مستلق على جنبى الأيسر !

فواكه محرمة .. فى الجنة !

وكان هذا الحادث — على تفاهته — سببا فى أن فطنت إلى أننى كنت فى حال كفيلة بأن تجعلنى أغالى فى الأوهام والمخاوف ، مما قد يوهن من جلدى وروحى المعنوية ، ومن ثم قررت أن أقاوم هذه الحال . وشرعت — لأول مرة

فى الثلاثين سنة التى كانت تؤلف عمرى إذ ذاك ــ أوقظ الفلسفة التى كانت بذورها كامنة فى أعماقى !.. ألاما أكثر الذين يموتون دون أن يكونوا قد فكروا فى حياتهم يوما ، تفكيرا حقيقيا .. لا لأن الذكاء كان يعوزهم ، وإنما لأنهم لم يتعرضوا لأحداث وظروف غير عادية ، تكفى مفاجآتها لأن تهزهم فتوقظهم وتنبههم كى ينفضوا عنهم ما ألفوه من رتابة الحياة !

وقدر لضوء النهار أن ينبثق أخيرا ، بعد ليل خلته لن ينقضى ، فسمعت صوت مزلاج باب غرفتى يتحرك ، وصوت السجان الغليظ ينبعث خلال الباب متسائلا : « هل وجدت وقتا كافيا لتفكر فيما تحب أن تأكل ؟ » .. فأجبت ــ متأدبا ــ بأننى أحب قدرا من حساء الأرز ، وبعض اللحم المسلوق ، وقطعة من الشواء ، وخبزا ، ونبيذا ، وماء !.. ولاحظت الدهشة التى اعترت الرجل عندما لم أبادره بالشكوى أو الاحتجاج ، وما لبث أن سألنى : « ألست فى حاجة إلى سرير وبعض الأثاث .. إنك تخطئ إذا ظننت أنك ضيف علينا ليوم أو اثنين ! » .. فقلت : « إذن ، فأحضر لى ما تراه لازما » .. وهنا قال : « من أين آتيك بهذه الأشياء ؟.. إليك قلما وورقة ، فاكتب لمن ترى أن بوسعه أن يرسلها إليك » .. فكتبت قائمة بما كنت أحتاج إليه من ثياب ، وأثاث . وطلبت الكتب التى أخذها المحقق من غرفتى . ولكن الوحش أجاب وهو يلقى نظرة على القائمة : « لا ينبغى لك أن تسرف فى طلباتك بهذه السرعة .. اشطب الكتب ، والورق ، والأقلام ، والمنظار ، وموسى الحلاقة فكل هذه من الفواكه المحرمة فى هذه الجنة !.. والآن ، إلىّ ببعض النقود أعد لك بها طعامك ! » .

ولم يكن فى جيبى أكثر من ثلاثة دنانير ، فدفعت إليه واحدا منها ، وانصرف ليخدم نزلاء « الزنزانات » السبع الأخرى ، على ما عرفت فيما

بعد . حتى إذا انتصف النهار ، أقبل بالمتاع والطعام . ولم يسمح لى بغير ملعقة من العاج ، إذ كانت السكاكين والشوك من الممنوعات !.. وقال لى السجان : « اطلب منذ الآن ما سوف تحتاج إليه فى غدك ، لأننى لن أستطيع أن أحضر إليك إلا مرة واحدة فى اليوم .. ولقد قال سكرتير المكتب إنه سيبعث إليك ببعض الكتب التى تفيد منها ، لأن الكتب التى طلبتها لن تجديك ! » .

قلت : « أرجو أن تشكره لأنه سمح لى بزنزانة لا يشاركنى فيها زميل ! » .

ــ إنك لا تدرى ما تقول ، فما تركت وحيدا إلا عقابا لك ، وستتبين وطأة هذا العقاب فيما بعد ، فتتمنى لو وجدت زميلا !

هدايا .. فى عيد رأس السنة !

وكان محقا فى قوله ، فما أتعس الإنسان الذى يُقسر على الحياة ، وحيدا ، فى غرفة قذرة ، كئيبة ، لا ينعم فيها برؤية إنسان مثله سوى دقائق معدودات فى اليوم !.. وبالفعل ، لم ألبث أن شعرت بحنين إلى الزمالة ، حتى أننى لم أكن أتردد فى أن أرحب بزميل من القتلة أو المجذومين ، فالوحدة فى السجن هم وقنوط ، لا يعرف قسوتهما سوى من يجربهما ، وما أرانى أتمناهما لعدو ، مهما يبلغ بيننا الخصام !.. ولو أنهم أمدونى بورق وأقلام ، لخفت شقوتى ، ولكنهم أبوا علىّ هذه الأشياء التى كانت كفيلة بأن تسرى عنى .

وجلست إلى الطعام ، ولكننى لم أستطع أن أتناول أكثر من ملء بضع ملاعق من الحساء ، برغم أن الزاد لم يدخل جوفى منذ ثمان وأربعين ساعة . وقضيت النهار فى المقعد الوثير ذى الذراعين ، الذى كان بين ما طلبت من

أثاث . ولكننى لم أقو على أن أغمض جفنى ، عندما جن الليل ، لثلاثة أسباب : أولها ، الفئران . وثانيها ، الضجيج الذى كان يصدر عن ساعة كنيسة « سان مارك » فإخاله منبعثا من جوف غرفتى .

وثالثها ، جحافل البراغيث التى أغارت على جسمى ، فأوسعتنى قرصا ، حتى سممت دمى !.. وعندما أقبل « لورنس » — السجان — فى الصباح التالى لينظف الحجرة ، أحضر لى كتابين كبيرين حرصت على أن لا أقربهما ، إذ كانا من مطبوعات السلطات المشرفة على محاكم « التفتيش » ، فخشيت أن يبدر منى ما ينم عن استهجان ، فيشى بى السجان !

وكان أشد ما أثار دهشة « لورنس » خلال الأيام الأولى من إقامتى فى السجن ، هو أننى لم أكن أحاول أن أسأله عن شىء !

وفى عيد رأس سنة ١٧٥٦ ، جاءنى بحزمة كبيرة ، احتوت على « روب دى شامبر » مبطن بجلد الثعلب ، وبالحرير المحشو بالقطن ، وكيس من جلد الدب أدس فيه ساق . وشد ما كانت فرحتى بهاتين الهديتين ، إذ كان البرد يشتد فى ذلك الفصل من السنة . وأخبرنى السجان أنه قد تقرر السماح لى بأن أتلقى ثمانية دنانير فى كل شهر ، لأبتاع بها ما أشاء من كتب ، ولأحصل على الصحيفة الرسمية ، وكانت كل هذه النعم من أبى الحبيب السيد « براجادان » . وكم تأثرت حين أنبأنى « لورنس » أن الشيخ الجليل ركع أمام أعضاء مكتب التفتيش ليضرع إليهم باكيا ، كى يسمحوا بإرسال هذه الهدايا إلىّ ، لأشعر بأن حبه لى ما زال قويا !.. ولم أتمالك فى غمرة التأثر أن أمسكت بالقلم ، وكتبت على قصاصة من الورق : « أشكر لمكتب التفتيش كرمه ، وللسيد براجادان فضله الذى لا ينسى » !

كازانوفا يحصل على سلاح !

وسمح لى بعد فترة بأن أتريض قليلا كل يوم ، فى الردهة المعتمة التى كانت أمام حجرتى .. وفى أحد الأيام ، عثرت فيها على مزلاج مخلوع ، ومهمل ، فواتتنى فكرة أوحت إلىّ بأن فى وسعى أن أستخدمه كسلاح للهجوم والدفاع ، عند الاقتضاء . ومن ثم أخفيته تحت ثوبى ، وحملته إلى حجرتى ، حيث عكفت ثمانية أيام على حكه بقطعة من الصوّان ، حتى شحذت حافته ، وجعلته أشبه بخنجر ذى نصل به ثمانية نتوءات . وكانت مهمة شاقة ، مضنية ، جعلتنى لا أقوى على تحريك ذراعى ، وأحدثت جرحا فى كفى .. ولكننى كنت أنسى كل ألم ، إذا ما تأملت — فى غبطة — نتيجة عملى . واستطعت أن أجد له مخبأ فى الحشو الذى كان فى قاع مقعدى . كما استطعت أن أستدرج « لورنس » فى الحديث ، حتى تأكدت منه مما دار بظنى من قبل ، إذ قدرت أن غرفة « كافاللى » — سكرتير ديوان التفتيش — كانت تقع تحت « زنزانتى » مباشرة . وكان المألوف أن تنظف تلك الغرفة فى الصباح الباكر من كل يوم ، لذلك خطر لى أن أحفر السقف ، وأتدلى إليها فى الليل — مستعينا بأغطية فراشى — ثم أختفى فيها إلى أن يفتح بابها فى الصباح ، وأن أشق طريقى إلى الخارج مستعينا بسلاحى . وكان أهم ما فى الخطة ، أن أحول بين « لورنس » — أو رجاله — وبين تنظيف أرض غرفتى ، فى الجزء الواقع تحت السرير ، إذ كنت قد اخترته موقعا للثغرة التى اعتزمت حفرها .

وأوحى إلىّ عقلى بأن أدعى المرض ، فزعمت أننى أصبت ببرد قاس ، وبقيت ملازما فراشى بضعة أيام . وكان التراب الذى يثيره « لورنس » ، أثناء

كنس زنزانتى ، خير عون لى على أن أنطلق فى السعال أمامه . ولكن الرجل لم يلبث أن ارتاب فى الأمر ، فتفقد كل ركن من حجرتى وفى اليوم التالى لهذا الحادث ، تعمدت أن أشك إصبعى بدبوس ، حتى تفصد منه بعض الدم الذى تلقيته على منديلى : فلما دخل « لورنس » الحجرة ، سعلت فى عنف ، ثم صحت فيه : « انظر ما فعله بى الغبار !.. لقد ظللت أسعل طويلا ، وأحسب أن شريانا فى صدرى قد انفجر ! » .

وجاءونى بطبيب ، فلما أعدت على مسمعه هذه القصة ، أقرنى على أن لا شيء يضر بالرئتين قدر الغبار !.. وتبينت أنهم ما جاءوا بالطبيب ليعالجنى ، وإنما .. ليتأكدوا من أن لا حيلة وراء سعالى ودمى !.. على أن « لورنس » أشفق علىّ ، إذ كان يحصل على قسط كبير من الدنانير الثمانية التى أخذ السيد « براجادان » يبعث بها إلىّ شهريا ، ومن ثم أمر السجان أعوانه بأن لا يكنسوا حجرتى كى لا يثيروا فى جوها أى غبار !

يذكر الله .. فى محنته !

وكانت ليالى الشتاء طويلة ، قضت علىّ بأن أمكث حوالى تسع عشرة ساعة من اليوم فى الظلام .. إذ لم يكن ضوء النهار الغائم لينفذ إلى حجرتى إلا لساعات قليلة . واستطعت بكثير من الحيلة أن أحصل على فتيل ، وبعض الزيت . وباستخدام الرخام وسلاحى الفولاذى ، وجدت القداحة التى تولد شررا .. وبهذا استطعت أن أصنع « مسرجة » ضئيلة ، أوقدها كل مساء لبضع لحظات ، لأتبين على ضوئها الموقع الذى أحفر فيه . وكانت أرض الحجرة من خشب سميك ، ولكننى ظللت عاكفا على الحفر بسلاحى فى ظلام الليل ،

حتى استطعت أن أحدث ــ تحت السرير ــ ثغرة كافية . بيد أننى كدت أيأس ، حين وجدت تحت الألواح الخشبية طبقة من البلاط .. وفى غمرة اليأس ، قفزت إلى ذهنى بعض المعلومات التى قرأتها عن « هانيبال » ، وكيف استعان بالخل على أن يحفر ممرا خلال جبال الألب ، إذ أن العناصر الحمضية التى يحتويها الخل تتفاعل مع الصخر فتفتته . وعلى هذا . حرصت على أن أحتفظ بكل ما كان يتبقى من خل « السلاطة » التى كنت أطلب من « لورنس » إحضارها مع كل وجبة !

.. كانت أياما رهيبة ، قاسية الأثر على أعصابى . وكنت أجمع الفضلات المتخلفة عن عملى ــ من شظايا الخشب ، والتراب ، وما إليها ــ حتى إذا ذهبت إلى دورة المياه فى كل صباح ، حملتها معى فى ثنايا ثوبى ، وأفرغتها هناك . وكنت أنصرف بكل كيانى إلى الصلاة والدعاء !.. والذين يستخفون بنتائج الصلاة لا يفقهون شيئا ، فإن المرء إذا وجه ثقته إلى الله مخلصا ، صادقا ، وجد فى هذا طمأنينة وسكينة تهدئان من روعه !

وأوشك عملى على نهايته ، ولم يبق سوى أن أحدد الموعد المناسب لمغامرتى . وأخذت لهذا عشية عيد القديس « أوجستين » ، إذ كان ديوان التفتيش مزمعا أن يعقد اجتماعا فى تلك الليلة ، فى دار رئيسه .. وكانت ليلة السابع والعشرين من شهر أغسطس .

ولكن الحظ كان لى بالمرصاد . ففى ظهر اليوم الخامس والعشرين ، أقبل « لورنس » يعلن إلىّ أن الأمر قد صدر بنقلى إلى غرفة فسيحة ، نظيفة ، ذات نافذتين كبيرتين تطلان على نصف مدينة البندقية !.. وكان يظن أننى سأطير فرحا بهذا النبأ السعيد ! » ، ولكننى بذلت جهدا جبارا لأقاوم الإغماء الذى

أوشك أن ينتابنى .. وظللت برهة صامتا ، ثم سألته أن يرجو سكرتير الديوان بأن يدعنى فى الغرفة التى ألفتها وألفت جوها ، ولكنه هتف : « أمجنون أنت ؟.. إن هذا الجحر لا يقاس بتلك الغرفة .. الفارق بينهما كالفارق بين الجحيم والجنة .. ثم لا تنس أن هذه أوامر لا بد من تنفيذها ! » ولم تفلح المعارضة .. وخيل إلىّ أننى أوشك أن أموت رعبا !

فى صحبة الخوف القاتل !

كان من العبث أن أعصى الأمر ، فتركت السجان يقودنى إلى الغرفة الجديدة ، وأنا لا أكاد أقوى على جر قدمى . ومضينا فى الردهات الضيقة ، ثم صعدنا درجات ثلاث ، واجتزنا بهوا ، دلفنا منه إلى ردهة أخرى أضيق من السابقات .. وفى نهايتها ، كان باب غرفتى الجديدة . وكانت تسد نافذتها شبكة حديدية ، لم تمنعنى من أن أسرح بصرى فأرى شطرا كبيرا من مدينة البندقية . وكان العزاء الوحيد لى فيما بعد ، هو أن نسمة عليلة كانت لا تفتأ تنساب إلى الغرفة خلال هذه النافذة !.. وتركنى السجان ، وذهب لينقل متاعى من الغرفة الأخرى ، ولكنه لم يعد !.. وقضيت ساعتين وأنا نهب للمخاوف والهواجس القاتلة ، فقد كنت أعرف أن فى السجن تسع زنزانات تحت سطح الأرض ، يزج فيها التعساء الذين يقضى عليهم زبانية « ديوان التفتيش » بالموت البطىء !

وما لبث « لورنس » — كبير السجانين — أن أقبل وقد امتقع وجهه لفرط الغضب المشوب بالخوف ، فأمرنى بأن أسلمه المعول الذى حفرت به أرض

الغرفة القديمة ، وأن أفضي إليه باسم السجان الذى أمدنى به . وإذ أنكرت ، أمر رجاله بأن يفتشونى ، ثم تحولوا ينقبون فى حشيتى ووسادتى ، ومقعدى الوثير ، دون أن يخطر لهم ببال أن الأداة التى كانوا ينشدونها إنما كانت مخبأة فى حشو المقعد !.. وعندما ابتعد أعوان « لورنس » قلت له : « لو أننى سئلت فلن أتورع عن أن أقول إنك أنت الذى أحضرت لى معولا ، وإننى رددته إليك ثانية ! »

السجان يتذلل للسجين !

وكان رده سيلا من الشتائم الصاخبة ، ثم أحكم إغلاق النافذة ، فمنع عنى النسائم العليلة ، عقابا لى ، وهو فى غيظ بالغ . حتى إذا أقبل الصباح التالى ، أحضر لى قدرا من الماء وآخر من النبيذ ، كانا من القذارة بدرجة غثيت لها نفسى . كذلك كان الغداء أسوأ غداء . وقضيت يوما من أقسى الأيام ، فلما تكررت هذه المعاملة فى اليوم التالى ، استجمعت جرأتى وقلت له : « هل صدرت إليك الأوامر بقتلى جوعا ؟.. إلىّ بورق وقلم لأكتب إلى سكرتير الديوان ! » .. بيد أنه لم يحفل بى ، وظل يصم أذنيه عن سماع شكاواىّ واحتجاجاتى .

وظللنا على هذه الحال ثمانية أيام ، ثم خطرت لى فكرة لأجبره على التحول عن مسلكه . فانتهزت فرصة وجود أعوانه فى الغرفة — فى اليوم التاسع — وطلبت إليه على مسمع منهم ، أن يقدم لى حسابا عن النقود التى كانت تودع لديه باسمى .. وارتبك ، ثم وعدنى بأن يعد لى قائمة الحساب .

فلما كان الصباح التالى ، أقبل يحمل سلة مليئة بالليمون ، وبطة مشوية

ـــ أرسلهما لى السيد براجادين ـــ وزجاجة ماء كبيرة .. وقدم لى قائمة حساب ، رأيت منها أنه كان مدينا لى ـــ رغم اختلاساته ـــ بأربعة دنانير ، فقلت له : « أعط ثلاثة لزوجتك ، ووزع الرابع على زملائك ! » .

وأذاب هذا الكرم جموده وقسوته ، فما لبث أن سألنى فى فضول : « قلت إنك ستتهمنى بمساعدتك ، إذا أناأبلغت الحادث إلى سكرتير الديوان ، فكيف كانت تلك المساعدة ؟ » .. فشرحت له كيف أننى استخدمت الخيط ـــ الذى كان يحيط بما حمل إلىّ من حزم ـــ فى صنع فتيل ، وكيف أننى استخدمت الزيت المتخلف من السَلَطة وقودا ، ومن ثم حصلت على « مسرجة » بفضل إهماله !.. فهتف جزعا : « يالله !.. إن السكرتير ما كان ليفلتنى من العقاب !.. إننى مسكين وأب لأطفال فلا تخرب بيتى يا سيدى !»

راهب فى السجن .. بتهمة إغواء الفتيات !

وهكذا سادت بيننا هدنة . وفى ذات يوم ، طلبت من « لورنس » أن يبتاع لى بعض الكتب ، فقال لى : « حرام أن تبدد كل نقودك فى شراء الكتب .. إن لديك مجلدات كثيرة فرغت من قراءتها ، وفى وسعى أن أستبدل لك بها كتبا أخرى من سجين آخر .. أتظن أنك الوحيد الذى يقرأ الكتب العلمية فى هذا السجن ؟ » . وأعطيته ـــ على سبيل التجربة ـــ أحد الكتب ، فما لبث أن عاد لى بكتاب آخر ، من سجين فى غرفة مجاورة . وأوحت لى هذه التجربة بفكرة التراسل متخذا من المربى مدادا . وعندما فرغت من قراءة الكتاب ، اقتطعت قصاصة من ورقه ، كتبت عليها ستة أبيات من الشعر باللاتينية ، ودسستها

تحت غلاف الكتاب .. فلما رده « لورنس » إلى صاحبه ، وأحضر منه كتابا آخر ، وجدت فى هذا قصاصة مدسوسة ، وقد جاء فيها :

« نحن اثنان فى زنزانة واحدة ، ويسرنا أن نتبادل الرسائل معك . اسمى مارلين بالبى ، وأنا راهب من نبلاء البندقية . أما زميلى فهو الكونت أندريا اسكوينى ، من « أودنيه » . ولنكن على حذر من أن يفطن لورنس إلى تراسلنا » .

وكتبت لهم بدورى عن نفسى وعن قصة اعتقالى ، وجهلى بأسباب زجى فى السجن . فرد « بالبى » ساردا قصته فى ست عشرة صفحة . فقد قضى عليه بالسجن أربع سنوات ، لأنه أغوى ثلاث فتيات ، وتجرأ فعمد أبناءه منهن ونسبهم إلى نفسه !

خطة جديدة للهرب !

وأوحى إلىّ التراسل بالأمل فى الخلاص . وكان الحراس يتفقدون جدران حجرتى كل يوم ، خشية أن أكرر المحاولة السابقة ، فلم يكن فى وسعى أن أقوم بجهد ما دون أن أتعرض للافتضاح . لذلك خطر لى أن أقوم بالمحاولة بطريق غير مباشر .. وهكذا أخذت أوحى إلى الراهب خلال رسائلى بالفكرة . ووعدته بأن أرسل له الأداة التى اخترعتها للحفر ، لكى يفتح ثغرة فى سقف حجرته ـــ بالتعاون مع زميله ـــ وأخرى فى الجدار الذى يفصل غرفتى عن غرفتهما ، فإذا تم ذلك ، فليدعا لى بقية الخطة ، على أن يعدا بأن يطيعا توجيهاتى . ورد الراهب بأن هذا لن يمكننا من أن ننفذ إلى أكثر من الفراغ الذى يقع تحت السقف المحدودب. فكان جوابى : « إننى عملت لكل شىء حسابا ،

فاطلب إلى لورنس أن يبتاع لك أربعين صورة كبيرة من الصور الدينية ، وعلقها على الجدران وألصق بعضها بالسقف ، وبهذا تبعد الشبهات وتخفى الثغرتين » .

وبعد أن تم ذلك ، سألت « لورنس » ذات يوم أن يحمل إلى الراهب طبقا مليئا إلى حافته بالحساء ، مع بعض الكتب .. ووضعت الطبق فوق الكتب فاضطر الرجل إلى أن يسير بحذر وإلى أن يوجه كل انتباهه وعنايته إلى تفادى انسكاب شيء من الحساء على الكتب ، ومن ثم لم يفطن إلى أننى أخفيت أداة الحفر فى نسخة كبيرة من التوراة كانت بين تلك الكتب !

وشرع الأب « بالبى » فى العمل فورا ، فلم تنقض ثمانية أيام ، حتى كان قد أحدث ثغرة فى السقف ، كان يخفيها خلال النهار بصورة كان يلصقها بلباب الخبز . وفى الثامن من أكتوبر ، شرع فى ثقب الجدار الذى يفصل بيننا ، ولكن العملية كانت شاقة عسيرة ، استغرقت حوالى تسعة أيام . وفى اليوم الذى أوشك فيه العمل أن يتم ، عمد القدر إلى معاكساته المعهودة ، إذ فوجئت بلورنس واثنين من أعوانه يقودون شخصا ضئيل الجسم ، زرى الملبس ، مقيد الذراعين . واعتذر رئيس الحراس لاضطرارهم إلى أن يفرضوا علىّ شريكا فى غرفتى .. وكدت أجن لوجود هذا الشريك ، ولكننى لم أجد بدا من الرضوخ . ومن ثم عمدت إلى كسب وده ، بأن أخذت أشركه معى فى غذائى ، لأنه كان بادى الفقر .

وما لبثت أن فهمت أن الرجل كان جاسوسا ، ولكنه كان جشعا لا يقنع بسيد واحد ، فسهل علىّ اجتذابه . وكان فوق هذا ساذجا ، فسرعان ما تظاهرت أمامه بالتقوى ، فإذا بالروح الدينية تستهويه ، حتى إنه استغرق فى الصلاة منذ اليوم الأول . وكتبت إلى الأب « بالبى » أسأله أن يرجئ بقية

العمل ريثما أعدل خطتى .

ثم سألت « لورنس » أن يبتاع لى صورة للقديس فرانسيس ، وصليبا ، وأربعة أمثال ما اعتاد أن يحضره لى من نبيذ .. وعلقت الصورة إلى الجدار ، فى المكان الذى كان مقدرا أن تفتح الثغرة فيه .

الجاسوس التائب !

وكنت قد عرفت من « لورنس » أن شريكى سيدعى للمثول بين يدى المحقق بعد أربعة أيام ، فتظاهرت بأننى مقتنع ببراءته ، وبأنه لن يعود إلى الزنزانة بعد التحقيق . ومن ثم كتبت رسالتين بريئتين إلى السيد « براجادين » والأب « جريمانى » ، وسألته أن يهربهما إلى خارج السجن ، وفتقت بنفسى بطانة سترته لأخفيهما بين ثناياها .

وبالفعل ، لم يلبث الرجل أن استدعى للتحقيق بعد أربعة أيام ، وكنت واثقا من أن خسة نفسه كجاسوس ستوحى إليه بأن يسلم الرسالتين إلى المحقق . وتحقق ظنى ، إذ لم يكد يعود ، حتى تأكدت من عدم وجودهما معه . وعندما ضيقت عليه الخناق ، انهار على ركبتيه أمامى باكيا ، وزعم أن المحقق أمر بتفتيشه عنوة ، حتى عثر عليهما وصادرهما . وأظهرت له أننى لم أصدق كل قصته ، ثم غطيت وجهى براحتى متظاهرا بالأسى العميق ، وركعت أمام صورة القديس ، ورحت أصلى وأسأله أن ينتقم لى ! وكنت أكتم الضحك بجهد جبار ، وأنا أستغل سذاجة الخائن وأثير المخاوف التى تعلق بأذهان الجهلة من جراء الخرافات التى تنسب إلى الدين !.. ثم أويت إلى فراشى صامتا ، وظللت طيلة النهار التالى لا أكلم « سوراداتش » — كما كان زميلى يدعى —

ولا أجيب عن أسئلته ، ولا أحفل ببكائه .. وقد صور له الوهم أن الانتقام لا بد أن يحل به ، فراح يستحلفنى أن أغفر له ، ويقسم على صدق توبته .

العذراء توفد « ملاكا » لكازانوفا !

على أن الوقت كان يمر سريعا .. فقد أصبحنا فى الخامس والعشرين من أكتوبر . وكانت خطتى تقوم على أن أعضاء ديوان التفتيش اعتادوا أن يقضوا الأيام الثلاثة الأولى من شهر نوفمبر — من كل عام — فى إحدى القرى يتعبدون !

.. لذلك أرسلت إلى « بالبى » أدعوه لاستئناف العمل فى الساعة السابعة من مساء اليوم قبل الأخير من الشهر ، أى ٣٠ أكتوبر .

وكنت قد حرصت فى خصامى على أن لا أمنح « سوراداتش » ما كنت أمنحه من طعام ، حتى هزل وخارت قواه فى الأسبوع السابق على آخر أيام الشهر . فلما حل يوم ٣٠ أكتوبر ، تظاهرت بالإشفاق على الخائن ، فإذا به ينخرط فى البكاء ، ويلح فى طلب المغفرة . فقدمت إليه طعاما وأنا أقول له : « لقد تراءت لى العذراء فى المنام وأمرتنى بأن أصفح عنك ، وقالت لى إنها — مكافأة لى على الصفح — ستأمر أحد الملائكة بأن يتخذ صورة البشر ، ويهبط إلى الأرض ، فيلج غرفتنا ويمكننى من مبارحة السجن ، وإن بوسعى أن أصحبك معى إذا أقسمت على أن تطلق مهنة التجسس » . فلما أبدى شيئا من التشكك ، قلت له إنه لن يخسر شيئا إذا ما انتظر معى لنتأكد من صحة هذه الرؤيا !.. وكنت أضحك فى أعماق ، إذ كنت موقنا من أن ظهور « الملاك » الموعود لن يثير فى نفسه سوى الذعر !

وفى الساعة السادسة ، قدمت له عشاء دسما ، وأسرفت فى إغداق النبيذ عليه ، ثم ركعت أمام صورة القديس ، وسألته أن يحذو حذوى .. وما أن دقت الساعة السابعة ، حتى بدأنا نسمع جلبة من الناحية الأخرى من الجدار ، فهمست بانفعال : « ها هو ذا الملاك قادم ! » ، ورسمت علامة الصليب ، وأمرته بأن يسجد معى ، وظللنا فى سجودنا فترة طويلة ، كنا نسمع خلالها « بالبى » وهو ينقب الجدار .

وما لبثت أن أمرت « سوراداتش » بأن يستوى على ركبتيه ، وقضينا ثلاث ساعات ونصف فى صلاة . وكان النعاس يستولى عليه بين آن وآخر ، حتى إذا بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف هتفت به : « سيظهر الملاك ! » ، وأمرته بأن يرسم علامة الصليب ، وأن يستغرق فى الصلاة ، وبأن يقسم على أن لا يبوح لمخلوق بسر الزائر الملائكى !.. ولكننى ما لبثت أن قلت له — عندما انتصف الليل ولما يفرغ بالبى من عمله — إن الملاك سيظهر فى منتصف النهار التالى ، وأن عليه إلى ذلك الحين أن ينام موليا وجهه شطر الجدار .. وأن يتظاهر بالنوم عندما يأتى « لورنس » والحراس فى الصباح التالى . فلما أقبل هؤلاء وانصرفوا ، قلت لسوراداتش إن « الملاك » سيأتى خلال الجدار ، وسيحمل معه مقصا ، فعليه — أى سوراداتش — أن يساعدنا على قص لحيتينا ، فقال فى حيرة : « وهل للملاك لحية ؟ » .. وأجبت فى خشوع تام : « هكذا أمرت !.. ولسوف نهبط من السجن إلى ميدان سان مارك ، ثم نرحل إلى ألمانيا »

وتعمدت أن أحدثه عن طريق الفرار فى إسهاب ، وأنا أكتم الطريق الحقيقى الذى كنت قد رسمته فى خطتى ، وذلك تضليلا للحراس إن هو تخلف عن الفرار معى ، وأفشى لهم أمرى .

إما الحرية .. وإما الموت !

وعند الظهر تماما ، ارتفعت صورة القديس فرانسيس عن الجدار ، وانساب الأب « بالبى » خلال الثغرة ، فألقى بنفسه بين أحضانى .. وبينما انهمك « سوراداتش » فى قص لحية الراهب ، كنت قد انزلقت خلال الثغرة إلى غرفة الأخير حيث التقيت بالكونت إسكوين زميله ، الذى راح يحذرنى ويثبط من عزيمتى ، ولكننى قلت له : « سأمضى فى طريقى ، فإما ظفرت بالحرية ، وإما لاقيت حتفى ! » . ثم عدت إلى غرفتى ، فمزقت ملاءات فراشى وجدلت منها حبلا طويلا ، وحزمت سترتى وعباءتى وقبعتى وبعض أقمصة وجوارب ومناديل ، ثم عدت والراهب و « سوراداتش » إلى الغرفة الأخرى . وإذ ذاك تخليت عن كل تظاهر ، وشرعت فى العمل فورا . وكان الظلام قد هبط ، فتسللت خلال الثغرة التى حفرت فى السقف ، وجزعت إذ وجدت أن القمر لا يزال مشرقا . ولكننا تريثنا حتى غرب ، واستطعت أن أحصل على جنيهين من الكونت إسكوين . وكان « بالبى » بادى القلق والذعر ، لا ينفك عن القول : « إن السطح منحدر ، ويتألف من ألواح الرصاص ، فلن تستطيع أن تسير عليه ! » .. بينما راح الكونت يقول : « لن تجد شيئا تربط إليه الحبل لتتدلى والأب ، ومن ثم فلا بد لأحدكما أن يمسك بالحبل ليدع الآخر يهبط ، ثم يتدبر هو أمر هبوطه . فمن منكما على استعداد ليؤثر الآخر على نفسه ؟.. ومن أية ناحية تهبطان ؟.. لن تستطيعا أن تهبطا من الناحية المواجهة للميدان ، وإلا تعرض أمركما للافتضاح .. ولا من ناحية الكنيسة ، لأنكما ستهبطان داخل الأسوار .. ولا من ناحية الساحة ، وإلا وقعتما

فى أيدى الحراس .. والناحية الرابعة تسلمكما إلى القناة ! » .

وإزاء هذه الاحتمالات ، جبن « سوراداتش » وبعد أن كان متحمسا لمرافقتى ، سألنى أن أدعه يبقى ، وما درى الأحمق أننى سررت لهذه الفرصة ، فقد كنت أخشى أن يعرقل وجوده خطتى .

من كازانوفا .. إلى قضاة التفتيش !

وأسلمت « سوراداتش » رسالة كتبت فيها :

« إن واجب قضاة ديوان التفتيش أن يبذلوا كل سلطان فى وسعهم لإبقاء أى مذنب فى السجن ، ولكن من حق السجين أن يبذل قصارى جهده للفرار .. إنهم لم يسألوه رأيه فى الزج به فى السجن ، ومن ثم فلا حاجة به إلى أن يسألهم رأيهم فى أن يحرر نفسه . إن جاك كازانوفا ــ كاتب هذه السطور ــ يعرف أن من المحتمل أن يقع فى أيدى الحراس ، ولن يرجو فى هذه الحالة سوى أن يُجنب العذاب . وهو ينزل عن كل متاعه فى الزنزانة لفرانسيس سوراداتش ، كما ينزل عن كتبه للكونت إسكوين » .

وتقدمت « بالبى » فى الصعود إلى السقف ، ثم رحت أزحف على يدى ورجلى ، مستعينا بالأداة التى ابتكرتها للحفر ، كى لا أنزلق عن ألواح الرصاص ، وأنا أجر الراهب خلفى . وكنت فى كل لحظة أتمنى لو ركلته وتخلصت مما كان يجشمنى من عناء وتعب . واجتزنا أخيرا السقف المشترك الذى يربط السجن إلى قصر الدوقية ــ قصر ديوان التفتيش ــ فتركت « بالبى » جالسا يلهث ، ورحت أتفقد السطح بحثا عن « منور » أو ثغرة ننفذ خلالها إلى داخل القصر . ولكنى لم أعثر على بغيتى ، ولا على شىء أربط إليه

الحبل .. وكنت طيلة الوقت لا أنفك عن التفكير فى أننى قد أصادف فى القصر أخطارا يهون السجن إزاءها ، ولكن سعار اللهفة إلى الحرية كان يتملكنى !

على أننى لمحت نافذة فى الفراغ الذى يقع تحت السقف المحدودب — الطابق المسروق ، كما يسمونه — فوجدت فيها الأمل الوحيد !

لحظات فى الهواء !

وما لبثت أجراس كنيسة « سان مارك » أن دقت معلنة انتصاف الليل ، فانتبهت إلى ضيق الوقت الباقى ، وأسرعت عائدا إلى زميلى ، فزحفنا حتى أشرفنا على النافذة . وكان على واحد منا أن يدلى الآخر بالحبل ، فطلب « بالبى » أن يكون هو الأسبق فى الهبوط . ومع ما كان فى طلبه من أنانية خسيسة ، إلا أننى كظمت غيظى ، وأجبته إلى رغبته . ولم تكن ثمة وسيلة لأن أتدلى خلفه ، إذ كانت النافذة تبعد بحوالى خمسين قدما ، وليس ثمة من يمسك لى الحبل . وعدت أتفقد السطح ، فإذا بى أطل على شرفة صغيرة فيها بعض مواد البناء ، وسلم ، فتحايلت حتى استطعت أن أسحب السلم ، ثم ربطت به الحبل ، وظللت أدفعه بين أنابيب تصريف مياه المطر (الميازيب) وبين الجدار .. وكانت مهمة شاقة ، وخطر الانزلاق من فوق السقف المنحدر يتهددنى فى كل لحظة من لحظات أدائها .. وأصبحت خمس درجات من السلم مندسة بين الميازيب والجدار ، ولكنها لم تكن كافية لحفظ السلم فى وضع متوازن . وعدت أدفعه بكل ما تبقى فى جسدى المرهق من قوة . حتى انحشر تماما ، وأصبح من العسير تحريكه ، أو حتى هزه . وهنا أقدمت على المخاطرة

التى كانت فيها حياتى أو موتى !.. إذ أمسكت بالحبل وتركت نفسى أنزلق فى الهواء — معتمدا على ثبات السلم فى انحشاره بين الأنابيب والجدار — بعد أن أدليت بحزمة ثيابى إلى الراهب ..

تأرجحت فى الهواء لحظات كنت أخال فى كل منها أن قواى لن تلبث أن تتخلى عنى فأهوى مهشما . على أن قدمى استطاعتا أخيرا أن تبلغا النافذة ، فرحت أتشبث بالميازيب ، حتى استطعت أن أثبت على حافتها ، حيث أعاننى الراهب على الهبوط .

جولة .. فى عرين الأسد !

وسرنا وقد وضع كل منا ذراعه فى ذراع الآخر ، حتى وصلنا إلى مكان معتم ، طوله ثلاثون قدما تقريبا ، وعرضه حوالى العشرين . وكان فى نهايته باب موصد بمزلاج من الحديد ، ولكننا لم نجد كثير عناء فى رفع هذا المزلاج ، ثم نفذنا خلال الباب إلى غرفة بها مائدة كبيرة ، صفت حولها المقاعد . وشعرت إذ ذاك بأن كل قواى قد نضبت ، فاتخذت من حزمة ثيابى وسادة ، واستلقيت على الأرض مستسلما للنعاس ، غير حافل باحتجاجات زميلى .. ولا أزال أذكر — رغم السنوات الطوال التى انقضت — مدى الراحة التى كنت أشعر بها عندما استيقظت أخيرا على هزات من الراهب الذى راح ينبهنى فى ذعر إلى أن ساعة الكنيسة دقت معلنة الخامسة . وكان النوم قد فعل بى فعل السحر ، فإذا بى منتعش . يقظ المشاعر والفكر . ونهضنا نستكمل استطلاعنا ، وأنا مطمئن إلى أن قصر الدوقية لم يكن محفوفا بحراسة دقيقة كتلك التى تحف بالسجن وتبث فى أرجائه .

وأفضى بنا باب إلى سلم حجرى هبطنا عليه إلى بهو وجدنا فى طرفه سلما آخر هبطناه . فإذا بنا فى قاعة فسيحة ، تنتهى بباب محكم الإغلاق ، تحايلت عبثا على فتحه ، فلم أجد بدا من أن أستعمل أداة الحفر — التى لم تفارقنى — فى تحطيم بعض زجاج الطاقة التى كانت تعلوه (الشراعة) . وتسلقت والراهب إليها ، ثم هبطنا إلى الجانب الآخر ، بعد أن لاقينا الأمرين من بقايا الزجاج التى أصابتنى بجراح فى اليدين والقدمين والفخذين !.. ووجدنا سلما هبطناه ، فإذا بنا خلف باب كأنه الجبل .. وهنا ، جلست على آخر درجات السلم ، وقلت للراهب : « لقد أديت ما علىّ ، وبقى أن يفعل الله ما يشاء ! » .

وانفجر الراهب يسبنى ويرمينى بالتهور والجنون ، ولكننى انصرفت عن ثورته بتضميد بعض جروحى بمناديل من حزمتى ، فما لبثت أن بدوت فى مظهر سكير جرح فى مشاجرة أثناء الليلة السالفة .. أما « بالبى » فكان يبدو كفلاح « غشيم » !

أخيرا .. يلتقى بالحرية !

وكان لا بد من عمل .. أى عمل !.. وداخلنى إيمان قوى بأن الله ما كان ليساعدنى حتى هذه المرحلة لكى يسلمنى ثانية إلى زبانية ديوان التفتيش ، لا سيما وأننى كنت بريئا !.. ورحت فى حيرتى أذرع المكان ، ثم نهضت إلى نافذة فى البهو ، فتأملتها مليا .. وما لبثت أن عدت فأخرجت من الحزمة عباءتى الأنيقة وقبعتى الأسبانية المطرزة بالقصب ، والتى كانت تعلوها ريشة بيضاء ، وارتديتهما ، ثم سرت إلى النافذة فعالجتها حتى فتحتها وأطللت منها وأنا أصيح مناديا البواب .. وانتبه الرجل أخيرا ، فرفع رأسه نحوى ، وما أن

أبصر بالريشة يداعبها الهواء فوق القبعة الأنيقة ، حتى أقبل مسرعا إلى الباب ، وهو يقول : « يالله !.. لابد أننا نسينا أحدا من السادة داخل القصر حين أغلقناه أمس ! » .

وما إن فتح البواب المذهول الباب ، حتى استقبلته بضربة كنت قد استجمعت فيها كل ما بقى من قواى ، فانهار على الأرض مغشيا عليه ، بينما اندفعت أهبط السلم الخارجى ، غير حافل بپالبى الذى لم ينفك يقول وهو يجرى فى أعقابى لاهثا : « إلى الكنيسة !.. إلى الكنيسة ! » .. ولكننى بدلا من أن أتجه إلى الكنيسة ، اندفعت مجتازا ساحة القصر إلى القناة ، واتجهت إلى أقرب « جندول » فقفزت إليه آمرا النوتى بأن يسرع إلى (فوسينا) . ولحق بى الراهب خلال الوقت الذى استغرقه النوتى فى فك رباط قاربه . ولعلنا كنا نبدو كائنين من المهرجين ، بثيابنا المتناقضة .. ولكنى لم أعبأ بمظهرنا ، فتريثت حتى تحرك « الجندول » متجها إلى منتصف القناة ، ثم قلت للنوتى إننى غيرت رأيى ، وأمرته بأن ينقلنا إلى (مستريه) بأسرع ما فى وسعه . وهناك نقدته أجره من الجنيهين اللذين كنت اقترضتهما من الكونت إسكوين ، ثم استأجرت عربة . وإذ همت العربة بأن تتحرك بنا ، فوجئت بشخص يهتف باسمى .. والتفت وقد هامت نفسى ، وإذا برجل قمىء كنت أعرفه — يدعى « بالبو توماس » — يقبل علىّ مصافحا وهو يقول : « ماذا تفعل هنا ؟.. هل فررت ؟ » .. واستجمعت كل رباطة جأشى ، وقلت فى هدوء : « ولماذا أهرب ؟.. لقد أطلق سراحى » !!

القدر يدفع الهارب إلى دار ضابط الشرطة !

ووكزت الحوذى ، فساط جواديه ، منطلقا بنا فى اتجاه (تريفيسو) فلما وصلنا إليها ، نزلنا فى فندق . وطلبت عربة أخرى . ولم أكن أنتوى فى الواقع استئجارها ، إذ لم تكن النقود التى بقيت معنا كافية ، ولكننى عمدت إلى هذا التظاهر للتمويه . وكنت أتضور جوعا ، غير أننى ادعيت الرغبة فى أن أتنزه فى الحقول قليلا ريثما تعد العربة ، ثم اصطحبت « بالبى » وغادرنا المدينة خلال بوابة القديس توماس ، وأوغلنا فى الحقول . وبعد نحو ساعة ، عرجنا على بيت قروى صادفناه ، فتناولنا طعاما شهيا . مقابل ثلاثين صولديا . ثم استأنفنا السير زهاء أربع ساعات ، فلما صرنا على بعد أربعة وعشرين ميلا من (تريفيسو) ، توقفت عن السير وقد استبد بى الإرهاق ، وتورمت قدماى ، وآلمتنى جراح ركبتى وفخذى .. ورأيت أن لا بد لى من التخلص من « بالبى » ، حتى لا أحمل همه فى هذه الظروف الحرجة . ومن ثم قلت له : « لا بد لنا من بلوغ (بورجو دى فالسوجانو) ، وهى أول مدينة خارج حدود الجمهورية . ولكنى أرى من الحيطة أن لا نسعى إليها معا ، بل ليتخذ كل منا طريقه منفصلا عن الآخر ، لكى لا يسهل تعقبنا ! » .

وما أن اختفى « بالبى » عن بصرى حتى انحرفت عن اتجاهنا السابق ، وضربت فى أرجاء الريف ، فما لبثت أن أقبلت على قرية صغيرة . ولست أدرى ما الذى اجتذبنى إلى بيت أحمر صغير ، قائم فى طرفها ، فسعيت إليه . وصادفت راعيا فى طريقى ، فسألته عن صاحب الدار ، وكم كان ذعرى حين قال إنها دار ضابط بوليس القرية .. الدار الوحيدة التى كان يجب أن أتحاشاها ،

لولا أننى كنت منجذبا إليها بحاسة غريبة لم أستطع أن أعرف كنهها ، ولم أملك أن أقاومها !

سجين .. فى ضيافة زوجة الضابط !

ورأيت شابة جميلة أمام الدار ، وعلى مقربة منها طفل يلعب ، فسألتها فى أدب عن زوجها ، وإذا به متغيب عن الدار ، فهتفت : « ياللأسف !.. لقد جئت من سفر لكى أقابل زميلى » .. وصاحت السيدة : « زميلك ؟!.. إذن فأنت السيد فيتورى .. كان زوجى يترقب وصولك .. وسيستاء إذا فاته لقاؤك !.. تفضل على الرحب والسعة ، ولتبق ضيفنا حتى يعود ، فإنه استدعى — كما استدعى شرطة القرى جميعا — للاشتراك فى البحث عن سجينين هربا من « سجن الرصاص » . ولكن .. ما لركبتك ؟ » .. وأدركت أن الله كان فى عونى ، وإلا ما دفعنى إلى دار كان أهلها يترقبون زائرا لا يعرفون شكله !

.. ومضيت أجيب عن سؤال السيدة ، باختلاق قصة عن أرنب جبلى صادفته فى طريقى ، فراق لى أن أصيده . وفيما كنت أطارده ، انزلقت على الصخور فأصبت بتسلخات وجروح .. وهتفت الشابة الحسناء : « يا للمسكين !.. تعال لتعنى أمى بجراحك ! » .

وجلست فى مقعد وثير ، بينما راحت الشابة تعد لى طعاما شهيا ، وانهمكت أمها فى تضميد جراحى . وما أن ارتحت من آلام الجراح ، وملأت معدتى حتى غلبنى النوم ، فلم أستيقظ إلا فى ضحى اليوم التالى . وأسرعت بارتداء ثيابى ، وهبطت مسرعا إلى الطابق الأرضى ، فلم أجد المرأتين فى

طريقى ، ولكنى رأيت لدى الباب رجلين بدا من مظهرهما أنهما من الشرطة . وأجفلت ، ولكن النوم كان قد شحذ حواسى وجرأتى ، فانطلقت من بينهما إلى الخارج فى ثبات ، ووجدتنى مضطرا إلى مواصلة السير ، راحلا عن القرية دون أن أشكر مضيفتى الجميلة !

وظللت سادرا فى سيرى خمس ساعات ، ثم مررت بكنيسة .. وكان اليوم يوم عيد ، والقرويون يقبلون أفواجا للصلاة ، فاندسست بينهم . وفيما كنت أغادر الكنيسة ، أحسست بيد تمس كتفى ، فالتفت مذعورا لأجد نفسى أمام « مارك أنتونى جريمانى » ، ابن أخ الرجل الذى كانت أمى قد أقامته يوما وصيا علىّ .. وهتف السيد : « أهذا أنت يا كازانوفا ؟.. وأين زميلك ؟ »

النساء أوفر خيرا من الرجال !

وأجبت لفورى : « لقد أعطيته كل ما كان معى من نقود ، وانفصلنا . ولو أنك أسديت لى يد المساعدة الآن ، لأمكننى أن أدبر أمورى ! » .. ومع أنه رفض أن يساعدنى ، إلا أنه طمع فى أن أروى له تفصيلات فرارى من السجن ، الأمر الذى أحنقنى وجعلنى أعرض عنه ساخرا . وقد علمت فيما بعد أن زوجته أنبته أقذع تأنيب لما أبداه لى من جمود .. ولا عجب ، فإن الخير لدى النساء أوفر منه لدى الرجال !

وواصلت سيرى حتى غربت الشمس ، وبرح بى التعب والإرهاق والجوع ، فلم أجد بدا من أن أعرج على بيت منعزل ، متواضع المنظر ، وسألت حارسه عما إذا كان بوسعى أن أقابل رب الدار ، ولكنه قال إن سيده قد رحل ليحضر حفلة عرس ، وإن أوصاه بأن يكرم من يفد أثناء غيابه من

أصدقاء !.. وهكذا حالفني الحظ مرة أخرى ، فوجدت عشاء شهيا ، وفراشا وثيرا .

وتناولت غدائي — في اليوم التالي — في دير صادفته في الطريق ، حتى إذا كان الأصيل ، وجدتني عند قصر كان صاحبه من أصدقائي . وقادني الخادم إلى غرفة المكتب ، حيث كان صديقي منهمكا في الكتابة ، فما أن رآني حتى هوى القلم من بين أصابعه ، وأمرني بأن أغادر قصره في الحال . ولكنني سألته أن يقرضني ستين دينارا مقابل وثيقة تمكنه من أن يحصل على المبلغ من السيد « براجادان » — أبي الروحي — غير أن صديقي صارحني بأنه لا يستطيع أن يقدم لي أي عون ، خشية أن يجلب على نفسه غضب « ديوان التفتيش » !

مساعدة .. بالقوة !

وغاظني مسلكه .. ولما كان شيخا في الستين من عمره ، ضعيفا ، فقد أمسكت بخناقه ، وهددته بالقتل إن لم يبادر إلى معونتي ، ففتح درجا مليئا بالذهب ، وسألني أن آخذ منه ما أشاء .. ولكنني قلت له : « أعطني ستة دنانير ! » . فقال : « ولكنك كنت تطلب ستين ! » . فقلت : « أجل ، كنت أطلبها كقرض من صديق . أما الآن فأنا أطلب ستة فقط ، لأنني أحصل على مساعدتك بالقوة ، ولن أعطيك وثيقة في مقابلها .. على أنني أعدك بأن هذا المبلغ سيرد إليك في البندقية .. فسوف أكتب لولي أمري كي يدفعها لك ، وسأنبئه بخستك ونذالة مسلكك ! » .

وقضيت ليلتي في كوخ أحد الفلاحين ، حتى إذا كان النهار التالي ، ابتعت بزة — « ردينجوت » — قديمة ، وحذاءين ، واستأجرت حمارا .. ثم انطلقت

فى طريقى . وما لبثت أن استبدلت بالحمار عربة وجوادين .. وتابعت رحيلى إلى (يورجو دى فالسوجانو) ، حيث وجدت « بالبى » ، زميلى الذى فر معى من السجن .. ولو أنه لم يبادرنى بالحديث لما تسنى لى أن أعرفه .. فقد كان فى زى ركوب الخيل ، وعلى رأسه قبعة غيرت من مظهره . وذكر لى أن فلاحا أعطاه هذه الثياب فى مقابل المعطف الذى كنت قد نزلت له عنه !

كازانوفا .. فى إمارة بافاريا !

ونزلت فى أحد الفنادق ، فلزمت غرفتى يومين ، انصرفت خلالهما إلى كتابة الرسائل إلى معارفى فى (البندقية) ، أناشد كلا منهم أن يرسل لى نقودا ، ورويت لهم جميعا قصة ذلك الشيخ الخسيس الذى أبى أن يقرضنى . ثم سعيت إلى (بولزان) حيث لجأت لصديق قديم « أقرضنى » خادما أوفدته إلى السيد « براجادان » ، فعاد إلىّ بعد ستة أيام يحمل مائة دينار . ومن ثم أسرعت بشراء ثياب لى ولزميلى ، ثم رحلنا إلى (ميونيخ) حيث نزلت فى فندق التقيت فيه بصديقة قديمة من معارفى ، هى « كونتة كورونينى » التى كانت ذات حظوة فى بلاط أمير بافاريا ، والتى حدثت الأمير بشأنى ، فقال لها إنه لا يرى ما يمنع من أن أقيم فى بافاريا . ولكنه أبى أن يأوى فى إمارته زميلى « بالبى » لأنه كان راهبا ارتد عن الرهبنة ، فخشى الأمير أن يثير ثائرة الكنيسة عليه إذا أواه . ولهذا زودت « بالبى » بكل ما كان فى حاجة إليه ، وأعطيته رسالة توصية إلى أسقف (سان مورتيز) ، ثم ودعته وأنا مغتبط للخلاص منه !

وكانت صحتى قد تأثرت كثيرا ، كما أننى أصبت بتوتر عصبى أزعجنى ، ومن ثم حرصت على أن ألتزم الراحة التامة لمدة شهر ، عنيت خلاله بعلاج

نفسى ، فسرعان ما استعدت صحتى . وفى تلك الأثناء ، وفدت على (ميونيخ) مدام « ريفيير » وأسرتها ، وكانوا من أصدقائى فى البندقية . وإذ كانوا معتزمين الرحيل إلى باريس ، حيث تزف ابنتهم الكبرى ، فقد دعونى للرحيل معهم . وكنت فى تلك الفترة قد تلقيت مزيدا من المال — من البندقية — فرحلت مع الأسرة فى عربتها الفخمة المريحة .

فى قصر الملك .. بباريس !

ووصلنا إلى باريس فى الخامس من يناير سنة ١٧٥٧ ، فذهبت فور وصولى إلى صديقى « باليتى » الذى تلقانى فى اغتباط عظيم ، إذ كان فى قلق بعد أن قرأ نبأ فرارى من السجن ، وأدرك أن لا سبيل لى إلى البقاء فى البندقية أو على مقربة منها .. وكم كان فرح أسرة صديقى بى ، وتفانيها فى إرضائى ! وهكذا عدت إلى باريس .. عدت إليها وقد عولت على أن أتخذها وطنا ثانيا ، بعد أن فقدت الأمل فى العودة إلى وطنى . وكنت قد عرفت المدينة كمسرح للهو والعبث ، ولكننى فى هذه المرة اعتبرتها ميدان جهاد للوصول إلى مركز مرموق . وكان لا بد من أن أستغل كل مواهبى الجسدية والعقلية ، وأن أتعرف إلى علية القوم من ذوى النفوذ ، وأن أنال لديهم الحظوة . وعاهدت نفسى على أن يكون التحفظ هو السلاح الذى أعتمد عليه .

ولم أشغل بالى كثيرا بالمال ، إذ وعدنى السيد براجادان الكريم بأن يمدنى بما يساوى مائة جنيه فى كل شهر .. ومن ثم مكثت أتحين الفرص ، ورحت أروى قصة فرارى فى كل مجلس . ثم كتبت خطابا إلى « قصر بوربون » أطلب الحماية ، فتلقيت — فى الساعة الثامنة من الصباح التالى — دعوة إلى هناك . وأسرعت

ألبيها ، حيث استقبلنى مسيو « دى بيرنى » ـــ أحد رجال الملك ـــ مرحبا بى ، وذكر لى أنه سمع عن مغامرة فرارى من السجن الرهيب ، فوعدته بأن أسجلها له فى إسهاب .. وعندما استأذنت فى الانصراف ، دس فى يدى لفافة من الأوراق المالية ، أنفقتها فى شراء ثياب تليق بى ، ثم كتبت قصتى خلال الأيام الثمانية التالية ، وحملتها إلى السيد « دى بيرنى » ليطبع منها ما شاء من النسخ ، يوزعها على كل من يرى أن بوسعه أن يكون ذا نفع لى !

الطيور على أشكالها تقع !

وبعد أسابيع ثلاثة ، أنبأنى السيد « دى بيرنى » بأنه تحدث فى شأنى مع سفير البندقية فى باريس ، وأن الرجل لم يجد فى فرارى أى تثريب ، لأن السلطات المدنية فى البندقية لم تكن ذات مصلحة فى اعتقالى أو فرارى ، ولكنه آثر أن لا أزوره ، حتى لا أثير عليه غضب رجال « ديوان التفتيش » واستقر بى المقام فى باريس ، وبدأت الأيام تبتسم لى ، إذ اشتركت فى مشروع ناجح . فلما كان شهر مارس ، وفد على باريس نبيل من نبلاء روما حرص على لقائى ، ليسلمنى الأوراق الخاصة التى كنت قد تركتها وديعة لدى صديقتى « السنيورا مانزوتى » قبل سجنى .. وكان الرسول شابا لطيفا يدعى « الكونت دى تيريتا » . وقد قدمنى إلى سيدة تقيم فى باريس ، وتزعم أنها أرملة ابن أخت البابا .. وكانت تدعى مدام « لامبرتينى » . ولكننى ما لبثت أن عرفت أنها أفاقة من تاجرات الهوى !.. ولم يمض وقت على استقرارنا فى دارها ، حتى وجدتها تخلو إلى صديقى فى ركن من الحجرة ، فانصرفت أنا الآخر إلى حسناء قدمتها السيدة على أنها ابنة أختها !.. والحق أننى لم أعامل الفتاة ـــ وكانت تدعى

مدموازيل دى لامور — بكثير من التوقير .. فما كنت أتصور قط أن مدام « لامبرتينى » تأوى فى دارها فتاة طيبة !

حسناء .. و ٧٥٠٠٠ فرنك !

وتوثقت الصلات بينى وبين مدموازيل « دى لامور » ، حتى انقلبت إلى حب متأجج !.. وعشت فى نعيم حالم ، إلى أن استيقظت منه ذات يوم على رسالة من حبيبتى ذكرت فيها أن عمتها كانت تحاول أن تزوجها من تاجر غنى من أهل (دانكرك) لا تعرف عنه شيئا ، بل إن عمتها نفسها لم تعرفه إلا عن طريق امرأة ممن يمهدون الزيجات للناس (خاطبة !) . واستطردت الفتاة تقول فى رسالتها : « .. فإذا كان ما جرى بيننا لم يحط من قدرى فى نظرك ، فإننى أعرض نفسى عليك زوجة ، وأحمل إليك صداقا عاجلا (دوطة) قدره خمسة وسبعون ألفا من الفرنكات .. فضلا عما سوف أرثه إذا ما ماتت عمتى ! »

وهزت رسالتها فؤادى ، ولكن فكرة الزواج أزعجتنى كالمعتاد !.. ولم يكن أمامى سوى أربعة أيام للبت فى الأمر ، ولكن هذه المهلة القصيرة كانت كافية لأن تقنعنى بأن حبى للفتاة لم يرق إلى درجة الزواج !

مع « العريس » المنتظر !

وما لبث التاجر المرشح للزواج من « دى لامور » أن أقبل على باريس ، فدعتنى مدام « لامبرتينى » إلى تناول العشاء فى دارها احتفالا به . وبعد أن سمرنا قليلا ، استأذن الرجل فى الانصراف ، فدعته ربة البيت إلى العشاء فى

الليلة التالية ، وأوعزت إلى الفتاة أن تلحف عليه فى القبول ، حتى إذا انصرف ، سألت مدام « لامبرتينى » ابنة أخيها عن رأيها فى الرجل ، فقالت : « أرجو أن تعفينى من الإجابة فى الوقت الحاضر ، وأمهلينى إلى غد . فإذا أقبل للعشاء ، فأجلسينى بجواره ، واسمحى لى أن أتحدث إليه فى طلاقة ، إذ أن الرجل قد يعجب بمنظر المرأة ، ولكن حديثها قد يسقمه ويقضى على إعجابه ! » . وانصرفنا إلى لعب الورق ، فألهانا سعار المقامرة عن الوقت . وعندما انتبهنا إليه ، كان الليل قد اكتهل . ولما كانت الدار فى ضاحية متطرفة ، فقد قبلت فى سهولة الدعوة إلى قضاء الليلة فى ضيافة مدام « لامبرتينى » !.. وما أن خلوت إلى نفسى فى غرفتى ، حتى فتح الباب ، وأقبلت الحسناء فى نفس الثوب الذى كانت ترتديه فى السهرة .. وسألتنى فى اقتضاب : « هل أقبل الزواج من الرجل ؟ » .. وأدركت ما كانت تبغى .. لقد أرادت فى حزم أن تعرف رأيى ، لتتخذ قرارا نهائيا بشأن علاقتنا !

وقلت مراوغا : « هل ارتحت إليه ؟ » .. فأجابت : « المهم فى الأمر هو أننى لم أشعر بنفور منه ! » . فقلت « إذن ، وافقى على الزواج ! » ..

وكان جوابها : « حسنا ، وداعا .. يجب أن ينتهى حبنا فى هذه اللحظة ، وتبدأ مرحلة صداقة فقط ! » .. فقلت فى رجاء : « أرجئى هذه اللحظة إلى غد ! » .. فقالت : « لا ، ولو كان فى ذلك عمر جديد لى . فإذا كان مقدرا لى أن أصبح زوجة لرجل غيرك ، فخليق بى أن أعد نفسى لأكون أهلا له .. ومن يدرى ، قد أحظى معه بسعادة تفوق كل ما تذوقت ! » .

وتحركت عواطفى ، فقلت متوسلا : « إذن قبلينى ! » .. ولكنها أجابت قائلة : « لم يعد من حقك أن تنشد قبلاتى ! » وكانت الدموع تنهمر من عينيها ، فأمسكت بها .. ولكنها هتفت : « دعنى بالله ! » .. فقلت مشفقا : « ولكنى لو

تركتك فسوف تستغرق فى البكاء وحيدة فى غرفتك .. يا لحيرتى ويأسى .. امكثى وسأتزوجك ! » .. وإذ ذاك رفعت رأسها فى شمم وقالت : « لا ، لست أقبل هذا الآن .. لو أنك كنت تحبنى لما انتظرت حتى الآن ، وما عرضك الآن سوى إشفاق .. ولست أقبل أن أفرض نفسى عليك عن طريق الإشفاق ! »

قلب العاشق .. بين الحسرة والغيرة !

وأفلتت منى وغادرت الحجرة ، فلم أجسر على أن أتبعها . ولم أنم فى الساعات القلائل التى تبقت من الليل ، بل رحت مسهدا أعانى من مشاعر عدة : كانت هناك حسرة بعثها شعورى بأننى سأفقد هذه الحسناء الشهية .. وكان هناك إشفاق لشعورى بأننى صدمت عواطفها بعد مبادرتى للزواج منها رغم حبها لى .. وكان هناك ندم لأننى أوهمتها بأنى أحبها .. وأيقظت أحلاما جميلة فى نفسها .. وكان هناك خزى وخجل من موقفى ، بعدأن غررت بعواطفها ! وعندما طلع النهار ، غشى النوم عينى ، فلم أستيقظ إلا بعد الظهر . وأصرت مدام « لامبرتينى » على أن أبقى إلى وقت العشاء .. وما أن رأيت « دى لامور » إلى جوار خطيبها التاجر — عندما ضمتنا المائدة فى المساء — حتى استعرت نيران الغيرة بين ضلوعى !.. وبدأت غريزة حب التملك توحى إلىّ بأننى كنت أحب الفتاة ، ثم راحت تنفخ فى هذا الحب حتى بدا كأنه يملأ كل حياتى .. فلما أعلنت الحسناء فى نهاية المأدبة أنها ستزف إلى التاجر بعد ثمانية أيام ، ثم ترحل معه إلى (دانكرك) ، خيل إلىّ أننى أوشك أن أخر صريعا !

كاد يقتل رجلا بغير ذنب !

لست أدرى كيف انصرفت من الدار .. كل ما أدريه هو أننى لم أكد أستقر فى دارى ، حتى عكفت على كتابة أروع رسالة سطرها قلمى .. ولكن الحسناء اقتصرت فى ردها على إبداء رجائها بأن لا أكتب لها بعد ذلك اليوم !.. وإذ ذاك خيل إلىّ أنها أحبت التاجر بالفعل ، فتحالف هذا الظن مع الفكرة التى تملكتنى وأوحت إلىّ بأنى أحبها ، وراحا يزينان لى أن أناضل من أجل قلبى .. وداخلنى ميل إلى أن أقضى على الرجل !

ووسوست لى الحيرة بأن أذهب إلى الرجل فى فندقه ، فأصارحه بكل ما كان بينى وبين الفتاة حتى ينصرف عنها ويتركها لى .. فإذا أبى ، فلأدعه إلى المبارزة !.. ولم ألبث أن ذهبت بالفعل ، وقد حملت فى جيبى غدارتين !.. واضطررت لأن أنتظر حوالى ربع الساعة ، إذ كان الرجل نائما . على أنه أقبل بعد ذلك ــ بثياب النوم ــ فما أن رآنى حتى احتضننى فى ود ، وراح يرحب بى فى اغتباط .. وفوجئت بحقدى ينفثئ ، وبروح العداء تتبخر .. وتبددت النوبة الجنونية !.. وما زلت حتى اليوم أشعر بالخزى والهوان ، كلما تمثلت كيف أننى كنت مقدما على التصرف كوغد خسيس !

صوت .. من أعماق الماضى

ولم أمكث فى باريس أكثر من أيام بعد زواج « دى لامور » ، ثم قررت أن أغادر فرنسا بأسرها ، فذهبت إلى (جنيف) .. وهناك نزلت فى فندق « ديه

بالانس » وما أن لذت بغرفتي ، وتخلصت من وعثاء السفر ، حتى رحت أفكر فيما أفعله فى المدينة .. وقمت إلى النافذة أسرح النظر خلالها لأشحذ فكرى ، فإذا بنظرى يقع على لوح من زجاجها ، حفرت عليه — بالماس — هذه الكلمات : « لن تنسى هنرييتا » .

وأحسست بالدنيا تدور بى عندما تذكرت اليوم الذى كتبت فيه « هنرييتا » هذه الكلمات لى .. ولى وحدى !.. وقفزت بى الذكرى ثلاث عشرة سنة إلى الوراء فى لمح البصر .. تذكرت الحسناء المجهولة التى كانت متنكرة فى زى ضابط شاب ، وفى صحبته ضابط نمسوى مسن كان موفدا من إمبراطورته إلى البابا .. وذكرت كيف أن العلاقات توطدت بينى وبينها حتى اكتشفت أن الضابط الشاب لم يكن سوى فتاة .. واستطعت أن أكسب قلب الفتاة أثناء رحلة جمعتنا ، ثم رافقتها إلى (جينيف) . وهناك ، بدأت أفهم أن الفتاة كانت من أسرة فرنسية عريقة ، وأنها كانت على موعد فى (جينيف) مع كبير من رجال بلاط ولى عهد أسبانيا — الذى كان متزوجا من ابنة ملك فرنسا — لتسوية بعض شئون عائلية .. وإذ تمت التسوية بالطريقة التى أرضت الفتاة ، رأت أن لا بد لنا من أن نفترق . وبعد ليلة ليلاء ، نقشت بماسة خاتمها تلك العبارة على نافذة الغرفة التى قدر لى أن أنزل بها مرة أخرى ، بعد ثلاث عشرة سنة : « لن تنسى هنرييتا » !

الذكريات .. تطهر نفس كازانوفا !

وتدفقت الخواطر على رأسي ، وانبثقت المشاعر جياشة فى فؤادى ..
« هنرييتا » !.. الفتاة الجميلة ، الرقيقة ، النبيلة ، الصادقة العاطفة !..
« هنرييتا » ، التى أحببتها بكل قلبى .. ترى أين هى الآن ؟.. قط لم أسمع عنها منذ افترقنا ، بل إننى كنت من الجحود بحيث لم أحاول أن أستفسر عن حالها أو أسأل عن مصيرها !.. ورحت أقارن بين نفسى وبين نفس كاتبة تلك الكلمات ، فشعرت بأننى أقل منها وفاء ونبلا .. بل إننى غدوت الآن شخصا آخر غير الذى عرفته « هنرييتا » منذ ثلاث عشرة سنة .. غدوت شخصا تخفف ـــ إلى درجة ليست بالضئيلة ـــ من المثل العليا ومما كانت تضفيه علىّ النزوات من شاعرية تجعل الحب فنا ممتعا ، لا مجرد غزوات خسيسة . وخيل إلىّ أننى تطهرت ـــ فى فيض الذكريات ـــ من الأوشاب التى علقت بى خلال السنوات الطويلة الماضية ، وإننى عدت كما كنت حين التقيت بهنرييتا أول مرة !.. وكأنما أوحى إلىّ ذلك بأننى عدت أهلا لأن أسعى إليها ، ورغم أنها ناشدتنى ـــ عند افتراقنا ـــ أن لا أحاول الاتصال بها ثانية !

وبعد تفكير طويل ، أدركت أن بالى لن يهدأ ، وقلبى لن يسترد طمأنينته حتى أعرف ما جرى لهنرييتا خلال هذه الأعوام الطويلة .. ورحت أرسم خطتى لاكتشاف طريق لتحقيق هذه الرغبة !.. على أننى ، وقد تطهرت ، لم أكن لأغادر (جينيف) دون أن أزور « كاهنها » الأكبر .. كاهن الحكمة والفكر .. « فولتير » !

فى مجلس « فولتير » !

ولم يكن دخول دار « فولتير » بالمهمة الشاقة .. فقد كانت الدار ـــ كأى معبد ـــ مفتوحة للجميع .. وكان مجلسه يضم زائرين أقبلوا من كل بلد .. فكان بينهم ، إنجليز ، وفرنسيون ، وإيطاليون ، وسويسريون ..

وقال « فولتير » حين عرف أننى من البندقية : « لا بد أنك تعرف كونت « إلجاروتى » .. فقلت : « لقد تعرفت إليه فى (بادوا) منذ سبع سنوات ، وكان أروع ما اجتذبنى إليه هو ترديده أهازيج الإعجاب بالسيد فولتير ! » .. فقال : « إنك تتملقنى ! » .. وتطرق بنا الحديث إلى الأدب والأدباء والشعراء فى فرنسا وإيطاليا . وإذ عرف « فولتير » أننى أحفظ الشعر وأنظمه ، راح يذكر أنه كان قد تحامل على الشاعر الإيطالى « أريوستو » ، وكتب مقالات كثيرة فى نقده ، ولكنه ما لبث أن أحبه وندم على ما كتب . وراح يردد من الذاكرة بعض أشعار « أريوستو » . وفى اليوم التالى ، قدم لى ترجمة وضعها لهذه الأشعار . وسألتنى مدام « دنيس » ابنة أخت فولتير ـــ عما إذا كان خالها قد اختار ـــ لترجمته ـــ أبدع أشعار « أريوستو » ، فقلت :

ـــ أجل يا سيدتى .. ولكنها ليست أروعها .. إن أروع ما نظم « أريوستو » هو ستة وثلاثون بيتا من شعر فى وصف الجنون !

وسألتنى السيدة أن ألقى على مسامع الحضور تلك الأبيات ، فانطلقت ألقيها بصوت مؤثر ، حتى إذا فرغت منها ، رأيت الدموع فى عيون الجميع .. حتى مسيو « فولتير » !.. وحين علم أننى راحل عن (جينيف) فى اليوم التالى ، أبى أن يقرنى على ذلك ، وسألنى أن أطيل مقامى ثلاثة أيام أخرى على

الأقل ، على أن أتناول العشاء على مائدته فى كل ليلة !

كان فولتير يمنح الناشرين إنتاجه !

وخففت إلى دار « فولتير » عند غروب شمس اليوم التالى .. وكان فى الحديقة عند وصولى ، فأمسك بذراعى وقادنى إلى نهر كان يجرى عند الطرف الأقصى من الحديقة . وأشار إلى النهر قائلا فى زهو : هذا هو الرون .. النهر الذى أبعث به إلى فرنسا هدية منى ! » .. هكذا كان فولتير ، مزهوا ، فخورا ، محبا للإطراء والتمجيد .. وإن لم ينل هذا من عبقريته ونبوغه !

ولحق بنا فى الحديقة بعض من كانوا يترددون على الأديب العظيم .. ولكنه ما لبث — بعد فترة — أن دعانى إلى مخدعه ، حيث استبدل بطاقية الشعر المستعار التى كان يرتديها ، طاقية أخرى .. وفتح صوانا رأيت فيه أكواما من الورق المنظم ، وقال : « فى هذا الصوان حوالى خمسين ألف خطاب ، وقد أجبت عنها كلها ! » .

— وهل احتفظت بنسخة من كل رد ؟

— إننى أترك هذه المهمة لخادمى ، فهو يحرص على أن ينسخ الرسائل التى أكتبها .

— كم من ناشر على استعداد لأن يدفع الكثير فى سبيل هذه التحف !

— هذا صحيح ، ولكن ، كن على حذر من الناشرين إذا شئت أن تنشر شيئا ، لا سيما إذا لم تكن بعد معروفا ، فهم إذ ذاك يغدون أخطر من القراصنة ! ثم عدنا إلى قاعة الجلوس ، حيث راح « فولتير » يعرض طرائف من ذكائه وخصوبة فكره ، وخفة فكاهاته ، وبهجة روحه .. كان إذ ذاك فى

السادسة والستين من عمره ، يعيش على دخل قدره مائة وعشرون ألفا من الفرنكات فى العام . ولقد ظلمته الشائعات إذ زعمت أنه أثرى عن طريق غشه للناشرين ، فالواقع أن الناشرين هم الذين خدعوه وأثروا بفضل كتاباته ! .. ولم يكن يعنى بالمال قدر عنايته بالشهرة ، حتى إنه كان فى كثير من الأحيان يقدم كتبه دون مقابل ، على شريطة أن تطبع وأن تروج بين الناس . وقد شهدت بنفسى منحة من هذا القبيل أثناء وجودى فى مجلسه .. وكان الكتاب الذى قدمه منحة يتضمن قصة بديعة أسماها « أميرة بابل » .. وقد وضعها فى ثلاثة أيام فقط !

« سجق » من بولونيا .. لفولتير !

تناولت غدائى فى اليوم التالى على مائدة « فولتير » ، وكانت هذه المائدة مبسوطة دائما لكل ضيف . ولم يشاطرنا الكاتب الكبير الغداء ، ولكن مدام دنيس ــ ابنة أخته ــ استطاعت أن تسد الفراغ الذى تركه .. فقد كانت موفورة الذوق واللباقة والذكاء . وما لبث « فولتير » أن ظهر فى « الصالون » حوالى الساعة الخامسة مساء ، وفى يده رسالة ، وبادرنى قائلا :

ــ أتعرف المركيز أليبرجانى كاباشيللى ؟ .. لقد أرسل لى نسخة من مسرحيات جولدونى ، وقدرا من « سجق » بولونيا ، وترجمة بالإيطالية لمسرحية « تانكريد » التى وضعتها منذ عهد قريب ! .. هل تعرف جولدونى ؟

فقلت : « إنه موليير إيطاليا ! .. على أنه لا يجيد شيئا سوى تأليف مسرحيات فكاهية جيدة .. وفيما عدا هذا فهو .. لا شىء ! »

وبقيت بقية ذلك اليوم فى صحبة « فولتير » ، فعرفنى براهب يسوعى

يدعى « آدم » . ولم ينس أن يهمس فى أذنى وقد ألحت عليه روحه الساخرة : « ولكنه ليس الرجل الأول ! » .

وعلمت أن « فولتير » كان يأنس إلى ذلك الراهب ، وأنه كان يلعب معه « الضامة » .. وكان إذا انهزم فى اللعب ، أفرغ قطع اللعبة على رأس الرجل !

« فولتير » .. يدافع عن حرية الشعوب !

وكنت أطمع فى أن أقضى وقتا طيبا مع الفيلسوف الكبير فى اليوم التالى ، ولكننى ألفيته فى أسوأ طباعه ، فكان لاذع السخرية ، شرسا !.. ومع أنه كان يعرف أننى راحل عن (جينيف) فى اليوم التالى ، إلا أنه لم يشأ أن يعفينى من تهكمه وسوء طباعه فى ذلك اليوم . فقد أخذنا نتحدث عن الأدب والشعر والفلسفة فى مختلف الأمم والعصور ، وإذا بنا نتطرق إلى ذكر « هوراس » — بطل مسرحية كورنى المشهورة بهذا الاسم — فقال :

— لو أنه انبرى لمكافحة أخطبوط الوهم والخرافة ، كما فعلت أنا ، لأصبحت آراؤه وأقواله صالحة لكل أمة وبلد فى الدنيا !

ووجدتنى أقول له : « خليق بك أن تعفى نفسك من عناء الصراع ضد شيء لن تقوى على القضاء عليه ! »

— بل خليق بى أن أمضى فى الصراع حتى نهاية الأجل . فإذا لم أوفق ، فسوف يأتى غيرى يتمم العمل بعدى ، ويظل لى الفخر لأننى كنت الأول فى السعى !

ومضى يصور الوهم والخرافة فى صورة الوحش الذى ينهش كيان الإنسانية ، وصاح : « إن الوهم والخرافة لا يمكن أن يسيرا مع الحرية جنبا إلى

جنب . أفترى أن الاستعباد يمكن أن يحقق السعادة للناس ؟ » .

وراق لى أن أستدرجه فى الحديث ليفضفض بآرائه ، فقلت له : « إذن فأنت تصبو إلى تحقيق سيادة الشعب .. إذ أن حريته وخلاصه من الاستعباد معناهما تغلب الشعب على خرافة سيادة سواه عليه ، فى رأيك ؟ » .

ـــ إننا نختلف فى معنى السيادة .. فأنا أرى أنه لا بد للعامة من ملك يحكمهم !

وكان « فولتير » قد تقاضى يوما معاشا من ملك فرنسا ، جعله يميل إلى مداهنة الملوك فيما يبدو ، فقلت : « فى هذه الحال تغدو الخرافة ضرورية ، لأنها هى التى تغرى الناس على أن يسلموا حكمهم إلى إنسان مثلهم يجعلونه ملكا ! » . وكأنما فطن إلى ما كنت أرمى إليه ، فقال : « لا تتحدث عن الملوك !.. إن هذا الاسم يوحى بالاستبداد الذى أكرهه كراهيتى للاستعباد .. إنما أريد « عاهلا » يحكم شعبا حرا ، ويرتبط مع هذا الشعب بمواثيق متبادلة ، تحول دون انحرافه إلى الاستبداد ! » .

القوانين التى يضعها الشعب .. هى التى تقيده !

ورأيت أن أمضى فى استثارته فقلت : « ولكن إديسون ـــ وهو كما تعلم من خير فلاسفة الحكم ـــ يرى أن وجود مثل هذا العاهل أمر مستحيل ، وإذا كان الشعب مسوقا لأن يختار بين أمرين كلاهما شر ، فأظنك تسلم بأن من الخير أن يختار أهون الشرين . إن الأمة التى تتحرر من الخرافة والوهم تصبح أمة فلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون الطاعة ، فى حين أن الحكم لا يستقيم بغير الطاعة .. لهذا أرى أن لا سعادة لشعب ما لم يتسن للحاكم إخضاعه وكبح

جماحه ! » .

وصاح فولتير مستنكرا : « هذا فظيع !.. أوَتزعم بعد هذا أنك من الشعب ؟.. لو أنك قرأت مؤلفاتى ... » . فقاطعته قائلا :

ـــ قرأتها مرارا ، لا سيما تلك الآراء التى أختلف معك بشأنها . إن العاطفة التى تستبد بك هى حبك للإنسانية ، وهذا الحب يعميك !.. إن لك أن تحب الإنسانية ، ولكن .. كما هى الآن ! فالإنسانية لا تشعر بالخيرات التى تريد أن تغدقها عليها ، ومن ثم فإن هذه الخيرات لن تزيدها سوى شقاء وضلال !.. إن الإنسانية تحب ذلك الوحش الذى ينهشها .. وحش الخنوع للملوك والحكام . ألا تذكر كيف ثار العبيد على « دون كيشوت » حين أشفق عليهم مما كانوا يلقونه من ظلم وأراد أن يحررهم ؟!

ـــ يؤسفنى أن تسيء الظن بأبناء جنسك إلى هذا الحد . هل ترى أنكم تنعمون بالحرية فى جمهورية البندقية ؟

ـــ إننا ننعم منها بالقدر الذى يرتجى من حكومة أرستقراطية ، فلسنا أحرارا بالمعنى المطلق ، ولكننا قانعون بما نستمتع به !

فقال فولتير يعيرنى ويذكرنى بما عانيته فى وطنى : « وهل ظللت قانعا بعد أن زجوا بك فى سجن ديوان التفتيش ؟ »

ـــ إننى أقر بأن سجنى كان استبدادا ، ولكننى فى الوقت ذاته أعترف بأننى أسأت استغلال حريتى ..

ـــ ومع ذلك فقد عمدت إلى الفرار !

ـــ كنت أتصرف فى نطاق حقوقى ، كما تصرفت الحكومة فى نطاق حقوقها !

ـــ إن الرأى الفاصل عندى هو هذا : أتح للشعب ـــ فى كل مكان ـــ أن

يضع قوانينه بنفسه أولا ، ثم قيده بهذه القوانين ، فلا تعتبر القيود إذ ذاك حدا من حريته !

ونهض « فولتير » منصرفا إلى مخدعه ، فانصرفت بدورى وأنا آسف ، إذ شعرت بأننى قد هبطت بهذا الفيلسوف من جنون العبقرية إلى واقعية العقل ! وفى اليوم التالى ، رحلت ميمما شطر الجنوب .

آراء امرأة .. تفتن كازانوفا !

طفت فى رحلتى بكل من : (أفنيون) و (مارسيليا) و (نيس) و (جنوا) و (بيزا) .. ومكثت فترة فى هذه الأخيرة ، فتعرفت إلى إنجليزى باع لى عربته ، وقدمنى إلى شاعرة كانت تحظى إذ ذاك بصيت كبير .. تلك هى « كوريللا » ، التى ناقشتنى فى كثير من الموضوعات ، فلم يفتننى جمالها ، بقدر ما فتنتنى آراؤها ! وعندما وصلت إلى (فلورنسا) استأجرت حوذيا للعربة وخادما لى ، وألبستهما الزى الأزرق والأحمر الذى كان يرتديه خُدام أبى الروحى « براجادان » .. إذ تسلمت مبلغا كان هذا السيد الكريم قد أرسله لى عن طريق صديق له هناك . وفى مساء يوم وصولى ، ذهبت إلى دار « الأوبرا » . ولك أن تتصور مدى دهشتى واغتباطى ، حين تبينت أن المغنية لم تكن سوى « تيريزا » .. الفتاة التى كانت تسافر مع أمها وأخويها ، وهى متنكرة فى زى غلام ، والتى التقيت بها فى سنة ١٧٤٤ فكشفت سر أنوثتها ، وكانت لى معها مغامرة سعيدة ، حتى أننى كدت أتزوجها لو لم أعتقل فى (بينسارو) .. أتذكر هذه الأحداث يا عزيزى القارئ ؟

كازانوفا لا ينسى مغامراته قط !

ولم أكن قد رأيت « تيريزا » منذ سبع عشرة سنة ، ولكنها بدت لى أجمل من ذى قبل . وما أن انتهت من أغنيتها ، حتى رفعت رأسها تحيى رواد المقصورات .. ورأيت بصرها يعلق بى ، فلا يتحول عنى . حتى إذا همت بمغادرة المسرح ، أشارت لى بمروحتها ، فغادرت مكانى وقد راح قلبى يدق فى عنف ، ثم تسللت إلى ما وراء « الكواليس » ، حيث وجدتها واقفة فى انتظارى على قمة سلم صغير .. ووقف كل منا يحدق فى الآخر فى صمت ، لبضع لحظات ، ثم تناولت يدها فوضعتها على قلبى !.. وقلت : « هل تلمسين مدى شعورى ؟ » فقالت : « لقد خيل إلىّ عندما رأيتك لأول وهلة أننى سأقع فاقدة الرشد على المسرح !.. إننى لسوء الحظ مدعوة للعشاء الليلة ولكننى أعرف أن النوم لن يزور جفونى ، وأننى سأقضى بقية ليلى مسهدة !.. تعال إلى دارى فى الثامنة من صباح غد .. أين تقيم ؟.. وتحت أى اسم نزلت فى المدينة ؟.. ومنذ متى جئت ؟.. وإلى متى ستمكث ؟.. وهل تزوجت ؟!.. اللعنة ، إنهم ينادوننى .. فإلى الغد ! » .

زوج الحبيبة القديمة .. مفلس وعاطل !

وتذكرت ــ بعد أن عدت إلى مقعدى ــ أنها لم تذكر لى الاسم الذى اتخذته فى حياتها الجديدة ، ولا عنوان دارها ، فالتفت إلى شاب كان يجلس بجوارى ، وسألته عن المغنية التى قامت بالدور الأول ، فرمقنى الشاب فى

عجب ، ثم قال : « آه ، يبدو أنك غريب عن فلورنسا ، وإلا لكان جهلك مشينا .. إنها تحمل اسمى يا سيدى ، فهى زوجتى .. وأنا أدعى « سيريللو باليس » .. فى خدمتك ! » .

وبهت للمفاجأة ! ولكننى أسرعت أتمالك نفسى ، وانحنيت تحية له ، ولم أشأ أن أسأله عن عنوانه ، خشية أن يرى فى الأمر ما يسوؤه . على أننى وجدت نفسى نهبا لألف خاطر وشعور .. إذن فقد تزوجت تيريزا ؟.. ولقد كان زوجها شابا مليحا .. لكم كنت غبيا إذ قنعت بالمغامرات ، وهذه الحياة التى لا تستقر يوما ، وتركت « تيريزا » تفلت من حياتى !

وفيما كنت أبرح « الأوبرا » ، علمت من أحد الخدم أن فاتنتى تزوجت منذ عشرة شهور فقط ، وأن زوجها معدم ، لا يملك ثروة ولا عملا .. وأردف الخادم حين أحس بقطعة النقود التى دسستها فى يده : « ولكنها واسعة الثراء .. إن ثروتها تكفيها وتكفيه . كما أن لها سمعة تكفل لها الاحترام فى كل مكان ، فلا تدع الظنون تراودك بعد إذ علمت أنها زوجة لعاطل فقير ! » .

على أننى استطعت أن أعرف منه عنوانها .. رغم ذلك !

« الأب » .. السعيد أبدا !

لم تكد الساعة تعلن الثامنة من الصباح التالى ، حتى كنت أقف أمام دار أول امرأة أحببتها حبا حقيقيا .. وفتحت لى الباب خادم عجوز ، لم أكد أذكر لها اسمى حتى دعتنى للدخول قائلة إن مولاتها ترتقب مقدمى ! وسرعان ما أقبل الزوج الشاب ، وهو بعد فى ثياب النوم ، فحيانى فى أدب ، وذكر لى أن زوجته لن تلبث أن تهبط ، ثم سدد بصره إلى وجهى وهو يقول : « إنك

بالتأكيد ذلك السيد الذى سألنى عن اسم زوجتى فى الليلة الماضية » .
فأجبت : « هذا حق يا سيدى ، فأنا لم أرها منذ سنوات بعيدة ، ولم أكن أعرف أنها تزوجت .. وكان من حسن المصادفات أن أول شخص سألته عنها هو زوجها . وإذا سمحت لى ، فلسوف يسعدنى أن أبسط لك نفس الود الذى أكنه لها ! » .

وهنا أقبلت « تيريزا » ، ففتحت ذراعيها ، وتعانقنا طويلا كعاشقين طال بهما الفراق . ثم جلست إلى جانبى وهى تبكى لفرط المشاعر التى تملكتها .. وكنت أنا الآخر أبكى ، بينما كان زوجها يرمقنا فى عجب . والواقع أننا لم نفطن إلى وجوده إلا بعد أن هدأت عواطفنا ، وإذ ذاك انفجرنا ضاحكين ، ثم هتفت « تيريزا » لزوجها ببراعة المرأة القديرة على السيطرة عليه :

ـــ إنك ترى أمامك يا عزيزى رجلا كان لى بمثابة الأب بل أكثر من الأب ! فأنا مدينة لهذا السيد الكريم بكل ما أنا فيه .. أواه ، يا للساعة السعيدة التى جمعتنى به بعد هذه السنوات الطوال !

واتسعت مقلتا الزوج ، وعاد يتفرس فى وجهى . فقد أذهله أن تصفنى زوجته بكلمة « أب » فى حين أننى لم أكن أكبرها بأكثر من عامين ، ورأيت أن أوضح له الموقف ، فقلت :

ـــ أجل يا سيدى ، إن زوجتك تيريزا ابنتى وأختى وأعز صديقة لى .. إنها ملاكى وكنزى ، وإن كانت زوجتك !

والتفت إلى تيريزا معتذرا لعدم ردى على آخر رسالة بعثت بها إلىّ ، فقالت : « إننى أعرف السبب ، فقد سجنوك فى سجن القصدير على ما علمت .. ولقد سمعت فى (فيينا) عن مغامرة الفرار الرائعة .. وسمعت الناس يرددونها فى إعجاب فى فرنسا وهولندا . ولم أفقد الأثر الذى كنت أتتبع به

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنباءك إلا أخيرا . إنك ستدهش إذا رويت لك ما صادفت خلال السنوات العشر الأخيرة ، على أنني الآن فى أقصى مراتب السعادة .. وقد تزوجت من عزيزى « باليس » منذ وقت قصير ، وهو رومانى أصيل .. وكل منا يحب الآخر حبا جما ، وآمل أن تصبحا صديقين ! » .

.. فى غياب الزوج !

ونهضت إلى « باليس » فعانقته وهو محرج ، مرتبك ، يشعر بالحيرة من أمر هذا الرجل الذى كان أبا وأخا وصديقا — وربما عشيقا — لزوجته !.. على أنه ما لبث أن تمالك نفسه بعض الشىء ، وتحول يدعونى إلى أن أتناول قدحا من « الكاكاو » معه ومع زوجته ، فلما قبلت الدعوة ، غادر الغرفة ليأمر بإعداد « الكاكاو » ، فما أن غاب عن أبصارنا ، حتى ارتمت « تيريزا » فى أحضانى ، وهى تهتف لى :

— أواه يا حبيبى العزيز ، يا من أيقظت قلبى فخفق بالحب للمرة الأولى !.. ألا ضمنى إلى صدرك ، واضغطنى إلى قلبك !.. ولنكن غدا أخا وأختا ، أما اليوم فلنكن حبيبين ! لا تحسب أننى أبغى أن أخدع زوجى ، فأنا لا أزال أهواه ، ولكننى مدينة لك .. مدينة بحبى الأول ، فمن حقك علىّ أن أسدد دينى !.. ولكن ، مالى أراك حزينا ؟

— لأننى أجدك مقيدة بينما أنا طليق !.. لقد وصلت متأخرا ، ولكن ثقى أن إرادتك ستظل قانونا أخضع له ، فحدثينى عما تبغين أن أفعل . أفتريدين ألا أشير إلى الماضى فى حديثى أمام زوجك ؟

— أجل ، فهو لا يعرف من شئونى أكثر مما يعرفه كل إنسان من أننى نلت

حظا وثروة وشهرة فى (ميلان) ، التى زعمت أننى رحلت إليها وأنا فى العاشرة من عمرى . إنها أكذوبة بريئة لا تؤذى أحدا !.. ثم أن الكل يعرف أننى فى الرابعة والعشرين ، أفتظننى أكبر من ذلك سنا ؟

— إنك لا تبدين أكبر من ذلك بيوم واحد ، وإن كنت أعرف أنك فى الثانية والثلاثين !

— بل فى الحادية والثلاثين ، فقد كنت فى الرابعة عشرة عندما التقيت بك !

— بل يخيل إلى أنك كنت فى الخامسة عشرة !

وكان الجدال طريفا ، فكأننا طفلان يتشاوران فى عبث مدلل . وأخيرا قالت الحبيبة الفاتنة : « حسنا .. فليكن ما تقول ، على أن يبقى هذا الأمر سرا بيننا .. ولكن نبئنى : هل ترانى أبدو فى سن تزيد على الرابعة والعشرين ؟ »

— بل إنك تبدين أصغر من ذلك .

— والآن ، صارحنى يا حبيبى كازانوفا : أفأنت بحاجة إلى نقود ؟.. إننى فى مركز يسمح لى بأن أرد إليك ما منحتنى من قبل ، مع الفوائد !.. إننى أملك خمسين ألف دينار ذهبى فى (نابولى) ، وماسات بمثل هذه القيمة !.. قل ، وعجل ، فإن « الكاكاو » لن يلبث أن يصل !

وكنت أوشك أن ألقى نفسى على صدرها مرة أخرى ، حين أقبل زوجها تتبعه خادم تحمل صفحة فضية عليها ثلاثة أقداح

« كازانوفا » يجد له ابنا !

وفيما كنا نحتسى « الكاكاو » ، أشار « باليس » ــ مترفقا ــ إلى دهشته عندما تبين أن زائرهما لم يكن سوى نفس الشخص الذى سأله فى الليلة السالفة عن اسم زوجته فى دار الأوبرا .. وكان من الواضح أن أدبه منعه من أن يسألنى فى صراحة عن ظروف معرفتى السابقة بزوجته !.. وكان شابا فى الثالثة والعشرين ، أوتى من الجمال أكثر مما يناسب الرجل . كما كان مرحا ، حلو المعشر ، فلم يكن فى وسعى أن أكرهه .. ولو أردت ! وعندما كانت الساعة العاشرة ، أقبل ممثلو وممثلات « الأوبرا » ليقوموا بتجربة للعرض الذى كانوا يزمعون أن يقدموه فى المساء ، فأكرمت « تيريزا » وفادتهم ، ولاحظت أنها كانت تتمتع بينهم بمكانة عظيمة الاحترام . وتخلفت منهم فتاتان جميلتان تناولتا الغداء معنا ، إحداهما تدعى « ريريجوندا » والأخرى « كورتيشيللى » . وكانت الثانية أكثر فتنة من الأولى ، ولكننى كنت مبهورا بجمال « تيريزا » الذى أعشى عينى عن أن تتبينا سواه !

وأقبل ــ بعد الغداء ــ راهب كان صورة حية للنفاق . وفيما كان يجلس إلى جوار « تيريزا » ، تبينت أنه الأب « جاما » الذى تعرفت إليه من قبل فى (روما) .. وعرفنى هو الآخر ، فعانقنى ، وأخذ يروى لى أنباء الأصدقاء . وبينما كنت مستغرقا فى الإنصات إليه ، دلف إلى الغرفة فتى فى حوالى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، فحيانا وقبل « تيريزا » .. وبدا أن الحضور عرفوه فيما عداى ، وإن لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى تولاه العجب لمرآه . وكأنما لاحظت « تيريزا » ذلك ، فبادرت تقدمه لى قائلة : « هذا

أخى !» .

ولكن هذا التفسير لم يبدد الدهشة ، فقد كان « أخوها » هذا صورة طبق الأصل منى ، وإن كانت بشرته أكثر بياضا .. ولم يكن من الغريب أن أعرف الفتى فى الحال ، فإن الطبيعة صاغته بحيث كان من غير المعقول أن لا أعرفه ، اللهم إلا إذا كنت أعمى !.. أجل ، لم يكن من الغريب أن أدرك لفورى أن « أخاها » ليس سوى .. « ابنها » .. وابنى أنا الآخر !..

ثمرة المغامرة التى كدت أتزوج « تيريزا » وأنا منتش بعذوبتها ، فى لقائنا الأول !

وبدا لى أنه كان من الخليق بها أن تدبر مثل هذا اللقاء ، فى غير حضور كل هؤلاء الأفراد . وحاولت أن أتصيد نظراتها ، وأن أستلفت انتباهها ، ولكنها كانت تتفادى نظراتى ، بينما راح الفتى يتأملنى متفرسا ، غير منصت إلى ما كانت تقوله له من حديث . وأخذت نظرات الحضور تنتقل بين وجهى ووجهه . كان من الواضح لكل من أوتى ذرة من العقل ، أن الفتى ابنى ! وكان يجيد لهجة أهل (نابولى) ، ولكنه كان يتكلم الإيطالية بفصاحة كذلك .. وكان ملما بآداب الحديث ، لبقا . كما كان مسلكه بديعا .. وقالت أمه إن الموسيقى هى الهواية التى تملك عليه لبه ، وإنه يجيد العزف على « البيانو » الصغير ، حتى ليبزها .. واستطردت فى بساطة : « أجل .. إنه يتفوق علىّ رغم أنه يصغرنى بثمانية أعوام ! » .

ألا ما أبرع النساء فى التخلص من أحرج المآزق !.. فلقد بدا فارق السن بين « تيريزا » وبين الفتى كافيا لأن يصرف أذهان الحضور عن التفكير فى أنه كان صورة منى .. ولعل أذهانهم اتجهت إلى علاقة أمها بى !.. والمهم فى الأمر ، أنها نقلتنا بهذا الحديث إلى الموسيقى ، فصرفت الأذهان تماما عن الموضوع !

« دع لى ابنى ! »

وما أن أتيح لى أن أخلو إلى « تيريزا » ، حتى هنأتها بأخيها ، فقالت :

ـــ إنه ابنك ، وبهجة حياتى ، وقد رباه دوق « كاسترو بنياتو » ، فلعلك تذكر أنه رعانى وتبنانى بعد فراقنا .. فما أن ولد الفتى حتى أرسله إلى (سورنيتو) حيث عمد باسم « سيزار فيليب لانتى » .. ومكث الصغير فى (سورنيتو) حتى بلغ التاسعة . وقد نشأ على أننى أخته ، ولكننى أتطلع دائما فى أمل إلى أن نلتقى ثانية ـــ أنا وأنت ـــ فتعترف بنسبه إليك ، وتتزوج من أمه .

ـــ ولكنك جعلت هذه الأمنية عزيزة المنال ، إذ تزوجت !

ـــ أجل .. واأسفاه ! هكذا أراد القدر !.. لقد ضممت الفتى إلىّ عندما مات الدوق ، وهجرت (نابولى) .. إن ابنك يمتلك عشرين ألف دينار ذهبى ، كما أنه سيرث كل ما أملك إذا أنا لم أرزق من « باليس » بولد !

وقادتنى إلى غرفة نومها ، حيث أطلعتنى على خزانة بها بعض الماسات واللآلئ والجواهر الثمينة ، فضلا عن طائفة من الصحاف الفضية ، تمثل الشطر الأكبر من ثروتها .

وقلت لها ضارعا : « أسلمينى سيزارينو ـــ فهكذا أحببت أن أدلله ـــ ولسوف أريه الدنيا بأسرها »

ـــ آه ، لا .. سلنى كل حياتى ، ولكن دع لى ولدى . هل تتصور أننى لم أقبله قط ، خشية أن ينم وجدى عن حقيقة علاقتى به !.. أرأيت إلى أى حد أذهب فى الحذر ؟ فماذا تظن الناس قائلين إذا رأوا « كازانوفا » يرافق صورته

الحية .. صورته كما كان منذ عشرين عاما ؟

ــ وهل ستأخذينه معك إلى البندقية عند افتتاح موسم الأوبرا هناك ؟

ــ أجل .. ولكن ، إلى أين تراك تقصد عند رحيلك من هنا ؟

ــ سأذهب إلى روما ، ثم إلى نابولى حيث أزور دوق مانتالونيا .

« كورتشيللى » .. الفاتنة الصغيرة !

وكان ذلك اليوم أسعد أيام حياتى ــ رغم كثرة الأيام السعيدة التى صادفتها ! ــ لا سيما حين جلس سيزارينو إلى البيانو يعزف ، مرسلا صوته بأغانى نابولى ، فأطربنا : أنا وتيريزا وزوجها . وكانت تيريزا لا ترفع عينيها عنه ، إلا لتصوبهما إلىّ . على أنها كانت من وقت إلى آخر تتذكر زوجها ، فترمقه فى لطف ، وتقول : « لا سعادة إلا فى صحبة الأحباء » ! ودعوت جميع أصدقائى فى فلورنسا إلى مأدبة فخمة أقمتها فى الفندق الذى كنت أنزل فيه .
وكانت « كورتشيللى » الحسناء ــ التى سبق أن ذكرتها ــ أول الوافدين ، تصحبها أمها وأخوها . وصارحتنى الأم العجوز قائلة : « إننى لا أسمح لابنتى قط بأن تحضر مأدبة وحدها ، بل لا بد أن أصحبها مع شقيقها ! » .. وغاظنى قولها ، ولكننى كنت خبيرا بهذا الصنف من الأمهات ، فقلت لها : « تستطيعين أن تنصرفى بها توا .. أو خذى هذا الدينار الذهبى وانصرفى مع ابنك ، لأننى لا أريدكما ! » .. وتناولت العجوز الدينار ، وانصرفت فى الحال قائلة إنها جد مطمئنة إلى أن ابنتها بين يدين أمينتين !..

وأخذت الفتاة تعلق على تصرف أمها ــ بمجرد أن ولت عنا ــ بنكات لاذعة أضحكتنى وجعلتنى أستملحها وأميل إليها . ولم تكن قد تجاوزت

الثالثة عشرة ، صغيرة الجسم نحيلة ، إلى درجة توهم الرائى بأنها لم تبلغ العاشرة ، ومع ذلك فقد قضيت معها ــ بعد المأدبة ــ فترة هانئة .. إذ كانت لطيفة المعشر حاضرة البديهة ، ذكية ، خفيفة الدم والحركة !

يطرد من فلورنسا .. جزاء المعروف !

وتلقيت ذات يوم رسالة من بيستويا ، من شخص يدعى (يوانوف) ، يسألنى أن أسدى إليه جميلا بأن أحصل له على قيمة سند مالى كان محولا على مصرفى فى فلورنسا ، لأنه لا يستطيع الحضور بنفسه إلى فلورنسا .. فقد نفد ماله وكان صاحب الفندق الذى كان ينزل فيه يخشى أن يهرب من دفع قيمة ما كان مدينا له به ، إذا هو رحل عن (بيستويا) .. ودفعتنى النخوة إلى أن ألبى رجاءه ، فحملت السند المالى إلى المصرفى ــ وكان يدعى السنيور « ساسو ــ ساسى » ــ وتسلمت منه المبلغ ثم رحلت إلى (بيستويا) حيث أسلمته للرجل الروسى ، وعدت إلى فلورنسا .

وما أظن أن بوسعك أن تتصور دهشتى حين استقبلت المصرفى فى فندقى بعد أيام ، وقد جاء يزورنى ، ويفضى إلىّ بأن السند المالى كان مزورا ، وأنه يعتبرنى مسئولا عن المبلغ الذى دفعه ، وأخذ يطالبنى بمائتى دينار ذهبى !.. ورفضت أن أدفع درهما واحدا بطبيعة الحال . وكان من جراء ذلك أننى تلقيت فى اليوم التالى دعوة من مدير البوليس ، فلبيتها فورا . وكان المدير غاية فى الأدب واللطف ، ولكنه أصر على أن لا مفر من دفع المبلغ . فلما تشبثت بالرفض ، قال مدير البوليس إنه مضطر فى هذه الحالة إلى أن ينذرنى بمغادرة فلورنسا خلال ثلاثة أيام وبمبارحة مقاطعة (توسكانيا) فى ستة أيام ، ولا

سبيل لى إلى العودة إلا إذا رفعت الأمر إلى الدوق الأكبر — الحاكم — وقضى بأن الحق فى جانبى !.. وسألنى المدير أن أكتب تعهدا بذلك — كما كان القانون يحتم — فكتبت : « إننى أحنى الرأس احتراما لقرارك ، لكن هذه المسألة لن تنتهى هنا » ! وودعت « تيريزا » فى حرارة لا بد أنها وخزت قلب زوجها المسكين .. وسرعان ما رحلت ، فإن هى إلا ست وثلاثون ساعة ، حتى كنت فى (روما) .

كازانوفا .. المشغوف بالراحة !

وكان بين خطابات التوصية التى أحملها ، خطاب للكاردينال « باسيونى » — الذى كان سكرتيرا للبابا — فلما حملته إليه ، أعرب لى عن رغبته فى أن يسمع من بين شفتى قصة فرارى من السجن .. فقلت : « إن القصة جد طويلة يا صاحب الغبطة » . ولكنه قال : « هذا أفضل .. فقد بلغنى أنك راوية مبدع » .

— ولكن ، لا مفر من أن أجلس على الأرض يا صاحب القداسة ، ريثما أقص ما جرى !

ذلك أننى لم أجد فى الغرفة أى مقعد . وأمر الكاردينال أحد خدمه فأحضر لى مقعدا منخفضا ، لا مسند له ، مما أثارنى وجعلنى أوجز فى القصة ، وأرويها دون تنميق . فقال الكاردينال : « إنك لست من البراعة فى الحديث كما بلغنى » .

فأجبت : « الحق أننى لا أجيد الحديث إلا إذا كنت مستريحا فى جلستى »

— أوَلست مستريحا فى جلستك هذه ؟

ــ لا يا صاحب الغبطة .. إن أى إنسان ــ وبوجه خاص أى مثقف ــ لا يستطيع أن يثير غيظى قدر ما فعل هذا المقعد !

ــ يبدو لى أنك مشغوف بالراحة .. وعلى أية حال ، فإننى أرى أنك فى كتابتك أكثر بلاغة منك فى حديثك ، وأرى بهذه المناسبة أن أهديك نسخة من الرثاء الذى كتبته فى الأمير « يوجين » ، ولعلك لا تجد فى أسلوبى اللاتينى أى منفذ للنقد،وما لبث الكاردينال أن أفضى إلىّ بأن قداسة البابا سيستقبلنى فى الساعة العاشرة من اليوم التالى ، فلما عدت إلى مكتب الكاردينال فى ذلك الموعد حملت إليه نسخة قيمة من كتاب جليل ، عتيق ، طامعا بذلك فى أن أكسب وده !

فى حضرة قداسة البابا

وكنت قد عرفت قداسة البابا عندما كنت أسقفا لمدينة (بادوا) ، فلما قبلت الصليب المنقوش عند قدمه ، ألقى راحته على كتفى ، وذكرنى بأننى كنت أغادر القداسات التى كان يعقدها فى (بادوا) بمجرد شروعه فى تلاوة التسابيح الدينية ، فقلت له : « إن لى ، يا أقدس أب ، ذنوبا أسوأ من هذا وأكثر ثقلا على ضميرى .. ومن أجل هذا سعيت لأركع عند قدميك ، ملتمسا المغفرة ! » .

وباركنى قداسته ، ثم سألنى عما يستطيع أن يؤديه لى ، فقلت : « اشفع لى فى العودة إلى البندقية » . فقال قداسته : « سنتحدث فى ذلك إلى السفير ، وننبئك بالنتيجة .. ألست تزور الكاردينال باسيونى ؟ » .. فرويت له كيف أهدانى رثاءه للأمير « يوجين » ، وكيف أهديته بدورى نسخة قيمة من كتاب

عتيق ، فقال : « لسوف يرسل إليك الأب وينكلمان يسألك ثمن الكتاب » .

ــ ولكنى لست بائع كتب ، ولن أقبل أن أتقاضى ثمن الكتاب .

ــ إذن فسوف يرده إليك .. إننا نعرف أخلاقه .

ــ فى هذه الحال سوف أرد إليه مرثاته !

وضحك قداسة البابا طويلا ، ثم قال : « يسرنا أن نعرف ما ينتهى إليه هذا الموضوع ، دون أن يدرك أحد سوانا بهذا الفضول الذى يتملكنى ! » وفيما كنت منصرفا ، فطنت إلى راهب متقدم فى السن يتبعنى ، حتى إذا لحق بى ، سألنى عما إذا كنت السنيور « كازانوفا » الذى هرب يوما من سجن ديوان التفتيش .. وأجبته بالتأكيد ، فهتف : « الحمد لله الذى أراك ثانية فى صحة جيدة .. ألم تعرفنى ؟.. إننى مومولو ، الملاح البندقى الذى كثيرا ما أقلك فى جندوله » .

ــ وهل أصبحت راهبا ؟

ــ لا ، ولكن المسوح لباس كل امرئ هنا .. إننى رئيس الكناسين الذين فى خدمة قداسة البابا !

كازانوفا .. « صاحب الكرامة » !

وزارنى الأب « وينكلمان ، فأزجى إلى أننى نلت رضاء الكاردينال باسيونى ، بسبب ذلك الكتاب النادر ، الثمين . ثم أردف قائلا إن الكاردينال يحب أن يعرف بكم هو مدين لى ، فأجبت : « بلا شىء ، فأنا لست بائع كتب .. لقد قدمت الكتاب هدية » .

ــ إذن فسيرده صاحب الغبطة إليك .

ـــ له الحرية فى ذلك ، إذا هو شاء ، ولكنه إذا فعل فسأجدنى مضطرا إلى أن أرد إليه المرثاة التى أهدانيها . إذ أننى لا أقبل هدية من لا يقبل هديتى !

وفى اليوم التالى ، تلقيت كتابى ، فرددت المرثاة !

ولما كان شقيقى « جون » يقيم فى (روما) ، فقد اصطحبته فى ذلك المساء لزيارة « مومولو » فى داره . وكانت له زوجة عجوز ، وأربع بنات تبلغ كبراهن الرابعة والعشرين ، وولدان قبيحا الشكل ، وأصر « مومولو » على أن نتناول العشاء مع الأسرة ، فأوفدت أدعو تابعى « كوستا » إلى أن يحضر ست قنينات من النبيذ . وإذ لمحت إعجاب البنات الأربع بكوستا ، سألته أن يبقى معنا .

وإذ جلسنا إلى المائدة الكبيرة التى ضمتنا جميعا ، سمعنا طرقات على الباب ، فبدا الامتعاض على البنات ، وقالت إحداهن : « هذه ماريا وأمها !.. من الذى دعاهما للحضور » وفتح الباب ، ودخلت امرأة مسنة ، وفتاة غاية فى الجمال .

مجنون .. وامرأة فاتنة !

نهض « مومولو » الطيب ـــ الملاح ـــ فأعد مقعدين للقادمتين اللتين بدا عليهما الحياء والارتباك .. وكان المقعدان بين مجلسى ومجلس أخى .. وتطلعت إلى « ماريا » فإذا بها فاتنة !

وقبل أن تنقضى ساعة ، كنا قد انتهينا من العشاء ، وأخذنا نتحدث عن « اليانصيب » العام الذى كان يجرى سنويا فى (فلورنسا) ، فقالت « ماريا » الحسناء إنها لو كانت تملك مالا ، لأنفقت جزءا منه على الرقم « ٢٧ » فى

« اليانصيب » .

فما كان منى إلا أن دفعت إلى « مومولو » بأربعين دينارا ، وأنا أقول : « أنفق عشرين منها على الرقم ٢٧ ، على أن يكون الربح من نصيب بناتك الأربع والآنسة .. وأنفق العشرين الأخرى على نفس الرقم لحسابى » ولما انصرفنا ، قال أخى إننى كنت مجنونا بهذا التبذير ، ولكننى أجبته : « لا ، لست مجنونا .. ولكن ماريا فاتنة ! »

مع الفتاة التى تمنعها أمها من الاستحمام !

وفى اليوم التالى ، سعيت إلى المثول بين يدى البابا ، فقال لى : « إن سفير البندقية يطلب أن تقدم نفسك إلى سكرتير المحكمة العليا ، إذا شئت أن تعود إلى وطنك » ، فقلت : « إننى على استعداد لأن أفعل ذلك يا قداسة الأب إذا منحتنى خطاب توصية . وبغير ذلك لا أجسر على أن أعرض نفسى للسجن مرة أخرى ! » .

وحين سمع البابا ما كان بينى وبين الكاردينال « باسيونى » ، ضحك كثيرا ، فانتهزت الفرصة والتمست أن يسمح لى بأن أقدم الكتاب الأثرى الذى رفضه الكاردينال ، هدية لمكتبة الفاتيكان .. فباركنى مستجيبا لرجائى ، ثم قال : « سنرسل لك دليلا على عطفنا الخاص ! » .. ولكم تولانى الفضول لمعرفة هذا الدليل !

وفيما كنت أتناول غدائى فى ذلك اليوم ، علمت أن الرقم « ٢٧ » كان خامس الأرقام الرابحة فى « اليانصيب » .. وكان معنى ذلك أن كل من اختاره قد فاز بجائزة . فأسرعت إلى « مومولو » أحمل إليه النبأ ، فإذا بناته مكتئبات ،

لأننى كنت قد أهديت نصيبى لماريا .. على أننى لم أعجز عن التسرية عنهن ، وسرعان ما كنا نتناول العشاء ، وأقبلت « ماريا » كما فعلت فى الليلة السالفة ، فلم ألبث أن اختلست فرصة ، سألتها فيها أن تسمح لى بلقائها على حدة ، فوعدت بأن تقابلنى فى الساعة الثامنة من الصباح التالى ، أمام إحدى الكنائس .. وجاءت فى الموعد .. وما كان أروع منظرها !.. كانت طويلة القامة ، ذات بياض مشرب بحمرة الورد ، وشعر أسود ، وعينين زرقاوين .. وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها !

وبإشارة منها ، تبعتها دون أن أكلمها ، حتى بلغت مبنى كبيرا قديما متهدما ، فولجته وارتقت السلم وأنا فى أثرها ، حتى بلغت قمة السلم . ولم يكن حوله جدرانه ، فكأنه منتصب فى الهواء !.. وعلى الدرجة العليا جلسنا ، فبحت لها بحبى ، وقلت لها : « أخبرينى عما أستطيع أن أؤديه لك ، فإننى لا أبغى — قبل كل شىء — سوى إسعادك ! » .

وكان جوابها : « انشلنى من الشقاء الذى أعيش فيه مع أمى . فهى امرأة صالحة ، ولكنها تجعل حياتى عبئا ثقيلا يمضنى . إنها تأبى علىّ أن أستحم ، لأن هذا يمكننى من أن أمس جسدى بيدى ، كما أن النظافة تبرز جمالى للرجال !.. ولقد رآنى حلاق شاب فى إحدى زياراتى لأسرة مومولو ، فقال إنه على استعداد لأن يتزوجنى لو أنه وجد أربعمائة دينار ، يفتتح بها محلا لنفسه ، ولكننى لم أكن أملك سوى مائة يدخرها لى الراهب الذى أدلى إليه باعترافاتى .. وبعد المنحة التى قدمتها لى عن طريق « اليانصيب » ، أصبح لدى مائتا دينار ، فهل تمنحنى المائتين الباقية ؟.. إذا كنت تستطيع ، فأسلمها إلى الراهب حتى لا تعرف أمى .. وإلا ساورتها الريب فى الأمر ! » .

— لسوف أسلمها إليه اليوم ، على أن تزورينى غدا لأروى لك كيف

أثريت . فهل تقابلينني عند الكنيسة فى نفس موعد اليوم ؟

كازانوفا .. المندوب البابوى فوق العادة !

وإذ دقت الساعة مؤذنة بالتاسعة ، بارحنا أطلال القصر ، وقد جمدت أطرافى من البرد . ولكننى لم أحفل بشىء ، فلم يكن يشغل بالى سوى أن أعثر سريعا على مسكن أستطيع أن أستقبلها فيه ، دون أن يعرف أحد بالأمر . واستطعت أن أعثر على غرفة لا بأس بها فى شارع ضيق ، فى أحد الأحياء الفقيرة ، فدفعت لصاحبتها أجر ثلاثة أشهر مقدما ، لتستطيع أن تبتاع أثاثا لائقا ، ونقدتها مبلغا لتعد نارا للاستدفاء ، وتبقيها مشتعلة سواء كنت فى الغرفة أو لم أكن !.. ثم سعيت لفورى إلى الراهب الذى ذكرته لى « ماريا » ، وقدمت له المائتى دينار ، بعد أن شرحت له كيف عرفت ماريا . وأردفت قائلا : « لسوف أرحل بعد غد إلى نابولى ، فأرجو أن أجدها عند عودتى وقد تزوجت » .

وقال القس إنه عرف الفتاة منذ خمس سنوات ، وإنها من أطهر الفتيات . ووعدنى بأن يتحرى عن الحلاق الشاب ، فإذا اطمأن إلى صلاحيته لها ، بادر إلى عقد زواجهما .

ولم تحن الساعة الثامنة من الصباح التالى حتى كنت أمام الكنيسة ، فلما أقبلت « ماريا » ، أشرت إليها فتبعتنى إلى المسكن الذى استأجرته . وكانت بادية الارتباك ، والخجل ، والذلة ، فبادرت أطمئنها إلى أننى قد سويت لها أمر الزواج . وغادرتنى وهى تشكرنى من صميم فؤادها ، مؤكدة لى أنها رغم فقرها وثرائى — قد أحبتنى حبا خالصا ، مجردا من أية غاية !

وفى ذلك اليوم ، زارنى رسول من قداسة البابا ، يعلن إلىّ أنه قد أنعم علىّ بوسام « صليب فرسان المهماز الذهبى » ، وأسلمنى براءة الإنعام وعليها الخاتم البابوى . وقد تضمنت البراءة منحى « دكتوراه » فى القانون المدنى ، وتعيينى موفدا بابويا فوق العادة !

ولقد سول لى الغرور أن أبتاع صليبا مرصعا باليواقيت والماس ، ولكننى حين ذهبت لأقدم للبابا شكرى ، زينت صدرى بالصليب العادى الذى أرسله إلىّ !

رعاية من الزوج .. ونفور من الزوجة !

وفى اليوم التالى ، رحلت فى عربتى الأنيقة ، مصطحبا الأب « ألفانى » الذى أعرب عن رغبته فى أن يعمل سكرتيرا لى . وما أن بلغنا (نابولى) ، حتى وجدنا أهلها فى هياج وهرج ، إذ فوجئوا ببركان (فيزوف) يثور . ولكننى تمالكت هدوئى ، ويممت على الفور لزيارة دوق « ماتالونيا » ، الذى كنت قد تعرفت إليه فى « باريس » . ولم يكد الدوق يرانى ، حتى عانقنى وقدمنى إلى زوجته . وأنبأته بأننى ما قدمت إلى نابولى إلا لكى أراه ، فأصر على أن أنزل فى ضيافته ، وأرسل خادما لنقل متاعى من الفندق ..

ولم ينقض نصف ساعة حتى كنت مغمورا برعاية الدوق ، ولكن زوجته لم تعرنى اهتماما .. كانت جميلة ، ولكنها كانت جد متغطرسة . وقد قضيت يومين أحاول أن أستدرجها إلى محادثتى .

بنات روما يتنزهن فى العربات المغلقة !

وفى اليوم التالى اصطحبنى الدوق إلى القصر الملكى ، حيث حظيت بالمثول بين يدى الملك . وما لبثت أن عدت إلى (روما) ، فبادرت بإيفاد خادمى « كوستا » إلى صديقى الملاح الطيب « مومولو » ، لينبئه بأننى راغب فى تناول العشاء فى داره ، وأننى قد طلبت إلى طاه شهير أن يرسل إلى هناك عشاء لاثنى عشر شخصا . وكنت موقنا من أن « ماريا » الفاتنة ـــ التى كنت قد دفعت للراهب مائتى دينار كى يزوجها من خطيبها الحلاق ـــ ستكون بين الحضور !

وكانت أعياد « الكرنفال » قد بدأت ، فاستأجرت عربة فخمة ، مغلقة الجوانب ، لتكون تحت تصرفى أسبوعا ، إذ كان من التقاليد المستحبة لدى بنات روما أن يتنزهن فى العربات المغلقة ، فى طريق (كورسو) ، بين الساعة الثامنة مساء ومنتصف الليل ، خلال أيام الكرنفال !.. ولقد ظلت فترة الكرنفال ـــ على مر القرون ـــ فرصة للانطلاق وللجنون المباح . وكانت أغرب مناسباتها سباق الجياد ، إذ تنطلق الجياد الجامحة ـــ غير المروضة ـــ فى الطريق دون راكبين يسوسونها ، حتى تبلغ النصب الأثرى للإمبراطور « تراجان » .. وتصطف العربات ـــ أثناء السباق ـــ على جانبى الطريق ، كما تزخر الأرصفة بأبناء جميع الطبقات ، وقد أخفوا ملامحهم وراء الأقنعة . فإذا ما مرت الجياد ، انطلق الناس ركوبا أو مشاة إلى عرض الطريق ، وأخذوا يقذفون بعضهم بعضا بالحلوى اللذيذة ، أو الحلوى الزائفة ـــ التى يحشى بعضها بمواد غريبة ـــ أو بالورق ، أو بمختلف الأشياء التى تهيئها لهم المرح

النزق .. ومنهم من يتبادلون هذه الأشياء من فم إلى فم !.. كان للقوم الحق فى أن يرتكبوا كل الحماقات التى تحرم عليهم عادة . فإذا ما انتصف الليل ، انطلق مدفع قلعة « سانت إنجيلو » معلنا انتهاء فترة الإباحة ، ومؤذنا بإخلاء طريق (كورسو) ، فلا تكاد تنقضى خمس دقائق حتى يخلو الطريق من كل عربة ومن كل راجل ، ويسارع الجميع إلى المسارح ودار « الأوبرا » ، كما تزدحم المطاعم والمشارب بهواة الأكل والشرب !

أمير العشق .. يدبر زيجات لعشيقاته !

واستقبلنى « مومولو » وأسرته فى فرح وابتهاج . ولم أكد أستقر بينهم لبضع دقائق ، حتى أقبلت ماريا مع أمها المتدينة التى بادرتنى قائلة إن ابنتها لن تلبث أن تتزوج بعد ثلاثة أو أربعة أيام . وكان من الطبيعى أن أهنئها ، وأن أتساءل — متجاهلا — عن الرجل السعيد الذى قدر له أن يظفر بها ، فقالت الأم : « إنه شاب سيفتتح قريبا حانوتا للحلاقة . وقد تفضل الأب سانت بارنابى — قس الكنيسة — بتدبير أربعمائة دينار من رصيد خيرى تحت يده ، لتكون صداقا لماريا ! » .

وفى أثناء السهرة ، قلت لبنات « مومولو » إن كوستا سيصطحبهن فى عربتى الفخمة إلى طريق (كورسو) لمشاهدة السباق ، وأبحت لهن أن يستأجرن ما يحلو لهن من ثياب التنكر ، متطوعا لأن أتحمل النفقات . فلما سألننى عن « ماريا » قلت : « إن السنيورا ماريا مقبلة على الزواج ، فليس لها أن تظهر فى الأماكن العامة دون أن يكون زوجها المرتقب فى صحبتها » .. وتظاهرت الفاتنة الماكرة بالاستياء ، بينما تحمست أمها لهذا التصرف منى .

وفى الساعة السابعة من الصباح التالى ، كنت وماريا فى الحجرة التى استأجرتها لألقاها فيها . وهناك ، بسط علينا الحب جناحيه .. وقالت لى الحسناء ، خلال اجتماعنا ، إن زواجها سيعقد فى يوم الاثنين التالى ، فتساءلت : « ومتى يكون لقاؤنا التالى يا ملاكى ؟ » .

— فى يوم الأحد السابق ليوم زفافى . وفى وسعنا يومذاك أن نبقى معا وقتا طويلا !

اعترافات .. ناقصة !

وفى الساعة السابعة من صباح يوم الأحد ، التقينا للمرة الأخيرة فى عشنا الهادئ .. وقلت لفاتنتى : « نبئينى .. هل اعترفت للقس بكل شيء ؟ » .. فكان جوابها : « لم أفض له بكل شيء .. وما أظننى قد أتيت ذنبا منكرا ، إذ صدرت فى تصرفاتى عن أنقى الحوافز » .. وهتفت وأنا أودعها وأتبادل معها عهود الصداقة والود : « عدينى يا ملاكى بأن تطلقى اسمى على أول طفل ترزقين به ! » .. فوعدتنى وهى أشد ما تكون تأثرا !

وفى مساء يوم الاثنين سعيت إلى مقابلة قداسة البابا — والمدينة كلها فى شغل بالكرنفال — لأودعه قبل مغادرتى روما ، فاستقبلنى فى عطف بالغ ، وقدر لى أنى ضحيت بملاهى الكرنفال كى أمثل بين يديه ، واستبقانى ساعة أنصت خلالها إلى حديثى عن المدن التى زرتها ، ثم باركنى وتمنى لى رحلة موفقة !

وفى مساء الثلاثاء ، ذهبت إلى دار « مومولو » لأتناول العشاء مع أسرته وأودع أفرادها .. وهناك ، رأيت « ماريا » للمرة الأخيرة ، وقد أقبلت مع

زوجها .. وخيل إلىّ أن زوجها يبدى شيئا من التحفظ معى ، ولكن .. لعله كان مجرد وهم !

.. على أن الحسناء استطاعت أن تنتهز بضع دقائق حدثتنى فيها على انفراد ، وأطرت على زوجها وأخلاقه ، فما لبثت أن قدمت للحلاق ساعة ذهبية ، كما قدمت للعروس خاتما ثمينا ، ودعوت لهما بالسعادة !.. وبعد يومين ، رحلت إلى (تورين) .

صائد الحسان .. فى مدرسة تعليم الرقص !

كانت مدرسة دوبريه ـــ لتعليم الرقص فى (تورين) ـــ فى أوج شهرتها ورواجها فى تلك الأثناء ، إذ كان الراقصون جميعا ، ذكورا وإناثا ، يقصدونها ، وكان الإناث يذهبن فى صحبة أمهاتهن . ولم تنقض أيام قلائل على وصولى إلى (تورين) حتى زرت المدرسة . وفيما كنت أجوس خلال قاعاتها ، استرعت نظرى شابة من الحاضرات .. طويلة فارعة القوام ، ذات قسمات رقيقة بديعة . وكانت تراقص رجلا راح ينبهها فى غلظة وخشونة إلى الأخطاء التى كانت ترتكبها أثناء الرقص ، الأمر الذى أثار حنقى عليه . وما لبثت أن تقربت إلى أم الفتاة ، وعرفت منها أنها وابنتها من بلدة (لوكا) ، وأنهما فقيرتان ، فقدتا عائلهما .. فقلت لها : « كيف تكون سيدة مثلك ـــ لا تزال شابة جميلة ، ولها ابنة كهذه الحسناء ، فقيرة ؟ » .

ورمقتنى الأم بنظرة تقدير . وفى تلك اللحظات أقبلت الفتاة ـــ وكانت تدعى « أجاثا » ـــ تطلب منديلا تجفف به العرق الذى تفصد من وجهها ، فبادرت أقدم لها منديلى ، وكان أبيض معطرا بشذى الورد .. فلما جففت

وجهها ، أرادت أن تعيد إلىّ المنديل ، ولكننى قلت : « ليس لك أن ترديه دون أن تغسليه يا حسنائى ! » . فابتسمت .. وسرعان ما ذاب جليد التحفظ ، فتوثق التعارف بيننا .

كازانوفا يدفع ثمن مغامرة جديدة .. مقدما !

وطلبت من « دوبريه » — صاحب المدرسة — أن يقيم حفلة راقصة كبرى لحسابى ، يدعى إليها جميع الراقصين والراقصات ، على أن لا يسمح بالرقص فيها إلا للمحترفين .. وأعدت بطاقات للراغبين فى الحضور من سيدات وسادة المجتمع ، على أن تباع البطاقة بدينار ، وعلى أن يقدم العشاء للحضور .. وأرادت « أجاثا » أن تعتذر عن الحضور لأنها لم تكن تملك ثوبا يليق بحفلة كهذه ، ولكننى أنطت بمدام دوبريه أن تبتاع لها ثوبا ، فاختارت لها واحدا من حرير فخم غال ، مطرز أبدع تطريز . وفرحت الفتاة البريئة وأمها — التى لم تكن تقل عنها سذاجة — بالثوب الذى لم تستطع أيهما أن تقدر قيمته الحقيقية ! وأتاحت لى هذه الهدية أن أشرف على زينة الفتاة — فى مسكن دوبريه — فلما لاحظت أن قرطيها كانا رخيصين لا يتسقان مع فخامة الثوب ، أخرجت لها من جيبى قرطين ماسيين ثمينين ، ثبتهما إلى أذنيها بيدى .. وزعمت أنهما من ماس زائف ، حتى لا أثير الريب فى قلبى الأم والابنة !

ولاحظت خلال الحفلة أن الفتاة كانت تراقص شابا إنجليزيا يدعى لورد « بيرس » ، كان من العابثين الذين ينفقون دون حساب على ملاذهم .. وقد تكبدت عناء كبيرا حتى استطعت أن أنتزع « أجاثا » منه ، ثم راقصتها بضع

رقصات ، وبعد ذلك أديرت كؤوس الشمبانيا المعتقة .. وفيما كنت أجلس مع « أجاثا » إلى جوار إحدى سيدات المجتمع الخبيرات بالحياة ، التفتت السيدة إلى قرطىّ « أجاثا » وأطرت جمالهما ، فقالت الفتاة : « إنهما من ماس زائف ، وقد أهدانيهما السيد » . فضحكت السيدة وغمزت لى بعينها وهى تقول : « إذن فقد عرف السيد كيف يخدعك يا عزيزتى ! » .

وتضرج وجه « أجاثا » ، وتأكدت من صدق السيدة حين وجدتنى صامتا !.. فلما كان اليوم التالى ، زارتنى أمها ، ورغبت فى أن تعرف ما إذا كان القرطان من ماس حقيقى . ولم أتردد فى أن أؤكد لها ذلك ، وإننى أنزل عنهما هدية لابنتها . فلم تتمالك المرأة نفسها ، وراحت تقبلنى وهى تعدنى بأن تعمل على توثيق علاقتى بابنتها !

برود .. إنجليزى !

سرعان ما كافأتنى الحسناء « أجاثا » على القرطين ، فأغرقتنى بلطفها وحنانها ، وأذاقتنى أطايب حسنها ، فإذا بى أتدله فى هواها . ولولا الحادث الذى أوشك أن أرويه ، لما فارقتها قط .. والواقع أننى كنت مبعوث القدر كى أتيح لهذه الفتاة حظا وثروة . ولعل هناك من يعترض على قولى بأن القدر كان خليقا بأن يختار طريقة أكثر تمشيا مع الأخلاق ، لإسعاد هذه الفتاة . ولكن .. من الذى يريد أن يتدخل فى مشيئة القدر ويتحكم فى إرادته ؟.. ومن أدراه بأن للقدر غاية ، لا يدركها إلا بعيد النظر ؟

ذلك أن الشاب الإنجليزى — لورد « بيرس » — كان قد أصبح متيما بحب عشيقتى ، فراح يلاحقها فى كل مكان ، دون أن يغفل وسيلة من وسائل

الإغراء إلا عمد إليها . وكانت ترد إليه جميع هداياه ، وتمعن فى صده . ولما كنت موقنا من صدق وفائها لى ، فإن تماديه لم يزدنى إلا غرورا . لذلك لم يلبث الشاب أن عدل عن خططه السالفة ، وحاول أن يوقع بينى وبين الفتاة .. ثم سعى إلى أن يجعل من الأمر صفقة !

وفى برود بنى وطنه وجرأتهم ، زارنى اللورد بيرس ذات صباح ، فاستقبلته فى أدب وحفاوة ، ودعوته إلى الفطور .

الحب .. فى ميدان التجارة !

وشرع الشاب يحدثنى عن حبه لأجاثا ، ثم عرض مشروعا ضحكت منه وإن لم أغضب ، إذ كنت خبيرا ببرود الإنجليز !.. ذلك أن بيرس كان على علاقة براقصة من راقصات « الأوبرا » ، فعرض علىّ أن نتبادل الفتاتين ، وأضاف استعداده لأن يدفع الفرق بين الفتاتين مالا .. ولم أتردد فى اتخاذ قرارى . وما أحسبنى ندمت قط على هذا القرار حتى اليوم . فقد أبديت للشاب امتعاضى ، ولكننى ترفقت به ، وقلت إن من حق الفتاتين أن تستشارا أولا . فأجاب بأنه واثق من أن فتاته لن تعارض . ولكننى أكدت له أن « أجاثا » ستعارض ، فكان جوابه : « هذه مهمتى أنا .. كل ما يعنينى الآن هو أن أعرف رأيك ، والمبلغ الذى تقدره كفرق بين قيمتى الفتاتين ! » .

وبدا الموضوع طريفا ، ولكن حبى لأجاثا حملنى على أن أحاول استغلاله لمصلحتها . ومن ثم فقد أنبأتها به — حين وافتنى فى تلك الليلة — فضحكت من أعماق قلبها .. وسألتها عن رأيها ، فأجابت : « إننى لا أتردد عن إتيان كل ما تبغى . وإذا كانت الصفقة فى صالحك ، فأنصحك بأن تقبلها ! » .. وكنت

أدرك أنها تمزح ، ولكن جوابها مس شيئا فى نفسى ، لعله .. كبريائى !

وإن هى إلا أيام ، حتى ذكرت لى « أجاثا » أن مدير أحد المسارح عرض عليها أجرا طيبا ، لتكون الراقصة الثانية فى فرقته . وإذ سألتنى رأيى ، قلت : « إذا كنت صادقة فى حبى يا أجاثا ، فارفضى كل عمل لمدة عام واحد ، ولن أدعك تحتاجين إلى شىء ، بل إننى سأستأجر لك خير معلمى الرقص ، حتى تصبحى فى طليعة الراقصات ! » .

— ولكنه يعرض أجرا مغريا .. ستين دينارا ؟!

— بوسعك أن تحصلى على هذا المبلغ دون رقص ، فارفضى !

— فليكن .. ولكنى أرى من الأفضل أن أرد العرض بأن أغالى فى تقدير الأجر !

تسليم .. « السلعة » !

وفى اليوم التالى ، جاءتنى وهى لا تكاد تتمالك نفسها من الضحك ، وقالت إنها طلبت من مدير المسرح خمسمائة دينار أجرا ، فإذا به يسألها أن تمنحه مهلة للتفكير ، وإن هى إلا ساعة حتى حمل إليها عقدا — وفق شرطها — لتوقعه !.. وداخلنى إذ ذاك ريب فى أن أجاثا — وليس رقصها — هى المقصودة بهذا العقد . وما لبثت أن وجدت أننى كنت مصيبا فى حدسى ، إذ لم يكن الرجل سوى ستار ، وكان اللورد بيرس هو .. دافع الأجر !

وكان بوسعى أن أعرقل الصفقة ، لولا أننى وجدتها فى صالح « أجاثا » ، ولولا أننى كنت قد مللت الاستقرار ، وبدأت أتوق إلى الرحيل . لذلك آثرت أن أكسب ود الشاب ، وأن أحمله على أن يودع فى أحد المصارف مبلغا

طيبا باسم الفتاة . ثم جمعتهما على مائدتى ذات مساء . وإذ رأيت أن أجاثا تتلطف إلى اللورد بيرس ، قررت أن أعجل بالرحيل ! وقلت للشاب إننى كنت أزمع زيارة إنجلترا ، وأبديت رغبة فى أن يمدنى بخطاب تقديم إلى أمه الدوقة .. وكان جوابه أن أخرج من جيبه صورة لها ، فى إطار مرصع بماسات ثمينة ، وقال : « هذا خير خطاب أقدمك به إليها ! » .

فى ضيافة كونتة أسبانية !

وكنت قد تعرفت ـــ منذ زمن ـــ إلى نبيل من أهل (ميلان) ، أرمز لاسمه بحرف « ا. ب » . وكان إذ ذاك فى ضائقة ، فاعتدت أن أدعوه لمائدتى وأن أقدم له القروض. لذلك أحبنى الرجل ووثق بى ، حتى إنه أطلعنى على كثير من أسراره . وذكر لى أنه متزوج من حسناء أسبانية سمراء فى الخامسة والعشرين من عمرها . فلما اعتزمت السفر إلى (ميلان) ، كتبت إليه ، فدعانى إلى النزول ضيفا عليه ، وسألنى أن أبتاع لزوجته قطعتين من حرير من نوع لم يكن يوجد إلا فى (تورين) .. وودت فى الواقع أن أعتذر عن النزول ضيفا على الزوجين ، لولا أننى كنت مشوقا إلى رؤية الأسبانية ، لما كنت قد سمعته عنها من زوجها ، ولما كنت قد قرأته عن أن الأسبانيات مشبوبات العواطف !

ولكننى فوجئت بأن الأسبانية كانت على خلاف ما تصورتها .. كانت جميلة ، ولكنها كانت دقيقة القوام ، شديدة التزمت ، جافة الطباع .. فما أن قدمت إليها القطعتين الحريريتين ، حتى شكرتنى باقتضاب ، قائلة إن راعى كنيسة القصر ـــ الذى كان يقيم مع الأسرة ويعمل كدليل للأعمال ـــ سيدفع ثمنهما .. وظلت طيلة الوقت صامتة ، لا تبدى تقديرا لما كنت أوجهه إليها

بأكثر من ابتسامة واهنة .. فلما رافقنى الكونت ليرينى حجرتى ، أخذ يعتذر عن جفوتها وصمتها ، وأكد لى أنها لن تلبث أن تألفنى .

وكانت معالم الفقر تبدو على القصر — فيما عدا غرفتى التى كانت فسيحة مريحة .

صديق الأسرة !

وفى الصباح التالى ، جاءنى القس وسألنى أن أذكر للسيدة أنه دفع إلىّ ثمن الحرير . فلما استنكرت منه أن يحرضنى على الكذب ، قال : « إنك لا تعرف السيدة ، ولا تدرى كيف تسير الحياة فى هذا القصر يا سيدى ! » .. ثم ترك المهمة إلى الكونت ، الذى شرح لى مدى كبرياء زوجته . فإنها ما كانت لتقبل القماش ما لم تطمئن إلى أننى قد تقاضيت ثمنه .. ولم تكن موارد الزوج لتسمح بذلك !

وكانت الحياة فى القصر عجيبة بالفعل !.. ففيما كنت منهمكا فى كتابة بعض الخطابات فى ذلك النهار ، أقبل الكونت وزوجته على غرفتى ، مصطحبين شخصا قدماه إلىّ باسم المركيز « تريوليتس » . وكان رجلا فى مثل سنى ، أبدى سروره بالتعرف إلىّ ، وبالجلوس فى غرفتى ، إذ كانت هى الغرفة الوحيدة التى تعمر مدفأتها بالنار !.. ولما كان وصيفى قد انهمك فى إخراج أمتعتى من حقائبى ، ونشرها على المقاعد ، ما عدا مقعد واحد ، فقد جلس المركيز على هذا المقعد ، ثم جذب إليه الكونتة وأجلسها على ركبتيه ، فتملصت وهى حانقة ، وقد تضرج وجهها ، وصاحت : « ألم تتعلم — رغم كبر سنك — كيف تحترم السيدات ؟ » .

وأجابها الرجل فى قحة : « بلى يا سيدتى .. وآية احترامى أننى لم أحتمل أن أراك واقفة وأنا جالس ! » .

ودعا الكونت ضيفه إلى الغداء ، ثم قال : « وبما أنك تفخر بطاهيك ، فأرسل إليه كى يحمل العشاء إلى هنا ! » .. ووافق المركيز . والحق أن الغداء كان ينم عن بذخ !.. وكان المركيز قد لاحظ بين الأمتعة التى أخرجها خادمى من حقائبى ، ثيابا نسوية من الحرير الثمين ، فسألنى مازحا عما إذا كانت لى صديقة فى (ميلان) ، فأجبته بأننى أطمع فى أن أحظى بواحدة !

الفساد .. فى المجتمع الإيطالى !

وذهبنا جميعا إلى دار « الأوبرا » فى بداية المساء ، واستقلت الكونتة عربة المركيز ، بينما شاركنى الكونت عربتى .. واغتبطت إذ التقيت فى الدار بصديقتى القديمة « تيريزا باليس » ، فوعدتها بأن أزورها فى أول فرصة تسنح للهرب من مضيفى !.. وسنحت هذه الفرصة فى الصباح التالى .. وكم تبينت أننى كنت أحبها !

وفى مساء ذلك اليوم ، قالت لى الكونتة « ا. ب » ونحن نجلس إلى العشاء : « إننى أعرف أين كنت اليوم .. ولكن للسيدة عشيقا لن يتردد فى أن يهجرها إذا أنت أكثرت من زيارتها ! » .. وكانت أول مرة ترفع فيها الكلفة ، فقلت لها : « لو أنه هجرها لحللت محله ! ».

ــ إنك تحسن عملا إذا قصرت وفاءك على اللاتى يقدرن هداياك . وإنى لأعرف أنك لا تقدم الهدايا إلا بعد أن تكون قد ضمنت الثمن !

ــ إنها قاعدة لم أخرج عنها قط يا سيدتى !

وعلمت منها أن عشيق « تيريزا » كان ـــ للمصادفة ـــ نفس المصرفى الذى حولت إليه أموالى من (تورين) وكان يدعى « جريبى » !

وذهبت الكونتة مع « تريوليتش » فى المساء إلى الأوبرا ـــ وقد تأكدت من أنهما عشيقان ـــ بينما صحبنى الكونت إلى أحد منتديات المقامرة ، حيث خسرت مبلغا من النقود . ثم ذهبنا إلى الأوبرا ، حيث خسرت مبلغا آخر . وبهتت الكونتة ، إذ أنها لم تكن تدرى مدى ما أمتلك ، فنصحتنى بأن أعوض خسارتى ، بأن أبيع للمركيز ثوبا نسويا من الحرير الغالى كان قد رآه بين أمتعتى وأعجب به . ولكننى رفضت العرض ، و لم يفتنى أن ألمح استياءها ، مما أكد لى أنها كانت ترجو أن يبتاع المركيز الثوب ليهديها إياه !

كازانوفا يهاجم « غرور » الأسبانية !

وفى اليوم التالى ، سألتنى الكونتة أن أصطحبها فى عربتى إلى حفلة راقصة ، فأدركت أنها تتلطف إلىّ من أجل الثوب الحريرى . لذلك قلت لها ونحن فى العربة ، جنبا إلى جنب ـــ إن الثوب تحت أمرها ، إذا هى تلطفت فى مسلكها نحوى . وإذا بها تجيب قائلة : « إنك تهيننى يا سيدى ! » . فقلت : « ليس فى الإعجاب أية إهانة يا عزيزتى الكونتة .. ألا أسعدينى بارتداء ذلك الثوب » .

ـــ لو أننى كنت أحبك لغفرت لك ، ولكن تصرفك يضاعف من نفورى منك !

ـــ أحسبك كنت تؤثرين أن أكون أكثر حياء وترددا ، وأنا أبدى إعجابى بك !.

— مهما تفعل فلن أحفل بك !

— إننا فى هذا سواء ، إذ ما أحسبنى سأحفل بك يوما . وإذا كنت قد أظهرت استعدادى لأن أهديك الثوب ، فما ذلك إلا رغبة فى تحطيم غرورك وكبريائك اللذين لا يطاقان !

وليس غير الله من يعلم ما كانت الأسبانية المغرورة خليقة بأن تفعل ، لو لم تقف العربة بباب الملهى !.. وتركتها فى مقصورتها ، بينما ذهبت إلى قاعة المقامرة ، حيث خسرت مبلغا جسيما . وفيما كنت والكونتة عائدين إلى القصر ، استأنفنا الشجار ، إذ قالت : « لقد سرنى أنك خسرت .. إن المركيز على استعداد لأن يدفع لك ألف دينار ثمنا للثوب ! » . فقلت : « ولعلك تحبذين ذلك ، لكى ترتدى الثوب !.. ولكننى لن أنيلك إياه ، فأنت تعرفين الطريقة الوحيدة لكى تظفرى به ! » .

الزوج يتوسط .. إرضاء لزوجته وعشيقها !

وزارنى الكونت فى غرفتى فى تلك الليلة ، ليحاول من ناحيته إغرائى على أن أبيع الثوب للمركيز . ولكننى أرجأت بحث الأمر إلى الغد . واستيقظت فى ساعة مبكرة ، فذهبت إلى « جريبى » المصرفى ، وسحبت ألف دينار ، بعد أن أوصيته بأن لا يذكر ذلك لمخلوق ما ، خشية أن ينبئ « تيريزا » .. وما أن عدت إلى غرفتى ، حتى ألفيت الكونت جالسا أمام المدفأة ، فحدثنى عن غضب زوجته منى . وإذ ذاك قلت فى صراحة : « إنها غاضبة لأننى أصر على أن لا أدع أحدا سواى يهديها الثوب الحريرى ، ولكنها تأبى أن تتقبله منى » .

— إنها حمقاء !.. على أننى أعرف أنك لا تحفل بالمال ، وإن كانت الألف

دينار كفيلة بأن تسعدنى . لذلك أناشدك أن تنزل عن عنادك ، إكراما لصداقتنا ، فتقبل المبلغ من المركيز ثم تقرضنى إياه !

وانفجرت ضاحكا ، ثم قلت له : « سأبيع الثوب لتريوليتس ، ولكننى لن أقرضك المبلغ ، بل سأقدمه لزوجتك ، على شريطة أن تبدى تلطفا نحوى ! » .. فنكس المسكين رأسه ، وهو متضرج الوجه حياء .. ثم خرج .

وفى ذلك المساء ، التقيت بشاب من البندقية يدعى « باربارو » ، كان من نزلاء السجن معى ، فدعانى إلى أن أصحبه إلى بيت محترم ، يجتمع فيه نفر من علية القوم للمقامرة ، فى كل مساء . وعرض علىّ أن أشترك معه فى مؤامرة صغيرة للكسب ، فوافقته من قبيل الفضول . وما أن بلغنا البيت ، حتى قدمنى لأهله ، وكانوا أربعة ! مركيز شيخ مليح الوجه ، وسيدة بادية الوقار والاحترام ، وشابتان شقيقتان ، هما ابنتا أخت للمركيز ، وتحمل كل منهما لقب مركيزة . وما لبث أن أقبل حوالى عشرين شخصا من ذوى الجاه والثراء .

كازانوفا .. يؤنس الزوجة !

وقضيت بعض الوقت فى اللعب ، ثم غادرت المائدة ، بعد أن أقرضت « باربارو » مبلغا ليلعب به ، على أن يكون لى نصف الربح . ثم رحت أحوم حول الشابتين ، فقد كانتا بارعتى الجمال !

والتقيت بتريوليتس فى دار الأوبرا فى ذلك المساء فبادرنى قائلا : « علمت أنك قبلت أن تبيعنى الثوب الحريرى ، وإنى لأشكرك ، وأضع تحت إمرتك خمسة عشر ألف فرنك ، تأخذها متى شئت ! » .. وانتهزت الفرصة فرحت

أستدرجه ، حتى وصلت فى المناقشة إلى ذكر المركيزتين الشابتين ، فقال : « إننى أعرفهما ، فهما من أسرة من أعرق الأسرات ، ولم أسمع عنهما كلمة سوء واحدة .. ويقال إن لإحداهما عشيقا ، ولكن هذا من الأسرار طبعا .. وفى وسعى أن أقدمك إليهما إن شئت ! » وفى اليوم التالى ، قدم المركيز الثوب إلى الأسبانية المغرورة ، فتلعثمت ولم تدر كيف تشكره . ولكنه ضحك ونصحها بأن من الحكمة أن تبيعه ثانية ، لأن الناس يعرفون ما كانت الأسرة تعانيه من شظف ، ومن ثم فسوف يثير ظهورها فى ثوب غال كهذا أقاويل السوء .. وجلبت عليه هذه النصيحة غضب السيدة وشتائمها ، ولكنه راح يجيبها فى عبارات ظاهرها الأدب ، وباطنها سخرية لاذعة !

وعندما تأهب للانصراف ، نقدنى خمسة عشر ألف فرنك ذهبا . وإذ انصرف ، سألنى الكونت أن أؤنس زوجته فى غيابه ، إذ كان مضطرا إلى التغيب خارج الدار بعض الوقت ، فقلت فى لهجة لاذعة : « اطمئن إلى أن الألف دينار فى جيبى ، وسأسلمها لزوجتك إذا أثبتت أنها عاقلة ! »

تَبذُّل سيدة .. وتَعَفُّف خادمة !

وصعدت إلى غرفتى ، فاستبدلت بالفرنكات الفرنسية الذهبية ، الدنانير الألف التى سحبتها من « جريبى » . وخلعت ثيابى ، وارتديت ثياب البيت . على أننى لم أخف لإيناس الكونتة فورا ، إذ وافتنى فى الغرفة خادم فاتنة كانت مخطوبة إلى ترزى فقير ، وقد حاولت إغراءها مرات فلم تفلح معها أساليبى ، مما جعلنى أكبرها ، وأمد لها ولخطيبها يد العون ، كى يعجلا بزفافهما .. وقد أقبلت تنبئنى بأن الزفاف سيتم بعد يومين .

وكانت الكونتة فى فراشها حين سعيت إليها ، فلما رأتنى فى ثياب البيت تساءلت : « أوَتراك ستضحى بسهرتك ومقامرتك لإيناسى ؟ » . فقلت : « بلا شك » .. وقالت « إنك تحسن صنعا ، فمن الحرام أن تبدد المبلغ الذى أسلمك إياه المركيز مقابل الثوب ! » .

مع الكونتة المغرورة فى مخدعها !

وأجبت قائلا : « إننى لن أبددها ، إذ أعتزم أن أقدمها إليك أنت . ولكننى أشعر بقشعريرة لفرط البرد ، فهل أغلق باب الغرفة ؟ » .. وأبت الكونتة أن أفعل ، فقلت لها : « إذن ، فسأنصرف ! » . وعند ذلك قالت : « لا بأس أيها الرجل المفسود الشرير ! » .

وهكذا مكثت معها ، ولكنى لا أدرى لماذا لم أستمتع بهذا البقاء .. أكان ذلك لأننى كنت لا أفتأ أتذكر الثوب وثمنه ، أم لأننى كنت أتذكر الخادم العفيفة ــ التى أبت أن ترضينى وفاء منها لخطيبها ــ فكنت أشمئز من مسلك الكونتة !.. والحق أننى لم أكن كريما فى تصرفى ، إذ لم ألبث أن تهيأت للانصراف ، وأنا أقول :

ــ ليس الذنب ذنبى يا سيدتى ، ولكنّ مفاتنك ليست قوية السلطان على مشاعرى .. فإليك ألف دينار أرجو أن تجدى فيها عزاء وسلوى !

وكانت ثمة حفلة تنكرية راقصة فى دار « الأوبرا » ، فى ذلك المساء . فأسرعت وارتديت ثوبا أيقنت أن أحدا لن يكتشف شخصيتى من ورائه ، وخاصة لأنى استبدلت كل شىء كنت أستخدمه .. حتى علبة السعوط والساعة وكيس النقود . ولم يعد ثمة ما يشى بحقيقتى !.. وما أن بلغت دار

« الأوبرا » ، حتى دلفت أولا إلى قاعة المقامرة ، حيث خسرت مبلغا كبيرا ، جعل الجميع يتوقعون أن أبادر بمبارحة المكان . ولكن ميزان الحظ لم يلبث أن انقلب ، فإذا بى أكسب ، وأكسب ، حتى بلغ مجموع أرباحى — عندما نهضت فى النهاية — ألفين وثمانمائة وستة وخمسين دينارا .

مناورات .. على سلم « الأوبرا » !

وفيما كنت أهبط السلم ، لحقت بى حسناوان تخفيان وجهيهما وراء نقابين ، وقالتا : « إن كبير محققى ديوان التفتيش فى انتظارك لدى الباب ! » .. وأدركت من عبارتهما أنهما اكتشفتا شخصيتى ، وإن لم أستطع أن أعرف شيئا عن حقيقة شخصيتيهما !

وسألتنى إحداهما أن أسمح لها ببعض السعوط من علبتى ، فقدمت العلبة إليها . وفيما كانت تتناول حاجتها ، ضغطت بإصبعى زرا فى العلبة ، فانحسر الغطاء عن صورة ، ما أن رأتها الحسناوان حتى تضرج وجهاهما ، وشهقتا مأخوذتين ، مستنكرتين .. فقد كانت الصورة عارية ، جريئة !.. وقالتا : « ياللعار !.. لن نسمح لك قط بأن تعرف من نكون ، عقابا لك على قحتك ! » .

واستأت لأن تصرفى أغضبهما ، فرحت أقتفى أثرهما ، وإذا بى ألتقى بصديقى « باربارو » ، فعلمت منه أنهما لم تكونا سوى المركيزة « ك. » والمركيزة « ف. » ، اللتين كنت على استعداد لأن أضحى بنصف عمرى لاكتساب ودهما ومحبتهما !

موعد .. فى فندق « الملوك الثلاثة »

وقبل أن تنتهى السهرة ، تقدمت فتاة فى زى فلاحات البندقية ، وتحدت أن يرقص معها أحد الرجال رقصة فلاحى (فريولى) ، وهى رقصة غريبة ، طويلة ، ومضنية .. وتقدم أحد الشبان ، ولكنه سرعان ما تعب وجعل من نفسه أضحوكة للجميع ، مما دفعنى إلى أن أتقدم متحديا الفتاة .. وقبلت الفتاة .. والتف الكل حولنا ، وراحوا يرقبوننا فى اهتمام .

ورقصنا مرتين .. وكان فى هذا ما يكفى لإرهاق أى رجل ، لولا أن فتاة فى زى الرعاة سألتنى أن أجرب حظى معها ، فلم أنكص .. وكانت بارعة لينة الأعطاف ، رشيقة الحركة ، حتى إننى درت معها أرجاء القاعة ثلاث مرات .. وما لبثت أن تعبت وتهدجت أنفاسى ، وإذ ذاك همست الفتاة باسمى فى أذنى ، فعجبت لأنها استطاعت أن تعرفنى رغم تنكرى ، وطربت لسماع اسمى يخرج من بين شفتيها ، فسألتها عن اسمها . وكان جوابها أن قالت إنها من البندقية ، وإن بوسعى أن أعرف اسمها إذا أنا ذهبت للقائها فى فندق « الملوك الثلاثة » ، فى يوم الاثنين التالى ! وأردفت قائلة : « إننى أنزل هناك مع أبى وأمى ، وهما من أصدقائك القدامى ! » .

دماء كازانوفا تختلط بدماء « الكونتة » !

ولم أر الكونتة الأسبانية إلا فى مساء اليوم التالى ، عندما أعدت مائدة العشاء .. وكان زوجها متغيبا ، وحملنى الأدب على أن أتلطف إليها ، وأن أعتذر عن مسلكى السابق . وبدت من ناحيتها فى غاية اللطف والرقة . وأيقنت أنها كانت تحتال لغاية فى نفسها .. إذ كانت أعياد الكرنفال قد اقتربت ، ولا بد أن تدبر نفقات الاحتفال بها .. وقدمت إلىّ علبة سعوط ، بعد أن تناولت نصيبا منها ، فقلت وأنا أتأمل ما فى العلبة : « ولكن هذا ليس سعوطا يا كونتة ؟ » .

.. فأجابت : « لا ، إنه مسحوق لمغالبة الصداع .. إنه يجعل الدم الفاسد ينساب من الأنف ! » . واستأت لذلك ، بيد أننى قلت ضاحكا : « ولكننى لا أشكو من صداع ، ولا أحب أن ينساب الدم من أنفى ! » .. وما زالت بى حتى تناولت من ذلك السعوط ، وسرعان ما رحنا نعطس معا . وما لبثت أن سقطت من أنفى نقطة من الدم ، فتناولت الكونتة وعاء من الفضة ، وقالت : « اقترب منى ، فقد بدأ الدم ينساب من أنفى أنا الأخرى ! » .

وهكذا أسند كل منا رأسه بيده ، فوق الوعاء الفضى .. ولم يلبث الدم أن أمسك عن الانسياب بعد دقائق ، فغسلنا أنفينا بالماء البارد ، وإذ ذاك قالت الكونتة : « الآن امتزج دمك بدمى ، ولسوف يؤدى هذا إلى توثق التعاطف بيننا !.. ولعلنا سنظل مرتبطين بالصداقة إلى نهاية العمر ! » .

راهب .. ينذر أمير العشق !

ولم أحفل كثيرا بكلامها ، ولكن القراء لن يلبثوا أن يروا ـــ بعد قليل ـــ مدى ما فى قولها ذاك من صحة أو خطأ .. على أننى سألتها أن تعطينى قليلا من ذلك المسحوق ، فرفضت ، كما أبت أن تذكر لى اسمه ، قائلة إنها حصلت عليه من صديق لها .. وعبثا حاولت العثور ـــ لدى باعة العقاقير ـــ على مسحوق له مفعول ذلك المسحوق !.. وقد شغل هذا الأمر بالى ، كما شغله يقينى من أن الأسبانية كانت تكرهنى .. فلم يلبث التفكير فى هذا الأمر ، أن جعلنى أعلق أهمية كبرى على ما حدث !

وفى اليوم التالى ، جاء راهب من « الكابوشان » يبغى مقابلتى ، فطلبت إلى تابعى أن يمنحه شيئا من الصدقات ، ويصرفه . ولكن الراهب أصر على أن يلقانى . فلما صار أمامى ، بادرنى قائلا : « أصغ لما أقول يا سيدى ، ولا تزدر ما سوف أنذرك به ، فقد تدفع حياتك ثمنا لذلك !.. فإذا استمعت لحديثى ، فسوف أنبئك بما ينبغى أن تفعل ، ولكن .. إياك وأن توجه إلىّ سؤالا واحدا ، لأننى لن أجيبك .. ولعلك تدرك من تلقاء نفسك أن صمتى راجع إلى احترامى لأسرار الاعتراف ، وإلى أن عهودى لا تسمح لى بأن أفضى بما قد يشى بسر استودعنى إياه أحد الذين يدلون باعترافاتهم لى .. إننى مضطر إلى أن أتحدث إليك . وقد ساقتنى العناية الإلٰهية إليك لإنذارك ! » .

وأكدت للراهب أننى سأصغى لأقواله ، فأقدر إنذاره ، وآخذ بنصحه ، وأقسمت له أننى لن أذكر لأحد أنه تحدث إلىّ أو أنه قابلنى . وإذ ذاك فقط ، سألنى الراهب أن أذهب وحدى قبيل الظهر ، إلى دار معينة ، فى ميدان معين

بالمدينة .

واستطرد الرجل قائلا : « .. واطرق الباب الأيسر فى الطابق الثانى ، وقل لمن يفتحه لك ، إنك تود الحديث إلى مدام (...) ولسوف يسمح لك بالدخول دون عناء ، وما أظن أحدا سيسألك عن اسمك ، ولكن عليك — إذا سؤلت عنه — أن تنتحل اسما آخر .. فإذا قابلت مدام (...) ، فتحدث إليها بهدوء ورفق ، وحاول أن تكسب ثقتها ، فهى امرأة مسكينة .. ولو أنك منحتها شيئا من المال ، لاطمأنت إليك . وإذ ذاك ، قل لها إنك لن تبارح حجرتها حتى تعطيك الزجاجة التى حملها إليها — فى الليلة الماضية — خادم ، وأحضر إليها رسالة مع تلك الزجاجة . وكن حازما قاطعا فى لهجتك إذا هى رفضت ، ولكن .. حذار من أن تحدث أى جلبة ، أو أن تدعها تبرح الحجرة أو أن تمكنها من أن تدعو أحدا !.. وإذا دعت الحاجة ، فعليك أن تعدها بأن تمنحها ضعف المبلغ الذى وعدها به الطرف الآخر ، إذا هى سلمتك الزجاجة .. ولن يكون المبلغ جسيما ، ولكنه فداء لحياتك !.. ولن أزيد . ولكنى أود أن تعدنى بأن تصدع بما قلت لك » .

وباركنى الراهب — بعد إذ وعدته — ثم انصرف وهو يدعو لى .

العرافة ذات الوجه المخيف

ولم أشعر بميل إلى الضحك أو الاستهتار بحديث الراهب ، فقد كانت بنفسى بقية من الإيمان بالخرافات ، والسحر ، كما أن الرجل كان يبدو صادقا أمينا . ومن ثم فقد بادرت إلى التزود بمسدسين ، ثم انطلقت إلى البيت الغامض ، وصحبنى وصيفى « كليرمون » إلى الساحة ، حيث أمرته بأن يقبع

فى انتظارى .

واقتدت إلى امرأة دميمة رهيبة المنظر ، منحتها قطعتين من الفضة ، فقالت إنها تعرف أننى عاشق ، وأننى المسئول عن أى شقاء حل بى ، وأنها ستعطينى شيئا يساعدنى على مغالبة ما أعانى !.. وأدركت أننى فى حضرة عرافة محترفة ، فقلت لها إننى لن أبرح الحجرة حتى آخذ الزجاجة والرسالة التى كانت معها .. وإذا بوجه المرأة يبدو مخيفا ، وأخذت ترتجف فى عنف ، وحاولت أن تغادر الحجرة ، ولكنى شهرت مطواتى فى وجهها . وقلت لها إننى سأضاعف المبلغ الذى وعدها به غريمى ، فهدأت نفسها . وقالت : « لقد وعدت بستة قطع فضية ، ولست أرتاب فى أنك ستدفع لى الضعف ، فقد عرفتك .. إنك جياكومو كازانوفا البندقى ! » .

ووضعت اثنتى عشرة قطعة فضية على المنضدة ، وإذ ذاك ترقرقت عيناها بالدموع ، وقالت : « ما كنت لأتسبب فى موتك ، ولكنى كنت على استعداد لأن أجعلك تكتوى بالحب حتى الجنون ! » .

دم .. وتمثال .. وسحر !

واقتادتنى إلى غرفة داخلية ، امتلأت بزجاجات وقنينات من كافة الأحجام ، وبأحجار متباينة الألوان ، وبمعادن ، ومسامير كبيرة وصغيرة ، وبواتق ، وفرن ، وكثير من التماثيل التى لا شكل لها .. وأشارت إلى زجاجة وهى تقول : « ها هى ذى زجاجتك ! » . فسألتها : « وماذا فيها ؟ » ، فقالت : « دمك ممتزجا بدم الكونتة ، كما تستطيع أن تتبين من هذه الرسالة ! » .

وأدركت جلية الأمر ، فأحسست بشعر رأسى يقف إذ تمثلت ما فكرت

فيه الأسبانية الفظيعة .. وأخذ العرق البارد يتفصد من جسدى .. وسألت الساحرة : « وما الذى كنت ستفعلينه بهذا الدم ؟ » .. فأجابت : « كنت سأنضحك به .. كما ترى ! » .. وفتحت صندوقا طوله حوالى القدمين ، فإذا به تمثال من الشمع ملقى على ظهره . وقد نقش اسمى عليه . ومع أنه كان سيء الصنع ، إلا أن ملامحى كانت واضحة عليه !

ولم أتمالك أن ضحكت إذ رأيت بعض أجزائه مشوهة الشكل ، غير متناسقة ، فقالت العجوز : « ما كنت لتضحك لو أننى غسلت هذا التمثال بالدم ، وتلوت عليه التعاويذ التى لا يعرفها سواى !.. وكان الأمر خليقا بأن يصبح أبشع وأقسى ، لو أننى وضعت التمثال على مدفأة ، وتركته يكتوى بنارها ! » .

وارتاحت المرأة إذ أمرتها بأن تصهر التمثال أمامى ، فقد خشيت أن أحمله معى كقرينة لإدانتها .. وعقدت العزم على أن لا أجعل الكونتة تشعر بأننى، كشفت مؤامرتها . بل إننى أبديت لها من الأدب ما لم أبد من قبل ، وأنا أحمد لها إيمانها بالسحر ، إذ صرفها هذا عن أن توعز إلى أحد المجرمين أن يثأر لها منى .. ومنذ ذلك الحين ، لم تسبب لى الكونتة أية مضايقة !

التأهب لحفلات الكرنفال

ولا ريب فى أن القارئ لم ينس بعد الفاتنتين — ابنتى العم — اللتين اقتادتنى « باربارو » إلى منزلهما ، واللتين قابلتهما فى الحفلة الراقصة التنكرية .. فلقد أتيح لى أن أتعرف إلى شقيق إحداهما — وكان ضابطا — فسرعان ما توثق الود بينا ، وأصبحت أتردد على دارهم .. وكانت الفتاتان تتحرقان شوقا إلى

مهرجان تنكرى كبير ، كان موشك على الانعقاد فى (ميلان) ، وكان أهلهما يرفضون أن يسمحوا لهما بالاشتراك فيه ، فوعدتهما بأن أدبر لهما خطة تمكنهما من تحقيق رغبتهما .

وكنت عند وعدى للفاتنتين بأن أدبر لهما خطة تمكنهما من تحقيق رغبتهما .. كان أول ما فعلته ، أن استأجرت — فى شارع منعزل — مسكنا ذا أربع حجرات ، ثم أطلعت الضابط على خطتى فقال :

— لست أرى مجالا للاعتراض ، ولكنى مضطر إلى أن أصحب معى شابا من النبلاء من أعز أصدقائى ، ومن أشد المعجبين بابنة عمى .

— على الرحب والسعة ، فاستعدوا جميعا عند غروب شمس يوم الأحد ، وسنلتقى جميعا ، فنتناول العشاء معا ، ثم نرتدى ثياب التنكر ، ونذهب إلى المهرجان .. ما طول حبيبتك ؟.. وما شكل صديق ابنة عمك ؟

فأجاب : « إن حبيبتى أقصر من أختى بخمسة سنتيمترات ، وتزيد عنها سمنة بعض الشيء .. أما صديقى ، فهو فى قوامك تماما » .. وعلى هذا ، فقد أخذت بزة من المخمل الأزرق ، طرزت حوافها بالحرير الأبيض ، وبزة من المخمل الأصفر الغامق ، وسترتين وصداريتين من الحرير الموشى . كما أخذت للمرأتين ثوبين أحدهما من الحرير الأحمر النارى ، والآخر من الحرير البنفسجى الباهت .. وأقمصة للرجال وللنساء ، ومناديل ، وبضع ياردات من المخمل والحرير ، ودفعت مائتى دينار ، على شريطة ألا يبوح صاحب المتجر بأننى ابتعت هذه الأشياء من عنده ، فإذا تسرب السر ، صار عليه أن يرد إلىّ نقودى ، وأن يسترد بضاعته !

ثياب مهلهلة تستأثر بالإعجاب !

وحملت ما اشتريت إلى حائك كنت واثقا من كتمانه للسر ، وبسطت الأشياء فى إحدى الحجرات بالمسكن الذى استأجرته . ورحت بخنجرى أحدث قطوعا وثقوبا فى السترتين ، والرجل ينظر مبهوتا ، ثم دفعت إليه بياردات القماش ، وقلت له : « والآن ، عليك أن ترتق وأن (ترقع) القطوع بألوان مغايرة ، ولن تبرح هذه الحجرة حتى تفرغ من مهمتك ! » .

فسألنى الرجل : « ولكن ، هلا أخبرتنى بالله عن السر فيما فعلته بهذه الثياب ، وهل سترتدونها بهذا الشكل ؟ » .

وقلت وأنا أرقب دهشته وحيرته : « تماما .. وكما هى ! » .

وأسرعت فابتعت خمسة أزواج من الجوارب الحريرية الشهباء اللون ، وقبعتين من الفرو ، وقناعين مضحكى الشكل مما يستخدمه الرجال فى « الكرنفال » ، وثلاثة أقنعة مناسبة للسيدات ، وثلاث صحاف من الخزف المنقوش . وعدت إلى المسكن ، فإذا « زنوبيا » ــ زوجة الحائك ــ قد جاءت تساعد زوجها . وخيال المرأة عادة أنشط وأسرع من خيال الرجل ، لذلك فإن « زنوبيا » لم تكد تلمح الفكرة التى كنت أرمى إليها ، حتى انكبت على العمل فى براعة لا تتأتى إلا لامرأة .. فراحت تمزق الأثواب وتقطعها ، ولكن .. بشكل يجعلها تستحوذ على الإعجاب رغم تهلهلها !

وجاءت الثياب مجموعة عجيبة فى حد ذاتها .. كان التمزيق على أشده عند العنق والكتفين والذراعين ، بحيث أن ثياب النساء منها كانت كفيلة بأن تبدى الأقمصة الداخلية فى وضوح ، وبأن تكشف ــ فى الأجزاء السفلى منها ــ عن

السيقان البديعة !

« كازانوفا » يتنكر فى شخصية غجرى

تم هذا العمل فى يوم السبت ، بينما كان المهرجان فى يوم الأحد . لذلك لم ألبث أن نقدت الحائك أجرا سخيا ، وصرفته مع استبقاء زوجته لتعنى بحاجات الحسان الثلاث اللائى لم أطلعهن على شىء من أسرار الخطة التى رسمتها ، ولا على الثياب المهلهلة التى أعددتها لهن !

وقلت للضابط الشاب ، الذى كان شقيق إحدى الفاتنتين ، وابن عم الأخرى ، والذى دعا صديقة له وصديقا لابنة عمه فى ضيافتى :

ـــ إن عليك الآن أن تحصل على عربة ذات أربعة جياد ، على أن تتسع لأربعتكم .. أعنى لك ولصديقتك وللحسناوين . وعليكم أن تستقلوا هذه العربة ، فتخرج بكم من أحد أبواب المدينة ، ثم تعود بكم من باب آخر ، فإذا ما استقر بكم المقام فى المسكن الذى استأجرته ، فسيكون فى وسعكم أن تذهبوا للرقص سيرا على الأقدام ، وأن تعودوا فى محفات ، وبذلك نضلل كل من يحاول أن يقفوا آثاركم !

وكنت قد عولت على أن أتنكر فى شخصية نورى من الغجر السمر ، فليس ثمة ما هو أضمن لإخفاء شخصية المرء ، من أن يغير لون بشرته !

المتسولون الخمسة فى المهرجان !

وكان الحائك قد أعد لى بزة بديعة ، فوضعت فى جيبى السروال كيسى نقود جديدين ، بكل منهما خمسمائة دينار . وما أن حانت الساعة السابعة من مساء الأحد ، حتى كانت المائدة معدة للعشاء . وبعد خمس دقائق ، حضر القوم وكان صديق أخت الضابط مركيزا شابا ، جميلا ، ساحرا ، واسع الثراء . وقد بدا أنه كان كلفا بها ، كما كان يميل إلى أخيها ويحترمه .. أما عشيقة الضابط ، فكانت فاتنة ، وكانت تهيم بحبيبها فى وجد صادق !

وبعد العشاء قلت لهم : « بما أننى لن أكون معكم ، فقد آن لى أن أشرح لكم أدواركم .. لسوف تتقمصون شخصيات خمسة من المتسولين .. رجلين ، وثلاث نساء . وسترتدون ثيابا مهلهلة ! » .

واغتبطت ـــ فى دخيلتى ـــ حين لمحت الامتعاض على وجوههم ، ولكننى كتمت مشاعرى ، واستطردت قائلا : « ولسوف يحمل كل منكم صحفة من الخزف ، وعليكم أن تطوفوا بقاعات الرقص ، متشابكى الأذرع ، تسألون الحضور إحسانا . وليكن كل همكم أن تجيدوا أدوار التسول ! » ونهضت إلى باب المخدع ففتحته وأنا أقول : « والآن .. تعالوا فارتدوا أسمالكم ! » .

وكان أول ما وقع عليه بصرهم ، هو منظر « زنوبيا » الجميلة ، وقد وقفت وسط ركام من الثياب المهلهلة ، التى كان من الواضح أنها من أغلى الأقمشة !.. وتحولت إذ ذاك إلى النساء قائلا : « ها هى ذى ثيابكن يا سيداتى .. وهذه هى الأقمصة ، والجوارب ، والمناديل .. وستجدن على

مائدة الزينة من المواد ما يفى بحاجتكن . وهذه هى أقنعتكن ، والصحاف التى ستجمعن فيها الصدقات .. ولسوف تشهد أربطة السيقان بفقركن ، كما أن الثقوب التى تتخلل الجوارب تبين أنكن لا تملكن ثمن الخيط الحريرى الذى ترتقن به هذه الثقوب .. ولسوف تربطن أحذيتكن بقطع من الخيط ، إمعانا فى إظهار الفقر ، كما أنكن ستجدن الأحذية ممزقة الأطراف ، لتبدو عتيقة بالية ! » .

وبينما كنت أقول هذا ، لمحت الامتعاض ينحسر عن الوجوه رويدا ، ليحل محله الإعجاب !

موكب المتسولين فى المرقص !

وتحولت بعد ذلك إلى الرجلين فقلت لهما : « وهذه أسمالكما ، فما رأيكما فيها !.. ولكن ، لنغادر الغرفة أولا ، حتى تخلو للسيدات فيستبدلن ثيابهن فى ارتياح ! » .

وبدا المركيز متحمسا ، فهتف : « لكم ستبدو أشكالنا عجيبة !.. إنه لتدبير رائع !.. وإنه لمثال للبذخ والإسراف ، أن تمزق كل هذه الثياب الغالية ، لنتنكر فى أزياء متسولين ! » .

وإن هو إلا نصف الساعة ، حتى كنا على أهبة الاستعداد ، وقد بدا الضيوف الخمسة فى أزرى صور الفقر والمسغبة .. وكنت ــ فى شخصيتى النورية ــ لا أقل عنهم زراية !

وكانت السيدات قد تركن شعورهن مشعثة ، مهدلة . وقد كان شعر المركيزة « ك. » ــ وهى إحدى الفاتنتين ــ أطولها ، حتى لقد بلغ ركبتيها !..

وخلال الأسمال المهلهلة ، بدت أذرعتهن البضة ، وأكتافهن ، ونحورهن ، وسيقانهن !

ورحت أرشدهم إلى أساليب التظاهر بالتقوى والذلة ، والتخلص من كل ارتباك واضطراب ، وأن يكشفن عن أن ثيابهن المهلهلة كانت — فى حد ذاتها ثروة ، إذ أنها صنعت من أغلى الأقمشة — دون أن يناقض هذا ما كن يمثلنه من فاقة وتسول !

وما لبثنا أن ارتدينا أقنعتنا ، وشرعنا فى سيرنا نحو المرقص .. ولم يلتفت أحد إلىّ فى الطريق ، فقد كان ثمة كثيرون متنكرين فى زى الغجر . ولكن منظر رفاقى استأثر بالانتباه ، فإذا القوم جميعا يتأملون فى عجب هذا الموكب العجيب .. وكان المركيز يسير بين حبيبته وابنة عمها ، وقد راحتا تسيران فى بطء ، وهو يحاول أن يتمشى مع خطاهما .. واستطاعت المركيزة « ك » أن تحظى — بثوبها الذى كان فى حمرة اللهب — وشعرها الرائع — بأكبر قسط من إعجاب الناس ، الذين أخذوا يقتربون حتى أصبحوا يحاصرون الموكب ، بمجرد ولوجنا المرقص !

وعزفت الموسيقى لحنا تمهيديا ، كافتتاحية للمهرجان . وتقدم ثلاثة أشخاص ظاهرو الثراء — رغم أقنعتهم — فسألوا متسولاتى الثلاث أن يراقصنهم ، ولكن الحسان اعتذرن بأن أحذيتهن ممزقة ، مكسورة الكعوب !

فى غرفة المقامرة

وظللت أتبعهن زمنا حتى اطمأننت إليهن ، فتسللت إلى غرفة المقامرة ، حيث تربصت حتى خلا مقعد إلى المائدة ، فسارعت إلى احتلاله .. وكان

يجلس إلى « البنك » شخص يدعى « كانانو » ، وإلى جواره سيدة ، سمعتها تقول له : « لقد قابلت الشيفالييه دى سينجال فى الخارج مع أربعة من المتسولين ! » .. وكان سينجال هو المركيز عشيق أخت الضابط !

وأدركت أن القوم بدأوا يتحدثون عن المتسولين الخمسة ، وإن لم يوفق أحد إلى كشف حقيقة شخصياتهم ، فاغتبطت فى سريرتى . ولعبت ، فخسرت ستة أدوار متوالية ، ولكن الحظ لم يلبث أن ارتد إلى ، فربحت ما خسرت ، وفوقه بكثير ، حتى إذا رأيت « البنك » قد بدأ يختل ، توقفت عن اللعب .. وفيما كنت أحصى أرباحى ، صاح شخص ما : « ها قد وصل المتسولون ! » .

ورمق « كانانو » المركيز مليا ، ثم طلب منه بعض السعوط . وخيل إلى أنه كان موشكا على أن يكشف شخصية الشاب ، لولا أن هذا قدم إليه السعوط وهو ماض فى تمثيل دوره بإتقان رائع !

القوم يتكهنون بشخصيات المتسولين

ومد المتسولون صحافهم يسألون إحسانا ، فنثرت فى صحفة المركيزة « ك. » حفنة من الدنانير ، وأجزلت العطاء لزملائها . وإذ ذاك قال « كانانو » وهو يتأملها بإعجاب : « لو أنها لعبت بهذا الشعر البديع ، لقومته بألف دينار ! » .. ولكن الحسناء تجاهلت الغزل ، فتحول « كانانو » نحوى قائلا : « يبدو أن الغجر يعطفون على المتسولين ! » .

وانحنى المتسولون إذ ذاك للقوم فى تواضع ، ثم غادروا الغرفة . فقال المركيز « تريولتس » ، وكان بين الحضور : « إن المتسول الذى يرتدى بزة

صفراء باهتة ، هو كازانوفا بعينه ! » .. وكان يقصد المركيز ، الذى كان فى مثل قامتى .

فقال كانانو : « إننى واثق من هذا ، ولكن من أولئك الذين فى صحبته ؟ » . فأجاب تريولتس : « لسوف نعمل على كشف شخصياتهم . ولكن الذى لا شك فيه ، أن تنكرهم قد كبدهم مبلغا باهظا ! ».

ولعبت مرة أخرى ، فربحت ألفين وخمسمائة دينار ، أعطانى كانانو فى مقابلها سندا قابلا للدفع عند الطلب ، فدسسته فى جيبى — فى حرص — ثم سرت إلى مقصورة فى الصف الثالث من صفوف النظارة فى قاعة المسرح ، حيث كنت على اتفاق مع زملائى ، كى نلتقى .

عشيقته القديمة تفسد عليه ليلته !

وما أن التأم شملنا ، حتى هتفت الفتيات : « إن جيوبنا ملأى بالنقود والحلوى » . فقالت لى حبيبة الضابط : « إننا مدينون لك بما لا نملك أن نوفيك جزاءه . لقد تسببت فى إسعادنا كل الإسعاد » .

فقلت : « إن الأمور رهن بخواتمها يا سيدتى ، وأرجو أن تكون نهاية سهرتنا خيرا من بدايتها بكثير ! » . وضغطت يد المركيزة « ك. » وأنا أقول : حذا ، فشعرت بأصابعها ترتجف فى قبضتى !.. وإذ ذاك قلت : « تعالوا نهبط إلى قاعات الرقص ، فإننى مشوق إلى أن أرقص ، ولسوف ترون كيف يضحككم الغجرى ! » .

وأعدنا أقنعتنا إلى وجوهنا ، ثم هبطت بعد أن سألتهم أن يتبعونى بعد حين . وفى قاعة الرقص ، وجدت حبيبتى القديمة « تيريزا » ، فدعوتها — وأنا محرج —

إلى رقصة ريفية .. وقالت وهى تضع ذراعها حول ذراعى : « إنك غجرى ماهر ، استطعت أن تفلس « بنك » مائدة اللعب ! » .. وما كنت أحسب لوجود « تيريزا » حسابا ، ولكنها أفسدت علىّ ليلتى ، إذ خشيت أن تكتشف صلتى بالمتسولين !

.. وعد شرف !

ورقصت كالمجنون ، دون أن أخل بقواعد الرقص ، وإن رحت أقوم بحركات وحيل استغللت فيها كل براعتى ورشاقتى وما لبثت ــ بعد أن فرغنا من الرقصة ــ أن رافقت « تيريزا » إلى المقصورة التى كان عشيقها المصرفى « جريبى » ينتظرها فيها ــ فأسلمتها إليه . وكان الليل قد اكتهل ، فاستقللت محفة إلى المسكن .

وهناك ، لم يلبث موكب المتسولين أن لحق بى . وسرعان ما استبدلوا ثيابهم ، ثم استقلوا محفات إلى حيث كانت عربتهم فى انتظارهم لدى أحد أبواب المدينة .. وبقى المركيز معى ، فما لبث أن قال لى فى أدب واستحياء ــ إنه يريد أن يتقاسم معى ما تكبدت من نفقات ، ولكنى أجبته : « أخشى أن يكون فى سؤالك هذا ما يمس كرامتى ويحط من قدرى ، فى نظر نفسى ! »

وتراجع معتذرا فقلت : « ليس للنقود أية قيمة لدىّ ، وأعدك بشرفى أن أسمح لك بأن تنفرد بالإنفاق فى أول مهرجان قادم يجمعنا » .

« ثلاثة » رجال ، و « ثلاث » نساء !

واستمر المهرجان إلى ما قبل الصوم الكبير بأسبوع . وقبل موعد آخر الحفلات التنكرية الراقصة ، جاءنى الضابط قائلا : « إن صديقى المركيز يدعوك إلى تناول العشاء معه ومع فريق المتسولين . ولما كان قد أعد لنا مفاجأة سارة ، فإنه يسألك أن تعيره مسكنك لبضع ساعات قبل العشاء ، ويرجو أن تسمح لخادمتك اللطيفة أن تساعده ! » .

وقبلت عن طيب خاطر .. وفى الليلة الموعودة ، اجتمعنا فى مسكنى ذاك ، فلم يلبث المركيز أن اقترح علينا أن نرتدى الثياب التى أعدها لنا ، قبل أن نجلس إلى مائدة العشاء . ثم أشار إلى حزمة هائلة ، وقال : « ها هى ذى ملابسكن يا سيداتى ، ولسوف تساعدكن مدام زنوبيا على ارتدائها فى الحجرة الأخرى ! » .

ثم تناول حزمة أخرى ، حتى إذا انفردنا ــ نحن الرجال الثلاثة ــ فتحها ، فانفجرنا ضاحكين ، إذ وجدنا بها ثيابا نسائية أنيقة ، وثمينة ، وباذخة الوشى والزخرفة .. وكان علينا أن نرتديها !.. ولم يكن قد أغفل شيئا حتى المراوح ، وحقائب اليد ، وأدوات الزينة ! وتكشفت خطة المركيز الذكى .. فلقد تنكرت السيدات فى أزياء رجال ، وتنكرنا ــ نحن الرجال ــ فى أزياء نسوية !.. وكان علينا أن نبدى كل رفق وليونة ، فى حين أنهن كن مضطرات إلى الظهور بأخلاق الرجال .

لقاء من خلف الأقنعة

وبعد أن جلسنا إلى المائدة زهاء ساعتين ، نهضنا متأهبين للذهاب إلى دار « الأوبرا » ، ولكن الاكتئاب غلب على وجهى ابنتى العم الفاتنتين ، إذ لم يرق لهما أن تذهبا للرقص فى ثياب الرجال ومن ثم اقترحت أن نقضى السهرة فى مسكنى بين لعب وسمر . وفى اليوم التالى ، لم تكن ثمة حفلة راقصة ، فذهبت إلى دار « الأوبرا » ، ولازمت حجرة المقامرة ، حيث خسرت كل ما كنت أحمل من نقود . وفيما كنت أهم بالانصراف ، إذا بامرأة فى زى رجل تسلمنى إحدى أوراق اللعب ، وتسألنى أن أراهن عليها ، فراهنت بمائة دينار .. وخسرت !.. وخسرت تسعمائة دينار فوقها ، فكتبت سندا يستحق الدفع فى اليوم التالى !

وفيما كنت أتأهب لمغادرة الحجرة ، أقبلت رسول النحس يصحبها شخص آخر متنكر . وأمسك هذا بيدى ، وهمس يسألنى أن أذهب فى الصباح التالى إلى فندق « الملوك الثلاثة » حيث ألتقى بصديق قديم !..

« كازانوفا » .. فى روما !

انتهى بى المطاف ــــ بعد أن زرت فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ــــ إلى الإقامة فى مسكن مفروش ، يواجه قصر السفير الأسبانى فى (روما) . وأصبحت أقضى الشطر الأغلب من صباحى فى صحبة الكاردينال دى برنيس ، والأمير دى سانتا كروش ، وسفير البندقية .. ولقد كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتى ، إذ كنت أقضى أمسياتى فى صحبة دوقة فيانو ، والأصيل فى رفقة

الأميرة دى سانتا كروش . أما ما يبقى بعد ذلك من أوقاتى ، فكنت أفرغ فيه إلى « مارجريت » — ابنة ربة مسكنى ومديرته — وشاب كان يقيم فى البيت ذاته ، ويدعى « منيكوتشيو » ، شعرت نحوه بميل شديد .. وكان لا يفتأ يحدثنى عن فتاة تدله فى هواها ، وراح يسهب فى وصفه إياها ، حتى أثار شوقى إلى رؤيتها .. ولكنها كانت حبيسة مؤسسة داخلية — تابعة لأحد الأديرة — أودعت فيها منذ كانت فى العاشرة من عمرها ، ولم يكن لها أن تبارحها إلا لتتزوج ، وإذ ذاك كانت المؤسسة تمنحها مائتى « كروان » رومانى بمثابة « دوطة » لها . وكان « منيكوتشيو » قد رأى هذه الفتاة أثناء تردده على المدرسة لزيارة شقيقة له من نزيلاتها . وكانت المؤسسة فى أيدى نساء لم يكن راهبات بالمعنى الصحيح ، ولكنهن كن متشبثات بالبقاء فى هذا السجن ، إذ لا مورد لهن للعيش فى الخارج !

وبفضل الكاردينال ، استطعت أن أرافق الشاب فى زيارة المدرسة . وجلسنا فى غرفة معتمة إلى جانب الباب الخارجى ، وما لبث أن أقبل على الغرفة شبحا فتاتين فى رفقة المشرفة . وكان من العسير أن أتبين شيئا من ملامحهما فى العتمة ، وإن عرفت أن شقيقة منيكوتشيو كانت صاحبة الصوت العذب .

يعمل على إصلاح « سجن العذارى » !

ولم تكن المشرفة تتجاوز الثلاثين من عمرها ، فرحت أجاذبها أطراف الحديث . وعلمت منها أن التلميذة إذا تجاوزت الخامسة والعشرين ، عينت مشرفة على التلميذات الصغيرات .. فإذا بلغت الخامسة والثلاثين ، جاز لها أن

تبرح المدرسة ، وإن كان معظمهن يؤثرن البقاء فيها ! وقلت لها : « إذن فلا بد أن بينكن عددا كبيرا من المكتهلات ؟ » .

ـــ إن عددنا يربو على المائة ، ولا يهبط به سوى الموت أو الزواج .. على أنني لم أشهد ـــ خلال العشرين عاما التى قضيتها هنا ـــ سوى أربع تزوجن ، ولم يتح لهن أن يرين أزواجهن إلا أمام المذبح .. فإن الكاردينال لا يقبل طلبا من أحد يريد الزواج من فتيات المؤسسة ، إلا إذا استوثق من أنه يستطيع أن يعولها !.. وهو لا يسمح للخاطب بأن يشهد الفتيات ويختار من تحلو له منهن ، بل إن كل ما يباح له هو أن يذكر السن والأوصاف التى يريدها فى الزوجة المنشودة ، فيعهد الكاردينال إلى مديرة المؤسسة باختيار فتاة تتوفر فيها تلك الأوصاف .

ولم أدر كيف كانت الإنسانية تسمح بقيام مؤسسة كهذه .. ولقد تحدثت إلى الكاردينال بهذا الصدد ، بحضور الأميرة دى سانتا كروش ، واتفقنا على أن نرفع إلى « البابا » التماسا ، ليباح لنزيلات المؤسسة أن يستقبلن الزائرين تحت اللوائح والقيود التى تطبق فى الأديرة !.. وفعل الالتماس ـــ الذى جمعت الأميرة له توقيعات من علية القوم ـــ فعله فى نفس البابا « جانجانيللى » ، الذى لم يكتف بما طلبنا ، بل أمر بالعمل على أن لا يزيد عدد الباقيات فى المؤسسة ـــ فى أية فترة ـــ على خمسين فتاة ، وبمضاعفة قيمة « الدوطة » .. وبأن تُفصل الفتاة التى تتجاوز الخامسة والعشرين دون أن تتزوج ، على أن تتسلم دوطتها كمنحة تستعين بها على العيش !

يعشق فتاة صغيرة رغم شيخوخته

وفى أول يوم أبيحت فيه الزيارات ــ بعد هذه التعديلات ــ رافقت منيكوتشيو .. وشاهدته فتاته .. فإذا بها مفرطة الجمال .. على أن أخته كانت فاتنة حقا ، وكانت فى حوالى السادسة عشرة .. أبدا لم أر فى حياتى مثل بشرتها بياضا ، ومثل شعرها وعينيها سوادا ، على أنها كانت مفرطة الشحوب ، مما كان ينم عن أن فى أعماقها نيرانا تستعر !.. والحق أننى شعرت بقلبى يتعلق بأرميلينا ــ كما كانت تدعى ــ ولكنى استنكرت من نفسى أن أعشق صبية فى سنها ، فزعمت لأخيها أننى متزوج ، لأقى نفسى نزوات فؤادى ، ولأصد أرميلينا عن أن ترعى آمالا لا تلبث أن تمنى بخيبتها !

ومع ذلك فإننى لم أقو على أن أكبح نفسى عن زيارة « أرميلينا » فى الساعة التاسعة من كل صباح ، واعتدت أن أتناول قهوة الصباح معها ومع أيميليا ــ حبيبة منيكوتشيو ــ ثم أبارحهما فى الساعة الحادية عشرة . وفى إحدى المرات ــ وكان ذلك فى سنة ١٧٧١ ــ رحت أتوسل إلى « أرميلينا » أن تقبلنى ، فتضرج وجهها ، وغضت بصرها . ولكنها لم تجب سؤالى رغم إلحاحى . وأشفقت الأميرة علىّ من هذا الهوى الفاشل ، بيد أنها لم تكن تملك لى عونا !.

وأخيرا يئست ، فقررت أن أبتعد عن المغامرة . وقضيت ثمانية أيام لم أر فيها الفاتنة المسرفة فى تمسكها بالفضيلة . على أننى تلقيت رسالة من مديرة المؤسسة ، جعلتنى أبادر بزيارتها . وكانت المديرة صريحة ، فما أن علمت أننى كففت عن زيارة المؤسسة ليأسى من « أرميلينا » وهواى ، حتى نبهتنى إلى أن

هذا الانقطاع المباغت من شأنه أن يثير الأقاويل حول الفتاة المسكينة ، وأن يوحى بأننى أشبعت نزواتى نحوها ، ثم نبذتها !

ووافقت على أن أعاود زياراتى ، وفى الصباح التالى ، ذهبت كعادتى السابقة ، فهبطت إلىّ « إميليا » ، وراحت توسعنى لوما على قسوتى . فقلت : « إنما أردت أن لا أحملها على أن تشعر بأننى أغويها .. أفتظنين أن مسلكى كان سهلا بالنسبة لى ؟ » .

وأقبلت أرميلينا ، فخيل إلىّ أن شكلها قد تغير .. وقلت لها إذ عاتبتنى : « إنما أرجوك أن تساعدينى على أن أبرئ نفسى بالوسيلة التى أراها ناجعة !.. إننى أرجو — إذ أقلل من رؤيتك — أن أغالب فؤادى ! » .

— يبدو أن من العسير عليك أن تحبنى كما أحبك .. فأنا أحسن السيطرة على نفسى حين أشعر أن هواى يوشك أن ينأى بى عن مبادئى !

— هذه سياسة لا أمل لدىّ فى أن أحذقها ، فى سنى هذه !

— لكم أتمنى أن تصبح « بابا » ، أو تغدو والدا لى ، أو أن تتحول إلى فتاة ، لنبقى طيلة ساعات أيامنا معا !

أخيرا .. يحظى بقبلات حبيبته !

تزوجت « إيميليا » حبيبها فى عيد الفصح .. وفى تلك الأثناء كنت قد صحبت الفتاتين مرات إلى سهرات ، حاولت خلالها أن أبث فى نفسيهما المرح الذى أخمده تزمت تقاليد المؤسسة !

وفى ذات يوم أعربت « أرميلينا » والمشرفة عليها — وكانت تدعى سكولاستيكا — عن رغبتهما فى أن تشاهدا حفلة راقصة .. وكانت المهمة

صعبة ، فعرضت عليهما أن تتنكرا فى زى الرجال . وأعددت العـدة ، فاستأجرت حجرة فى أحد الفنادق ، وحصلت لهما على طاقمين من ثياب الرجال . ولما صحبتهما إلى الحجرة التى كانت النار تتراقص فى مدفأتها — قلت لهما إن بوسعى أن أترك لهما الغرفة ، إذا آثرتـا أن تكونـا على انفـراد . فقالت سكولاستيكا : « إننى لا أشعر بأننى أثقل عليكما ، فمن السهل أن أري أنكما متحابان ! » .

قلت : « هو ذلك .. إننى أحب أرميلينا ، ولكنها لا تحبنى ، وإنما تعمل على تعذيبى » .

وغادرت الحجرة ، ولكن أرميلينا استدعتنى بعد ربع ساعة ، معلنة عجزهما عن ارتداء ثياب الرجال دون معونتى .. وفيما كنت أساعدها ، ألـقت ذراعيها حول عنقـى ، وراحت تمطرنى بالقبلات .. بينما كانت سكولاستيكا تضحك !

* * *

(وهنا تنقطع القصة لغياب بضع صفحات من « مذكرات كازانوفا » ، ولكن القارئ ولا ريب يستطيع أن يدرك بفطنته بقية القصة . وفى أول صفحة بعد الصفحات الغائبة ، نجد « كازانوفا » فى فلورنسا !.. أما لماذا ترك (روما) ؟ وما الذى صار إليه أمر أرميلينا ؟.. فالأرجح أن « كازانوفا » نفسه انتزع هذه الصفحات بنفسه ، بأمل أن يعيد كتابتها ، ولكن المرض والموت حالا دون ذلك !

(ومما يؤسف له أن الجزء الضائع من المذكرات ، اشتمل على أسباب نزوح « كازانوفا » إلى (فلورنسا) .. ويبدو أنه لم يفعل ذلك باختياره .. إذ نجد فى أول صفحة بعد ذلك الجزء ، ما يلى) :

كازانوفا ينشد حياة هادئة فى فلورنسا

.. ولم أسهب فى الإيضاح ، وإنما اقتصرت على أن أسأل « الأرشيدوق » الشاب ، أن يمنحنى مأوى فى دولته ، ولكى أقطع عليه السبيل للإغراق فى الأسئلة . ذكرت له الأسباب التى حملتنى على أن ألجأ إلى دولته دون سواها واستطردت قائلا : « أما عن مورد رزقى ، فألتمس من سموكم الملكى أن تطمئنوا إلى أننى لست بحاجة إلى معونة ما ، فإن لدىّ كفايتى من المال ، وسأكرس وقتى كله للدراسة !.. ولقد كنت أعرف كل علية القوم هنا ، منذ عشر سنوات . على أننى لن أجدد تعارفى بهم ، لأننى أعتزم أن أعيش فى هدوء وسكينة ! » .

واطمأننت إلى أن الحاكم الشاب سيقينى كل عدوان ، فاستأجرت غرفتين فى منزل رجل طيب ، كانت زوجته قبيحة الشكل ، ولم يكن فى ابنته أو ابنة أخيه ـــ التى كانت تقيم فى رعايته ـــ ما يجذبنى إليهما .. وفى تلك الأثناء ، تعرفت إلى صديق جديد ، يدعى « زانوفيتش » . وكان شابا مليحا ، ذا طباع كريمة ، ونفس سهلة ، ومرح فياض .. ولقد تبينت فيه صورة من شبابى ، فتوقعت أن يقع فى الأخطاء التى ترديت فيها . وقد التقيت فى داره بألويس زن . وهو ابن « الكابتن » الذى كان قائدا لقلعة « سانت أندريه » ، عندما سجنت فيها يوما ، وأنا فى باكورة شبابى ، على ما رويت من قبل .

على أننى لم أوثق صلتى بأى من هذين الشابين ، ولم أكن ألتقى بهما إلا فى الأماكن العامة .. ومع ذلك ، فقد ترتبت الأحداث ـــ التى أوشك أن أرويها ـــ عليهما !

يطرد من فلورنسا .. هى الأخرى !

فلقد زار (فلورنسا) ـــ فى تلك الأثناء ـــ اللورد لينكولن ، الابن الأوحد لدوق نيو كاسل ، على ما أعتقد ، وكان شابا دون العشرين من العمر ، وقد تدله فى هوى راقصة من بنات البندقية ، تدعى « لامبيرتى » ، وراح يحوم حولها . فما أن فطن « زانوفيتش » إلى ذلك ، حتى اتصل بالفتاة ، ودبر معها خطة ما ، استطاع بفضلها أن يقود اللورد الفتى إلى دارها . وهناك ، أحاط « زانوفيتش » و « ألويس زن » باللورد الصغير ، واستدرجاه إلى لعب الميسر ، واستطاعا أن يغشاه بمعونة « لامبيرتى » ، فراح اللئام الثلاثة يتقاسمونها معا ، حتى بلغ دين اللورد الفتى لألويس زن وحده ، مبلغ اثنى عشر ألفا من الدنانير. وقد دفع لينكولن ثلاثة آلاف منها ، ووقع بالباقى ثلاث وثائق « كمبيالات » على مصرفه فى لندن .

ولقد كان اللورد هو الذى أنبأنى بكل هذا ، عندما التقيت به فى (بولونيا) بعد ذلك بزمن . على أننى فى تلك الفترة لم أعرف من الأمر أكثر مما شاع فى (فلورنسا) عن أن المصرفى « تاسوتاسى » قد دفع ستة آلاف دينار إلى زانوفيتش ، بأمر من اللورد . لذلك ففى وسع القارئ أن يتصور دهشتى عندما فوجئت ـــ بعد انتشار هذا النبأ بثلاثة أيام ـــ بشخص يقتحم غرفتى ، ويسألنى عن اسمى ، ثم يأمرنى بأن أبرح أراضى فلورنسا خلال ثلاثة أيام ، وبأن أتجنب أراضى (توسكانى) بعد أسبوع من هذا الإنذار .

وكان ذلك فى ٢٨ ديسمبر .. وأسرعت إلى النائب العام ، لأتعرف السبب الذى دعا إلى طردى ، فإذا به نفس الرجل الذى أنذرنى بمبارحة

(فلورنسا) قبل ذلك بأحد عشر يوما ، فأوجست شرا .. وعندما وجهت إليه سؤالى ، كان جوابه إن هذه كانت رغبة صاحب السمو الملكى « الأرشيدوق » !

« كازانوفا » يكتب تاريخ (بولندا)

ولقد أبرأنى رحيلى من فلورنسا ، من مغامرة غرامية كانت خليقة بأن تنتهى إلى نكبة . فقد أحببت أرملة لعوبا ، استطاعت بعبثها وغوايتها أن تجردنى من كل عزيمة ، وأن تجرنى فى ركابها ، وأن تزدرينى وتحاول النيل من كرامتى . ولست أدرى ما الذى كان ينتهى إليه أمرى معها ، إذ أننى لم أكن قد ألفت شيخوختى بعد ، ولم أكن قد رُضت نفسى على أننى تجاوزت السن التى كنت فيها مشتهى لدى الغوانى والحسان !

وبلغت (بولونيا) فى آخر أيام سنة ١٧٧٢ .. وفى أول يوم فى العام الجديد ، زرت الكاردينال برانكافورت ، المندوب البابوى .. وكنت قد التقيت به فى (باريس) قبل عشرين عاما ، وكثيرا ما ضمتنا معا موائد الخاطئات الجميلات .. وفى تلك الأثناء ، كان السنيور دى زاجورى — وهو من نبلاء البندقية المبرزين — يعمل مع بعض الأصدقاء المخلصين على استصدار عفو عنى ، كى أعود إلى وطنى .. البندقية . وما لبثوا أن سألونى أن أقيم على مقربة من أراضيها . وانتهى الرأى بيننا على أن أقيم فى (تريستا) ، حيث سبقتنى توصيات إلى علية قومها .

وقضيت الأيام العشرة الأولى — لإقامتى هناك — فى مراجعة المذكرات التى كنت قد جمعتها فى (بولندا) ، ثم شرعت فى كتابة تاريخ القلاقل

والاضطرابات التى أدت إلى ما كان يجرى — فى تلك الآونة — من تقسيم تلك الدولة التعسة !

وكنت قد توقعت هذا المصير ، منذ اعترف أمير بولندا بالقيصرة إليزابيث بيتروفنا إمبراطورة على كل الأراضى الروسية ، وحاكم براندنبورج المنتخب ملكا على بروسيا . ولم يقدر لى أن أصدر سوى ثلاثة مجلدات من هذا المؤلف ، ثم حال جشع الناشرين دون طبع المجلدات الأربعة الباقية ، التى ستوجد بين أوراقى بعد مماتى .

.. ويقوم بتجديد المعاهدات التجارية لبلاده !

وفى أول ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، استدعانى البارون « بيتونى » إلى داره ، لأقابل شخصا وصل لفوره من البندقية . فهرعت إلى داره ، وهناك التقيت برجل مليح ،أنيق ،يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، أدركت لفورى أنه السنيور دى زاجورى ، الذى تبنى قضيتى دون أن يكون على معرفة سابقة بى . وعن طريقه تعرفت إلى قنصل البندقية فى (تريستا) ، وكان شيخا جليلا ، سعدت بصداقته طيلة العامين اللذين قضيتهما فى تريستا .. وأعتقد أنه ساهم بنصيب وافر من الجهود لإعادتى إلى وطنى .. وهى الأمنية التى كنت أعيش من أجلها . فقد اشتد بى الحنين إلى وطنى فى السنوات الأخيرة .

ومارست فى تريستا حياة هادئة ، لا سيما وأن مواردى كانت من التناقص بحيث اضطرتنى إلى أن ألتزم الاقتصاد الشديد . ولقد أديت خلال العامين خدمات لوطنى ، بالتعاون مع القنصل . إذ عملت على مراجعة بعض

المعاهدات التجارية القديمة ، وعلى تجديدها ، مما عاد على دولة البندقية بفوائد جمة ، تلقيت عنها منحة مالية ، ومعاشا شهريا قدره عشرة دنانير فساعدنى هذا على أن أتخفف من بعض التقتير فى عيشى .

على أن المعنى الأدبى لهذا التقدير من السلطات التى حرمتنى من قبل من حريتى ، واضطرتنى — بعد إذ أبيت البقاء فى السجن ظلما — إلى أن أبقى مبعدا عن وطنى .. كان المعنى الأدبى لهذا التقدير يفوق كل قيمة مادية . وقد حدث — حوالى ذلك الوقت — أن جاء القائد البندقى « بالمانوفا » إلى تريستا ، فى زيارة حاكمها ، مستصحبا النائب العام « أريتزو » . وقد التقيت بهما فى دار القنصل الفرنسى .

يحترم أحكام ظالميه !

وكان الزائران يعتزمان أن يقوما — بعد ذلك مباشرة — بزيارة سفينة حربية تابعة للبندقية فى تريستا . فدعتنى ابنة القنصل لمرافقتهم ، ولكننى أجبت — ضاحكا — بأن من المحرم علىّ ، منذ سنوات طوال — أن أطأ أرضا تابعة للبندقية . فصاح كل الموجودين إذ ذاك ، مستنكرين هذا الحرمان ، وأصروا على أن أصحبهم . ولكنى قلت : « إذا وعدنى السيدان — أقصد القائد والمدعى العام — بأن لا يصل النبأ إلى ديوان التفتيش فيعتبر خرقا منى لحكم سابق ، فلا بأس لدى ! » .

ووجم الحضور إزاء قولى هذا ، واضطروا إلى الذهاب بدونى .. على أن المدعى العام هنأنى — فى اليوم التالى — على حكمتى ، وأكد لى أنه سيرفع إلى محكمة التفتيش هذا النبأ عن احترامى لأحكامها !

(وهنا تنتهى فجأة مذكرات « جياكومو كازانوفا » ، شيفالييه دى سيينجال ، وفارس الحرية الذهبية ، والمغامر العالمى .. وليس ثمة ما يجزم بما إذا كان قد مات قبل أن يتم مذكراته ، أو أنه أعدم بنفسه القسم الأخير منها ، أو أن الموكلين بمراجعة مؤلفاته استبعدوا هذا الجزء ، أو أن مخطوطاته وقعت فى أيد لم تكن أمينة عليها أو معنية بها ..

(على أن ما يمكن الجزم به ، هو أن كازانوفا ظفر بالعفو أخيرا ، فعاد إلى البندقية ، حيث استخدم كعضو سرى فى ديوان التفتيش ، أو — بتعبير أكثر صراحة — كجاسوس !.. على أنه أخفق فى هذه المهمة سواء عن اشمئزاز منه ، أو بسبب كبر سنه ، وتداعى قواه العقلية . ومن ثم فقد بارح البندقية — مرة أخرى — فزار (فيينا) ثم (باريس) ، حيث التقى بالكونت الأمير فالنشتاين ، الذى أعجب به ، فعينه أمينا لمكتبته فى حصن دوكس ، بالقرب من (تبليتز) وفى هذه المكتبة قضى كازانوفا الأربعة عشر عاما التى بقيت له فى الحياة !

(ولقد قضى السنوات الأخيرة من عمره ، فى آلام من جراء الكهولة ، ومن انهيار أعصابه ، واتساع الهوة بين عقليته وعقلية الجيل الجديد ، لا سيما وأن الآراء المتحررة بدأت تسود أوربا بأسرها ، بعد الثورة الفرنسية .. ولقد جاءه الموت كمنقذ خلصه من المتاعب البدنية والعقلية التى كان يعانيها . وكان آخر ما قاله : « لقد عشت يا إلٰهى العظيم ، ويا من تشهدون موتى ، فى أحضان الفلسفة .. وإنى لأموت على دين المسيح » !

حلمي مراد يقدم من كنوز كتب التراث

١ ــ رسالة الغفران : وكتب أخرى

١ ــ رسالة الغفران
٢ ــ الكوميديا الإلهية
٣ ــ جمهورية أفلاطون

٢ ــ الأمير : وكتب أخرى

١ ــ الأمير
٢ ــ يوتوبيا
٣ ــ المدينة الفاضلة
٤ ــ نظرية التطور
٥ ــ أصل الإنسان

٣ ــ العقد الاجتماعى : وكتب أخرى

١ ــ العقد الاجتماعى
٢ ــ الإلياذة
٣ ــ الأوديسة
٤ ــ إميل

٤ ـــ سالومي : ومسرحيات أخرى

١ ـــ سالومى
٢ ـــ المريض بالوهم
٣ ـــ ترويض الزوج
٤ ـــ سيرانو دى برجراك

٥ ـــ جوكندا : ومسرحيات أخرى

١ ـــ جوكندا
٢ ـــ هرنانى
٣ ـــ الحب الآثم
٤ ـــ الجنس الآلى
٥ ـــ سر سيدة القصر
٦ ـــ الأم

٦ ـــ مدرسة الأرامل : ومسرحيات أخرى

١ ـــ جوديث
٢ ـــ الهاربة من الفضيحة
٣ ـــ رجل الأقدار
٤ ـــ كاليجولا
٥ ـــ مدرسة الأرامل

حلمى مراد يقدم من مكتبة الأعْلام

٧ ـــ الكسندر ديماس

١ ـــ الكسندر ديماس	(من أعلام الأدب)
٢ ـــ لويس باستير	(من أعلام الطب)
٣ ـــ تشايكوفسكى	(من أعلام الموسيقى)
٤ ـــ مايكل أنجلو	(من أعلام الفن)
٥ ـــ مختار	(من أعلام النحت)
٦ ـــ نيتشة	(من أعلام الفلسفة)
٧ ـــ ماركونى	(من أعلام الاختراع)

٨ ـــ مروحة الليدى وندرمير : ومسرحيات أخرى

١ ـــ مروحة الليدى وندرمير

٢ ـــ خطايا الحب

٣ ـــ عذراء الغابة

٤ ـــ العدالة

٥ ـــ البطل لوسيد



رقم الإيداع ٧٠٠٦ / ٩٤
I.S.B.N
977 - 11 - 0866 - 2

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه





حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

١ ــ رسالة الغفران

٢ ــ الأمـــير

٣ ــ العقد الاجتماعى

٤ ــ سـالومى

٥ ــ جيوكندا

٦ ــ مدرسة الأرامل

٧ ــ ألكسندر ديماس

٨ ــ مروحة اللادى وندرمير

٩ ــ مذكرات كازانوفا

١٠ــ حياتي مع بيكاسو

١١ــ أوسكار وايلد

١٢ــ مـوزار (وأعلام آخرون)

١٣ــ ملكات ونساء

١٤ــ الأسلحة والإنسان

(ومسرحيات أخـ

١٥ــ الملك أوديب

١٦ــ دكتور فاوست

١٧ــ ليدى هاملتون

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٤٠٠ قرش